

موسى وعيسى

الغزوات الكبرى

إعداد
مجتهد بن أحمد باشميل
رحمة الله تعالى

المجلد الثاني

دار النهضة
السورية

دار الهدى النبوي
مصر



مِن مَّعَارِكِ الْإِسْلَامِ الْفَاصِلَةِ

(١٠)

عَزَّةٌ وَتَبُوكٌ

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة المؤلف

اللهم بك نستعين وبك نعوذ من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا.. اللهم نسألك التوفيق في القول والعمل.

وصل اللهم على نبيك محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وبعد، فهذا هو الكتاب العاشر من سلسلتنا التاريخية (معارك الإسلام الفاصلة)

نتقدم به إلى القارئ الكريم، آمليين أن يكون محل رضاه، موضوعاً وإخراجاً.

إن غزوة تبوك هي أعظم غزوة في تاريخ العهد النبوي من حيث كون الجيش الذي قام بها بلغ ثلاثين ألفاً وهو عدد لم يسبق في تاريخ العهد النبوي وإن اجتمع مثله تحت قيادة الرسول ﷺ، وكما أن هذه الغزوة هي أعظم حملة عسكرية يقوم بها النبي ﷺ، فإنها آخر عملية عسكرية يقوم بها حتى توفاه الله تعالى.

في غزوة تبوك هذه لم يحدث أي اصطدام بين الجيش الإسلامي والجيش الروماني المقصود بهذه الغزوة؛ لأن هذا الجيش إذا كان - كما يقول المؤرخون - قد حشد عدة وحدات كثيفة على حدود الجزيرة العربية بغية اقتحامها بمساندة من العرب المنتصرة الموالين له، فإن هذا الجيش بمجرد علمه بتحركات المسلمين من المدينة قد انسحب من الحدود إلى أواسط الشام خوفاً من الاصطدام بجيش الإسلام بدليل أن المسلمين عند وصولهم إلى تبوك بنوا دورياتهم فلم يجدوا أي أثر للعسكر الرومان.

لهذا يكون الجيش الإسلامي - وإن لم يحقق على الرومان في هذه الغزوة - نصراً عسكرياً إلا أنه حقق أعظم انتصار معنوي حيث أربع جيش أعظم امبراطورية في العالم يوم ذاك حين هربت من الحدود لقدمه الوحدات التي حشدتها هرقل بقصد الإغارة على جزيرة العرب. وقد كان انتصار النبي ﷺ المعنوي في تبوك مقدمة لأعظم انتصارات عسكرية حققها خلفاؤه على الرومان بعده حيث انتزعوا منهم الشام كلها وجانباً من آسيا الصغرى كما هو معلوم.

كذلك سجل الرسول ﷺ وهو بتبوك نصراً عسكرياً له أهميته العظمى، وهو أنه بعث خالد بن الوليد وهو بتبوك في أربعمائة فارس إلى دومة الجندل فقتل على أخطر جيب لا يزال معادياً للإسلام داخل الجزيرة وهي مملكة دومة الجندل الكندية العربية النصرانية حيث احتل حصونها وأسر ملكها (أكيدر بن عبد الملك) وقتل أخاه حسان.

بل إن عدة أمراء من المرتبطين بالتاج البيزنطي داخل الشام قد أفرعهم وجود الجيش النبوي في تبوك فألقوا بأيديهم وجاءوا إلى النبي ﷺ وعقدوا معه صلحاً قبلوا بموجبه الدخول تحت طاعة المسلمين بدفع الجزية لهم - وهم أهل أذرح وجربا بمعان وأهل إيلات بخليج العقبة - وكل هذه المناطق داخلة في الشام ضمن ممتلكات بيزنطا. بهذا تكون غزوة تبوك قد حققت أهدافها كاملة وعاد الجيش النبوي على المدينة منتصراً انتصاراً عظيماً.

كما أن الرسول ﷺ قبل وبعد غزوة تبوك أي في السنة التاسعة هجرية جرد عدة حملات عسكرية إلى الأنحاء النائية في الجزيرة قامت هذه الحملات بتصفية جميع الجيوب الوثنية المتبقية في الجزيرة فقد جرد قبل غزوة تبوك ثمانى حملات حربية قامت بالتصفية النهائية لجميع مظاهر الوثنية في الجزيرة ولم يلتحق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى في السنة الحادية عشرة إلا وقد أصبحت الجزيرة من أقصاها إلى أقصاها يرفرف عليها علم الإسلام الخفاق.

والحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده وآله وصحبه.

محمد أحمد باشميل

جدة — المملكة العربية المحروسة

١٣٩٥هـ — ١٩٧٥م

الفصل الأول

مجمّل الأحداث العسكرية بين غزوة حنينٍ وغزوة تبوك

هملّة تأديب بني تميم بقيادة عيينة بن حصن الفزاري

هملّة تأديب خثعم بقيادة قطبة بن عامر.

سرية الضحّاك بن سفيان إلى بني كلاب.

هملّة بحرية بقيادة علقمة بن مجزر المدلجي.

سرية علي بن أبي طالب إلى قبيلة طيء

قصة إسلام عدي بن حاتم.

قصة إسلام كعب بن زهير.

هملّة خالد بن الوليد إلى نجران.

سير علي بن أبي طالب إلى اليمن.

قصة إسلام كعب الأحبار.

مما لا جدال فيه أن معركة حنين التي دارت بين المسلمين وهوازن بالقرب من مكة، هي أعنف وآخر معركة يخوضها النبي ﷺ بنفسه.

وكان انتصار المسلمين الساحق في هذه المعركة بمثابة آخر مسمار يدق في نعش الوثنية في جزيرة العرب.

فقد انهزم في هذه المعركة أمام المسلمين أعظم تحالف عشائري وثني، واجهه الإسلام في تاريخه (بعد تحالف الأحزاب)^(١)، وكان المتبقون على الوثنية في جزيرة العرب والمرتابون الذين أسلموا ولما يدخل الإيمان في قلوبهم، يعلقون أكبر الآمال على انتصار قوات هوازن على جند الإسلام في حنين، فقد كانت قوات هوازن التي جاءت من بلادها

(١) انظر كتابنا الثالث غزوة الأحزاب.

لخوض العركة وإخراج المسلمين من مكة تقدر بعشرين ألفاً بينما كانت قوات المسلمين لا تزيد على عشرة آلاف مقاتل يضاف إليهم ألفان من مسلمي مكة الذين لم يمحض على إسلامهم سوى نصف شهر، والذين بينهم الكثير ممن يضمرك الكيد للإسلام والمسلمين ويتمنى النصر للمشركين على النبي ﷺ.

غير أن تمكن الجيش الإسلامي من سحق العسكرية الهوازنية المتغطرسة في حين حطم كل الآمال التي تتشبث بها بقايا أوكار الوثنية المبعثرة هنا وهناك في جزيرة العرب. وقد بقى جناح من الأجنحة العسكرية الهوازنية (له أهميته) شبه سليم، وهو جناح ثقيف الذي بقى - بعد الهزيمة في حين - يشكل بعض الخطر على المسلمين، حيث اعتصم هذا الجناح في حصونه بالطائف متمسكاً بوثنيته، ومبدئياً العداوة والمقاومة الحربية لسلطان الإسلام.

غير أن خطر هذا الجناح الهوازني قد زال عندما دخلت كل قوادم هذا الجناح وخوافيه في الإسلام، وذلك بعد أن وجدت ثقيف نفسها معزولة وشبه محصورة من بقية عشائر هوازن التي دخلت (صادقة في الإسلام) وصارت بقيادة ملك هوازن السابق وقاندها العام في معركة حين تضيق الخناق على ثقيف في عقر دارها.

فسارع عقلاء ثقيف إلى عقد اجتماع تباحثوا فيه بشأن ما آل إليه أمرهم بعد دخول إخوانهم الهوازنيين في الإسلام، وتحولهم إلى جنود لهذا الدين يشنون (لنصرتهم) الغارات على الطائف نفسها لبقاء أهلها على الشرك.

وقد كانت قبائل ثقيف قوة حربية لها وزنها ما في ذلك شك، فثقيف جيل محارب على مستوى ممتاز من أقد العصور، يشهد على مقدرتهم القتالية وعراقتهم في شئون الحرب صمودهم بعناد داخل حصونهم أمام الحصار الشديد الذي فرضه الجيش النبوي البالغ اثني عشر ألفاً عقب انتصاره في حين وقيامه بمطاردة ثقيف هؤلاء، وقد رأينا (كما تقدم في كتابنا التاسع غزوة حين) كيف أن الرسول ﷺ اضطر إلى فك الحصار عن الطائف، بعد أن فقد جيشه أربعة عشر شهيداً قتلوا بسهام ثقيف، وهو عدد لم يذكر أحد من المؤرخين أن المسلمين فقدوا مثله في معركة حين الحاسمة نفسها، الأمر الذي يدل على عناد ثقيف وكونهم جيلاً محارباً شرساً، وقد فك الرسول الحصار عن حصون ثقيف دون أن يتمكن جيشه من إخضاع أي قبيلة من قبائل ثقيف بقوة السلاح. إلا أنه ﷺ أخبر أصحابه أن الله سيأتي بثقيف وستدخل في الإسلام طائعة، ولهذا لا داعي لإهدار الوقت من أجل حصار قوم سيأتون مسلمين باختيارهم إن عاجلاً أم آجلاً.

وبعد أن تدارس قادة ثقيف وعقلاؤها الوضع الذي هم عليه - كما تقدم - رأوا بالإجماع أن لا نجاة لهم مما هم فيه من ضيق وخوف - نتيجة بقائهم مشركين في محيط عشائر من إخوانهم وجيرانهم كلهم دخل في الإسلام - إلا بدخولهم هم أيضاً في الإسلام، ونتيجة الاتفاق على هذا الرأي، ذهب وفد من ثقيف إلى المدينة، وأعلنوا إسلامهم جميعاً، بعد مفاوضات طويلة، أبدى فيها الوفد الثقيفي الكثير من السخف، كما هو مفصل في كتابنا التاسع من هذه السلسلة (غزوة حنين).

الحملة العسكرية بعد حنين والطائف: وبعد انتصار المسلمين الحاسم في حنين، وبالرغم من هذا الانتصار العظيم، فقد بقيت للوثنية جيوب، بدا وكأنها (رغم تبعثرها وضعفها) تتحدى المسلمين، وتبدي شيئاً من الاستهانة بهم، وترفض الدخول فيما دخل فيه أكثر سكان الجزيرة من الإسلام.

وكانت هذه الجيوب الوثنية في واقعها، لا تشكل أي تهديد عسكري لكيان الإسلام الذي صار صاحب السلطة الأقوى من كل سلطة في ربوع الجزيرة العربية، فقد كانت هذه الجيوب الوثنية مبعثرة في نقاط متباعدة جداً في الجزيرة، وليس بينها أي ارتباط عسكري، يجعلها تشكل قوة حربية متحدة ضد المسلمين.

ولكن بقاء هذه الجيوب المبعثرة القليلة على وثنتها وعدائها للإسلام، لا يتفق وأهداف هذا الدين، التي من أهمها توحيد الجزيرة العربية تحت لواء التوحيد وعدم السماح لأي أثر من آثار الوثنية أن يبقى قائماً في هذه الجزيرة.

لذلك (وكي لا يبقى أي سلطان في جزيرة العرب إلا للإسلام وكي لا يبقى فيها شيء من معالم الوثنية) جرد الرسول ﷺ خمس حملات عسكرية تولت تصفية كل ما تبقى من جيوب وثنية في مختلف أنحاء الجزيرة.

- ١ -

حملة تأديب بني تميم في محرم سنة تسع للهجرة : وهي دورية قتال قادها إلى دار بني تميم سيد فرارة عيينة بن حصن^(١).

(١) انظر ترجمة عيينة هذا في كتابنا (غزوة بدر الكبرى).

وسبب ذلك أن الرسول ﷺ بعد عودته من حنين، وبعد أن انتشر الإسلام بين الأغلبية الساحقة من سكان الجزيرة العربية، بعث برجال من أصحابه إلى مختلف القبائل ليجمعوا لبيت مال المسلمين الزكاة المفروضة. فبعث بريدة بن الحصيب^(١) إلى أسلم وغفار، وبعث عباد بن بشر الأشهلي إلى سليم ومزينة، وبعث رافع بن مكث^(٢) إلى قومه جهينة، وبعث عمرو بن العاص^(٣) إلى فزارة، وبعث الضحاك بن سفيان الكلابي إلى بني كلاب.

وكان فيمن بعث، بسر بن سفيان الكعبي^(٤) إلى قومه خزاعة، فجاءهم بسر فرحبوا به وأبدوا استعدادهم لأداء ما فرض الله عليهم من زكاة، وكانت تجاور خزاعة في أرضها قبيلتان من تميم يقال لإحدهما: بنو جهيم، وللأخرى: بنو عمرو بن جندب بن العتير، وكانوا يشربون مع خزاعة على غدِير واحد بذات الأشطاط ناحية عسفان وعلى مسافة غير بعيدة من الحديبية، وكان هذان الحيان من تميم لا يزالان على الوثنية، وكانوا ضيوفاً على خزاعة؛ لأنهم في أرضها.

غير أن التميميين لما رأوا خزاعة تحشر جميع مواشيها ليأخذ منها بسر بن سفيان الزكاة لبيت مال المسلمين، استنكروا ذلك، وقالوا لخزاعة: ما هذا؟ تؤخذ أموالكم بالباطل.

فقال لهم الخزاعيون: إننا مسلمون وهذا شيء يفرضه ديننا ونحن راضون به، فنفخ شيطان الجاهلية في مناخر التميميين فقالوا: والله لا يصل إلى بعير منها أبداً، ثم احتشدوا وأخذوا أسلحتهم، فتقلدوا القسي وشهروا السيوف ليمنعوا بالقوة مبعوث الرسول ﷺ من أن يأخذ زكاة مواشي خزاعة المسلمة.

وكان المبعوث النبوي إلى خزاعة ليس معه من مرافقيه سوى اثنين فقط، فلما رأى احتشاد التميميين في سلاحهم خاف وهرب راجعاً إلى المدينة، قال الواقدي: (وهو يخافهم، والإسلام يومئذ لم يعم العرب، قد بقيت بقايا من العرب - أي على الوثنية - وهم يخافون السيف لما فعل رسول الله ﷺ بمكة وحنين، وقد كان النبي ﷺ قد أمر مصدقيه - أي الذين يجمعون الزكاة - أن يأخذوا العفو منهم، ويتوقوا كرائم أموالهم، فقدم المصدق على النبي ﷺ، وقال: يا رسول الله، إنما كنت في ثلاثة نفر)^(٥).

(١) انظر ترجمة بريدة في كتابنا (فتح مكة).

(٢) انظر ترجمة رافع هذا في كتابنا (فتح مكة).

(٣) انظر ترجمة عمرو بن العاص في كتابنا (فتح مكة).

(٤) انظر ترجمة بسر بن سفيان في كتابنا (صلح الحديبية).

(٥) مغازي الواقدي ج ٣ ص ٩٧٤.

خزاعة تطرد بني تميم من بلادها : لقد كان تصرّف بني تميم يحمل كل معاني الرعونة والصفاقة، فهم ليسوا في بلادهم وإنما منتجعون ضيوف في بلاد خزاعة، ولولا حلم خزاعة ورعايتها جانب قرابتها من بني تميم لفتكوا بهم، ولقد غضبت خزاعة لتصرف بني تميم، وقالت لبني تميم: لولا قرابتكم ما وصلتكم إلى بلادكم، ليدخلن علينا بلاء من عداوة رسول الله ﷺ وعلى أنفسكم، تعرضون لرسول رسول الله ﷺ، تردّونهم عن صدقات أموالنا. ثم أمرت خزاعة بني تميم أن يخرجوا من بلادها في الحال، وذلك كتعبير عن عدم رضى خزاعة بما صنعت تميم، فخرج بنو تميم هارين من ديار خزاعة إلى بلادهم.

وعندما اطلع الرسول ﷺ على ما حدث من بني تميم. قال: من لهؤلاء القوم الذين فعلوا ما فعلوا؟ فقال عيينة بن حصن الفزاري: أنا والله لهم، أتبع آثارهم حتى آتيتك بهم إن شاء الله، فترى فيهم رأيك أو يسلموا.

فبعث رسول الله ﷺ عيينة على رأس قوة صغيرة من الفرسان قوامها خمسون فارساً، كلهم من البادية، ليس بينهم مهاجر واحد ولا أنصاري، فأسرع عيينة بقواته الخفيفة كي يعترض بني تميم قبل أن يصلوا بلادهم، فصار يسير الليل ويكمن لهم بالنهاري، وكان يتبع أخبارهم، فبلغه أنهم قد خيموا في أرض بني سليم، فلما عرف مكانهم توجه بفرسانه لمهاجتهم.

وعندما شنّ عليهم الهجوم لم يثبتوا له، بل ولوا هارين، ولكنه تمكن من أن يأسر أحد عشر رجلاً منهم، كما سبي إحدى عشرة امرأة منهم وثلاثين صبياً، فحمل الجميع إلى المدينة، فأنزلهم الرسول ﷺ في دار، رملة بنت الحارث، إلى أن جاء وفد كبير من تميم مدعين، وأعلنوا إسلام تميم كلها، فأطلق الرسول ﷺ أسراهم ثم أعاد إليهم نساءهم وصبانهم كما هو مفصل في أخبار وفد تميم المشهورة، والذين أنزل الله تعالى فيهم: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [الحجرات: ٢].

حملة لتأديب خثعم^(١) في صفر سنة تسع هجرية: وهي دورية قتال صغيرة مكونة من عشرين رجلاً، أعطى الرسول قيادتهم إلى قطبة بن عامر بن حديدة^(٢)، وأمرهم أن يغيروا على حيّ من خثعم ظلّوا على الوثنية، وهم في ناحية تباله.. فخرج قطبة بن عامر وصحبه، ومعهم عشرة جمال، يتعقبونها، وقد غيّبوا السلاح، زيادة في التكتّم، وصارت الحملة تكمن بالنهار وتسير الليل.

وعندما وصلوا إلى مكان يقال له: بطن مسح وجدوا رجلاً فاستجوبوه - وكان كما يبدو - من قبيلة خثعم، فلم يخبرهم بشيء، بل صاح محاولاً إنذار الوثنيين من خثعم فقتله قطبة بن عامر قائد السرية.

ثم أقام عامر بسريته مكانهم حتى مضت ساعة من الليل، فبعث برجل طليعة يستكشف مواقع العدو، فعرف مواقعهم وأنهم مخيمون في الحضر وعندهم الإبل والشاء، فأصدر قطبة إلى رجاله الأوامر بالهجوم، على أن يدبّوا ديبباً بحيث لا يشعر بهم الحرس، وعلى أن يكون الهجوم بعد أن يهدأ من في الحي ويناموا.

وفعلاً لما هدأ رجال العدو وناموا كبر قطبة ورجاله وشتّوا عليهم الغارة، فخرج إليهم من في الحاضر، فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى كثرت الجراح في الفريقين، واستمرت المعركة إلى أن أصبح الصباح، وعندها جاءت النجدات الكثيرة من خثعم وكادت سرية قطبة تطوق من جميع الجهات، إلا أن الله جاء بسيل عظيم حال بين نجدات خثعم وبين أسياد قومهم المشتبكين مع رجال قطبة بن عامر حيث لم يستطيعوا عبور الوادي، وهنا تمكن قطبة وسريته من القضاء على جميع من في الحي، ثم استولى على كل ما في الحي من نعم وشاء واستاق معه جميع النساء سبايا، وعاد بالجميع إلى المدينة، فكان حصّة كل رجل من رجال السرية في الغنائم أربعة من الجمال، وذلك بعد عزل الخمس من أصل الغنيمة^(٣).

(١) خثعم: قبيلة يمانية قحطانية، تقع منازلهم ما بين بيشة وترية، وقد كانت خثعم جيلاً عظيماً محارباً في الجاهلية، وقد قامت بغزو ثقيف في الطائف، فهزمتهم ثقيف.

(٢) انظر ترجمة قطبة بن عامر في كتابنا (غزوة بدر الكبرى).

(٣) انظر مغازي الواقدي ج ٣ ص ٧٥٤ و ٧٥٥.

-٣-

سرية بني كلاب شهر ربيع الأول سنة تسع هـ: ومضى رسول الله ﷺ في تطهير بقايا جيوب المقاومة الوثنية الصغيرة في جزيرة العرب، فقد بلغه أن بطناً من القرطاء من بني بكر بناحية نجد لا يزالون يناوئون ويتمسكون بالوثنية، فجرد عليهم حملة عسكرية بقيادة الضحاك بن سفيان^(١) الكلابي، ولم يذكر أحد من المؤرخين عدد رجال هذه الحملة، إلا أن الواقدي ذكر أنها جيش، وهذا يعني أنها كانت تضم عدداً كبيراً من المقاتلين.

وكان هؤلاء الوثنيين البكرين بناحية ضريبة في نجد شرقي المدينة، وقد تحركت الحملة من المدينة لتأديبهم - وفيها الأصيلد بن سلمة بن قرط - وقد التقى الضحاك بن سفيان وسريته بالأعداء القرطاء في مكان بنجد يقال له: زجّ لاوة، فدعوهم إلى الإسلام، فكان جوابهم على هذه الدعوة مباشرة الحرب، فاشتبك معهم المسلمون، فدارت بين الفريقين معركة انتهت بفوز المسلمين وهزيمة المشركين، وبهذا تم تطهير ذلك الجيب الوثني الصغير المتبقي بناحية ضريبة.

ومن عجيب المفارقات التي تأتي نتيجة الاختلاف في العقيدة أن أحد الأعيان المشتركين في سرية الضحاك بن سفيان (وهو الأصيلد بن سلمة) لقي أباه سلمة في صفوف المشركين، فدعاه إلى الإسلام، وأعطاه الأمان، فسبّه وسبّ الإسلام.

(١) هو الضحاك بن سفيان بن عوف بن كعب بن أبي بكر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة العامري الكلابي، يكنى أبو سعيد أسلم وصحب النبي ﷺ، وكان ينزل في بادية المدينة، وولاه رسول الله ﷺ على من أسلم من قومه، وكتب إليه أن يورث امرأة أشيم الضبابي من دية زوجها، وكان قتل خطأ، وكان من حراس رسول الله ﷺ الأمناء الأشداء، إذ كان يقوم على رأس رسول الله ﷺ متوشحاً بسيفه، وكان من الشجعان الأبطال يعد وحده بمائة فارس، شهد له بذلك رسول الله ﷺ فقد أمره النبي ﷺ على سليم وهم سائرون إلى مكة لفتحها وكانوا تسعمائة، فقال لهم رسول الله ﷺ: هل لكم من رجل يعدل مائة يوفيكم ألفاً؟ فوفاهم بالضحاك وكان رئيسهم وقد اتى على الضحاك الشاعر الحكيم العباس بن مرداس السلمي فقال:

إن الذين وفوا بما عاهدتم	جيش بعثت عليهم الضحاكا
أمّرته ذرب السنان كأنه	لما تكشفه العدو يراكا
طوراً يعانق بالبيدين وتارة	يفرى الجماحم حازماً فتاكا

كان الضحاك بن سفيان ممن روى عنه الحديث الشريف، فقد روى عنه من التابعين، سعيد بن المسيب والحسن البصري (أسد الغابة ج ٣ ص ٣٦).

فما كان من الأصيد إلا أن حمل على أبيه - وكان أبوه فارساً - فضرب الأصيد عرقوب فرس أبيه، فلما وقع الفرس في الماء، ارتكز سلمة على رمحه في الماء ثم استمسك به لئلا يغرق، فحمل عليه أحد جنود السرية فقتله، ولم يقتله ابنه، ولكنه يسر لغيره من المسلمين قتله غير آسف، حين عقر فرسه.

وكان رسول الله ﷺ قد بعث إلى القرطاء البكرين هؤلاء بكتاب يدعوهم فيه إلى الإسلام، فاستهزئوا به وبكتابه، فأخذوا الصحيفة التي تحمل دعوتهم إلى التوحيد، فغسلوها من الخبر، ثم رقعوا بها إست دلوهم، وأبوا أن يجيبوا الرسول ﷺ إلى ما دعاهم إليه.

فأنكرت امرأة عاقلة منهم ما فعلوا بكتاب الرسول ﷺ وهي أم حبيب بنت عامر بن خالد بن عمرو، ابنة أخي سيد القوم حارثة بن عمرو.. أنكرت عليهم واستهجنحت ما صنعوا، فقالت - وقولها يدل على أنها مسلمة - :

أيا ابن سعيد لا تكونن ضحكة وإياك واستمر لهم بمرير
أيا ابن سعيد إنما القوم معشر عصوا منذ قام الدين كلّ أمير
إذا ما أتتهم آية من محمد محوها بماء البئر فهي عصير (١)
ويذكر أصحاب السير أن القرطاء لما فعلوا بكتاب رسول الله ما فعلوا فصاروا دائماً أهل رعدة وعجلة وكلام مختلط، وأهل سفه، وكان الذي جاءهم بالكتاب رجل من عربنة يقال له: عبد الله بن عوسجة. قال الواقدي: رأيت بعضهم عبياً لا يبين الكلام (٢).

- ٤ -

حملة علقمة المدلجي البحرية.. ربيع الآخر سنة تسع هـ : وهي حملة بحرية قوامها ثلثمائة مقاتل، قادها وخاض بها البحر الأحمر (بجر القلزم) علقمة بن مجزّر المدلجي (٣)، وسبب تجريد هذه الحملة أن النبي ﷺ بلغه أن قرصاناً من الحبشة شاهدتهم أهل الشعيبة (وهي ميناء قرب جدة) يجوبون البحر بسفنهم، فجدد الرسول ﷺ ثلثمائة من أصحابه، وأعطى قيادتهم علقمة بن مجزّر ليهاجم بهم القراصنة الأحباش.

(١) هذا البيت فيه إقواء، وهو عيب في الشعر، ولكن هكذا جاء في مغازي الواقدي.

(٢) انظر مغازي الواقدي ج ٢ ص ٧٥٤ و ٧٥٥ و ج ٣ ص ٩٨٢.

(٣) هو علقمة بن مجزّر بن الأعور بن جعدة، من بني كنانة، كان يمزح كثيراً، وكان من أمراء رسول الله ﷺ، استشهد علقمة في حملة بحرية كان قادها عبر البحر الأحمر إلى الحبشة في عهد عمر بن الخطاب (انظر أسد الغابة ج ٤ ص ١٤).

فتوجه علقمة من المدينة بكتيبته حتى وصل ساحل جدة - عند الشعبية - ومن هناك ركب برجاله البحر حتى انتهى إلى جزيرة كان يعسكر فيها القراصنة، فلما رأوا الجيش النبوي يقترب من الجزيرة (لم يذكر المؤرخون أية جزيرة هي) ركبوا سفنهم وهربوا إلى عرض البحر باتجاه الحبشة.

فعاد علقمة بكتيبته إلى ساحل الجزيرة عند الشعبية، دون أن يحدث أي اشتباك بينه وبين القراصنة الأحباش.

وكان جيش علقمة مكوناً من قبائل مختلفة، فلما وصلوا بعض المنازل أثناء عودتهم، استأذنه بعض أفراد الجيش، حيث لم تعد لهم حاجة بعد طرد القراصنة، فأذن لهم وأمر عليهم عبد الله بن حذافة السهمي^(١) - وكان فيه دعاية، يحب المزاح - فلما انصرفوا وكانوا ببعض الطريق، وأوقدوا ناراً يصطلون عليها ويصنعون الطعام، فقال لهم: عزمت عليكم إلا توثبتم في هذه النار، وكان الانضباط العسكري في الإسلام (حسب أوامر الرسول ﷺ) شديداً، فظن الجند أنه أمر عسكري، فاستعدوا للوثوب في النار كما أمرهم قائدهم، فلما رأى قائدهم أنهم واثبون في النار لا محالة، قال: اجلسوا، إنما كنت اضحك معكم، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ. فقال: من أمركم بمعصية فلا تطيعوه^(٢).

(١) هو عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدي بن سهم القرشي السهمي من قدماء الصحابة الأفاضل وأمه بنت حرنان من بني الحارث، هاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية، وهو أخو خنيس بن حذافة زوج حفصة بنت عمر بن الخطاب قبل النبي ﷺ. وعبد الله هذا هو الذي بعثه النبي ﷺ بكتابه إلى كسرى يدعو إلى الإسلام فمزق كتاب رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: مزق الله ملكه، فقتله ابنه شيرويه. وأسر عبد الله بن حذافة وهو يحاصر مع المسلمين قيسارية فجاء به إلى قائد الحامية فقال له الطاغية: تنصرن وإلا ألقيتك في البقرة (والبقرة الطست من نحاس) قال: ما أفعل؟ فدعا الطاغية البقرة النحاس فملئت زيتاً وأغليت، ودعا برجل من أسرى المسلمين، فعرض عليه النصرانية فأبى فألقاه في البقرة التي تغلي بالزيت، فإذا عظامه تلوح، وقال لعبد الله: تنصرن وإلا ألقيتك، قال: ما أفعل فأمر به أن يلقى في البقرة النحاس التي فيها الزيت يغلي، فبكى. فقالوا: قد جزع، قال رُدُّوه. قال لا ترى أنني بكيت جزعاً مما تريد أن تصنع بي، بكيت حيث ليس لي إلا نفس واحدة يفعل بها هذا في الله، كنت أحب أن يكون لي من الأنفس عدد كل شعرة في، ثم تسلط علي فتفعل بي هذا. قال: فأعجب منه وأحب أن يطلقه. فقال: قبل رأسي وأطلقك واطلق معك ثمانين من المسلمين. قال: أما هذا نعم، فقبل رأسه وأطلقه وأطلق معه ثمانين من المسلمين، فلما قدموا على عمر بن الخطاب قام إليه عمر فقبل رأسه، قال: فكان أصحاب النبي ﷺ يمازحون عبد الله فيقولون قبلت رأس علعج. فيقول لهم: أطلق الله بتلك القبلة ثمانين من المسلمين. توفي عبد الله بن حذافة بمصر في خلافة عثمان بن عفان.

سرية علي بن أبي طالب إلى قبيلة طيء.. ربيع الآخر سنة تسع هـ: وهي دورية قتال كلها من الأنصار وقوامها مائة وخمسون مقاتلاً كانوا محمولين على خمسين فرساً ومائة بعير، كان أميرها علي بن أبي طالب، وكانت هذه الدورية تضم سادات الأوس والخزرج.

كان هدف هذه الدورية ديار طيء في أقصى الشمال، حيث تقيم (على وجه التحديد) أسرة آل حاتم الطائي وعميدها عدى بن حاتم الذي كان بمثابة ملك لطيء، كان الرسول بعد انتصاره العظيم في معركة حنين الحاسمة، لا يبلغه وجود صنم أو وثن في أية ناحية من جزيرة العرب إلا وبعث إليه من يحطمه، كي لا يبقى في الجزيرة أي أثر من آثار الجاهلية.

وكان لقبيلة طيء صنم يقال له: الفُلس (بضم أوله وسكون ثانيه)، فبعث الرسول ﷺ علي بن أبي طالب على رأس هذه الحملة كي يتولى تحطيم الصنم (الفلس).

كانت طيء قبيلة يمانية عظيمة ذات أفخاذ متعددة وكانت قد هاجرت من جنوب الجزيرة إلى شمالها في نجد منذ أقدم العصور، حتى صارت تعد في القبائل النجدية. ومن الناحية العسكرية، كانت قبيلة طيء ذات مقدرة قتالية فائقة، ومن حيث العدد فهي قبيلة عظيمة، إذ لا تقل عن غطفان وأسد وهوازن، سواء من ناحية الشجاعة والعدد، أو من ناحية القوة.

كان يمكن أن يلقى الجيش الإسلامي من قبيلة طيء من المصاعب والمتاعب والمقاومة العنيدة المنظمة، مثلما لقي من غطفان في أول عهد الإسلام، ومن هوازن في معركة حنين، ولكن انهيأ مقاومة هذه القبائل القوية العنيدة، ودخول كل عشائرها في الإسلام، ودخول الأغلبية الساحقة من قبائل الجزيرة في هذا الدين، جعل من قبيلة طيء - رغم ماضيها العسكري الشهير وكثرة عددها - قوة غير مرهوبة الجانب لدى المسلمين، فقد اعترى عشائر هذه القبيلة العظيمة التخاذل وانتابها الرعب من المسلمين، فتلاشت - أمام تيار الإسلام - قوتها العسكرية العظيمة التي كانت عليها.

ولا أدل على هذا الضعف والتلاشي والتخاذل من أن النبي ﷺ لما أراد أن يهدم صنم هذه القبيلة المعبود (الفلس) لم يبعث لهذه المهمة سوى قوة خفيفة قوامها مائة وخمسون مقاتلاً، مع العلم أن عشائر طيء تضم عدة آلاف من القادرين على القتال.

كانت المسافة بين المدينة وبين المكان الذي فيه صنم طيىء (الفلس)، حوالي ستمائة ميلاً لذلك كان رجال السرية محمولين على مائة بعير وخمسين فرساً، وقد حققت الدورية أهدافها، فقد تمكن علي بن أبي طالب من تحطيم (الفلس) صنم طيىء، بعد مقاومة أبادها الطائيون، سحقها على ورجال سريته، بعد أن قتل عدداً من المقاومين وأوقع الكثير منهم في الأسر.

وكان ضمن الذين وقعوا في الأسر ابنة لحاتم طيىء اسمها (السفانة) وكانت أخت عدي بن حاتم الذي كان بمثابة الملك على طيىء، وكان قد خلف أباه حاتماً في زعامة طيىء، أما عدي بن حاتم نفسه، فقد تمكن من الهرب على الشام، وكان يدين بالنصرانية، على أن أخته (السفانة) التي أكرمها الرسول ﷺ وحررها من الرق بعد أن علم أنها ابنة حاتم طيىء الذي وصفه الرسول ﷺ بأنه كان يحب مكارم الأخلاق، السفانة هذه ذهبت إلى أخيها عدي بالشام فأقنعتة - وكانت ذات عقل راجح - بأن يدخل في الإسلام، فجاء - تحت تأثير أخته الحصيصة - إلى المدينة وأعلن إسلامه، وكان لإسلامه اثر طيب في نصرة الإسلام فقد أعز الله به هذا الدين، وكانت أبرز مواقفه المشرفة، ثباته وتثبيت قومه طيىء على الإسلام عندما ارتد أكثر العرب عند وفاة النبي ﷺ، كما كانت له مواقف مشرفة رائعة في معارك الجهاد في الشام والعراق، حيث كان عدي من زملاء القائد خالد بن الوليد الذين هم ضمن هيئة أركان حربه سواء كان في الشام أم في العراق.

أما قصة نجاح حملة الدورية الخفيفة التي قادها علي بن أبي طالب إلى ديار طيىء وقصة انهيار المقاومة بين عشائر قبيلة طيىء التي تعد بالآلاف، فلنترك الإمام الواقدي يحدثنا عنها في كتابه الشهير (المغازي).

قال الواقدي عن عبد الله بن أبي بكر بن حزم: بعث رسول الله ﷺ علياً عليه السلام في خمسين ومائة رجل على مائة بعير وخمسين فرساً، وليس في السرية إلا أنصاري، فيها وجوه الأوس والخزرج، فاجتنبوا الخيل واعتقبوا على الإبل حتى أغاروا على أحياء من العرب، ثم قال: وبعث علياً إلى الفلس (صنم طيىء) ليهدمه، فخرج بأصحابه، معه راية سوداء ولواء أبيض، معهم القنا والسلاح الظاهر، وقد دفع رايته إلى سهل بن حنيف، ولواءه إلى جبار بن صخر السلمي، وخرج بدليل من بني أسد، يقال له: حريث،

فسلك بهم على قيد^(١)، فلما وصل بهم إلى موضع قال: بينكم وبين الحي الذي تريدون يوم تام، وإن سرناه بالنهار وطئنا أطرافهم ورعاهم، فأذروا الحي فترقوا، فلم تصيبوا منهم حاجتكم، ولكن نقيم يومنا هذا، في موضعنا حتى نمسي ثم نسري ليلتنا على متون الخيل فنجعلها غارة حتى نصبحهم في عماية الصبح. قالوا: هذا الرأي، فعسكروا وسرحوا الإبل، واصطنعوا (أي صنعوا لهم طعاماً) وبعثوا نفرًا منهم يتقصون ما حولهم، فبعثوا أبا قتادة والحباب بن المنذر وأبا نائلة، فخرجوا على متون خيل لهم يطوفون حول المعسكر، فأصابوا غلامًا أسود فقالوا: ما أنت؟ قال: أطلب بغيتي، فأتوا به عليًا عليه السلام فقال، ما أنت؟ فقال: باغ، قال: فشدوا عليه. فقال: أنا غلام لرجل من طيء من بني نبهان، أمروني بهذا الموضع، وقالوا: إن رأيت خيل محمد فطر إلينا فأخبرنا، وأنا لا أدرك أثرًا، فلما رأيتم أردت الذهاب إليهم ثم قلت: لا أعجل حتى آتي أصحابي بخبر بين من عددكم وعدد خيلكم وركابكم، ولا أخشى ما أصابني، فلكأنني كنت مقيدًا حتى أخذتني طلائعكم.

قال علي (عليه السلام): أصدقنا ما وراءك، قال: أوائل الحي على مسيرة ليلة طرادة، تصبحهم الخيل ومغارها حين غدوا، قال علي (عليه السلام) لأصحابه: ما ترون؟ قال جبار بن صخر: نرى أن ننتقل على متون الخيل ليلتنا حتى نصبح القوم وهم غارون، فنغير عليهم ونخرج بالعبد الأسود ليلاً ونخلف حريثًا مع العسكر حتى يلحقوا إن شاء الله.

فقال علي: هذا الرأي، فخرجوا بالعبد الأسود، والخيل تعادي، وهو ردف بعضهم عقبة، ثم ينزل فيردف آخر عقبة، وهو مكتوف، فلما انهار الليل، كذب العبد وقال: قد أخطأت الطريق، وتركتها ورائي، قال علي: فارجع إلى حيث أخطأت، فرجع ميلاً أو أكثر، ثم قال: أنا على خطأ. فقال علي: إنا منك على خدعة، ما تريد إلا أن تثنيننا عن

(١) قال في مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع: فيد (بفتح أوله وسكون ثانيه): بليدة في نصف طريق مكة من الكوفة في وسطها حصن عليه باب حديد، وعليها سور دائر، كان الناس يودعون فيها فواصل أزوادهم إلى حين رجوعهم وما يثقل من أمتعتهم، وكانوا يجمعون العلف طول سنتهم لبيعوه على الاج إذا وصلوا، وهي أجا أحد جبلي طيء.

الحي، قدّموه، لتصدقن أو لنضربن عنقك، قال: فقدّم وسل السيف على رأسه، فلما رأى الشر قال: أرايت إن صدقتكم أينفعني قالوا: نعم، قال: فإني صنعت ما رأيتم، إنه أدركني ما يدرك الناس من الحياء فقلت: أقبلت بالقوم أدلهم على الحي من غير محنة ولا حق فآمنهم، فلما رأيت منكم ما رأيت وخفت أن تقتلوني كان لي عذر فأنا أحلكم على الطريق. قالوا: أصدقنا. قال: الحي منكم قريب، فخرج معهم حتى انتهى إلى أدنى الحي، فسمعوا نباح الكلاب وحركة النعم في المراح والشاء، فقال هذه الأصرام وهي على فرسخ، فينظر بعضهم إلى بعض، فقالوا: فأين آل حاتم؟ قال: هم متوسطو الأصرام (أي البيوت). قال القوم لبعضهم البعض: إن أفزعنا الحي تصايحوا وأفزعوا بعضهم بعضاً، فتغيب عنا أحزابهم في سواد الليل، ولكن نمهل القوم حتى يطلع الفجر معترضاً فقد قرب طلوعه فغير، فإن أندر بعضهم بعضاً لم يخف علينا أين يأخذون، وليس عند القوم خيل يهربون عليها، ونحن على متون الخيل.

قالوا: الرأي ما أشرت به، قال: فلما اعترضوا الفجر أغاروا عليهم فقتلوا من قتلوا وأسروا من أسروا، واستاقوا الذرية والنساء، واستاقوا الغنائم المختلفة الأنواع، ولم يخف عليهم أحد تغيب فملأوا أيديهم، وبعد السيطرة على منازل الأعداء واحتلالها والقضاء على كل مقاومة أبدوها، سار على إلى صنمهم الفلّس، فهدمه وخرّبه وبذلك أنهى آخر مظهر من مظاهر الوثنية في الشمال الشرقي لجزيرة العرب.

وهكذا كانت عملية تمسيط جيوب المقاومة الوثنية في جزيرة العرب التي تقوم بها الوحدات العسكرية النبوية تسير سيراً ناجحاً ودونما أي عائق، لقد كانت قبيلة طيء (بحق) أقوى جيوب المقاومة الوثنية في جزيرة العرب، وكان المتبادر إلى الذهن أن هذه القبيلة - لما هي عليه من كثرة في العدد وقدرة قتالية لا تنكر - ستكون مقاومتها للوحدة الخفيفة التي قادها علي بن أبي طالب شديدة.

ولكن الذي حدث هو العكس حيث انهارات هذه القبيلة عند الصدمة الأولى، ويظهر أن الرعب الكامل قد سيطر على نفوسهم من المسلمين، فحطم فيها القدرة القتالية الممتازة التي اشتهروا بها عبر العصور قبل الإسلام، حيث كانوا يأتون في مقدمة رجالات نجد عندما يأتي ذكر الفروسية، فقد كانت طيء مشهورة باقتناء الخيل.

ولا شك أن انهيار معنويات طيء حتى الحضيض راجع إلى نجاح القيادة الإسلامية

في تحطيم أقوى العناصر العسكرية المعادية للإسلام بمن فيها قبائل غطفان وعشائر هوازن وبطون قريش بالإضافة إلى تصفية العنصر اليهودي الدخيل الذي يعتبر (وخاصة في خيبر) من أخطر العناصر القتالية شرقي المدينة على المسلمين.

إذن، فعناصر طيء (وهم أحلاس الخيل ونسور الحرب) لم تعد آلافهم المؤلفة تغني شيئاً، فقد استطاعت دورية مسلحة خفيفة قوامها مائة وخمسون من المسلمين أن تتغلب عليهم وتجعلهم يطلبون النجاة لأنفسهم، رغم أن عندهم من سلاح الفرسان ما لا يقل عن ألفي فارس، ولكنه الرعب من المسلمين ملأ قلوبهم، والرعب أخطر سلاح يتعرض له من يصاب به.. والرعب الذي انهزمت طيء بفعله، هو مصداق الحديث النبوي الشريف الذي جاء فيه قول النبي ﷺ: ونصرت بالرعب. وإلا فإن من يعرف طيئاً وملكها الكبير وفرسانها المغاوير لا يكاد يصدق أن الآلاف المؤلفة منهم قد انهزمت أمام مائة وخمسين من المسلمين هاجموا طيء على بعد ستمائة ميل من المدينة وليس معهم سوى خمسين فرساً، بينما تملك طيء في شعاب ووديان أجا وسلمى ما لا يقل عن ألفي فرس. ولكنه الرعب قد ملأ قلوبها حتى أصبحت هواء. وحتى سيدها وملكها وفارسها المعلم عدى بن حاتم الطائي للرعب الذي أصابه هرب إلى الشام عند اقتراب المسلمين من دياره دون أن يشهر سيفاً أو يشرع رماً في وجوههم. حتى أنه عند هربه إلى الشام، لم يتمكن من استصحابه شقيقته السفانة التي وقعت ضمن السبايا اللواتي وقعن في أيدي جند دورية علي بن أبي طالب.

كيف هرب عدى بن حاتم إلى الشام: ولترك ملك طيء عدى بن حاتم نفسه يحدثنا عن الحالة النفسية التي كانت عليها عشائر طيء وعلى رأسها عدى بن حاتم الذي انتابه الرعب، حيث قرر الهرب إلى الشام، بمجرد أن علم باقتراب أية قوة للمسلمين من مواطن طيء مهما كان عدد هذه القوة، وذلك بعد أن علم أن السيطرة لقوات الإسلام المسلحة في الشرق والغرب والجنوب والوسط من الجزيرة كاملة، وأنه لم يبق على عداء للإسلام سوى قبائل طيء وبعض عشائر قضاة بدومة الجندل والجميع متجاورون تقع منازلهم في أقصى شمال الجزيرة العربية بالقرب من الحدود الشامية والعراقية.

فقد ذكر ابن هشام في سيرته عن ابن إسحاق، أن عدى بن حاتم الطائي قال: ما من رجل من العرب كان أشد كراهية لرسول الله ﷺ حين سمع به مني.

أما أنا فكنت امرأة شريفاً، وكنت نصرانياً، وكنت أسير في قومي بالرباع (أي أنه كملك يأخذ الربع من الغنائم التي تغنمها طيء في الجاهلية) فكنت في نفسي على دين (وهو النصرانية رغم أن قومه وثنيون) وكنت ملكاً في قومي لما كان يصنع بي، فلما سمعت برسول الله ﷺ كرهته. فقلت لغلام كان لي عربي - وكان راعياً لإبلي - : لا أبا لك أعدد لي من إبلي أجماً ذلاً سماً فاحتبسها قريباً مني، فإذا سمعت بجيش محمد قد وطئ هذه البلاد فأذني (أي أخبرني) ففعل.

ثم إنه أتاني ذات غداة فقال: يا عدي ما كنت صانعاً إذا غشيتك خيل محمد فاصنعه الآن، فإني قد رأيت رايات فسألت عنها فقالوا: هذه جيوش محمد (مع العلم أنه لم تكن هناك جيوش وإنما هي دورية قتال خفيفة ولكنه الرعب العام) قال عدى: فقلت: فقرب إلى أجمالي، فقربها فاحتملت بأهلي وولدي، ثم قلت: ألحق بأهل ديني من النصارى بالشام، فسلكت الجوشية^(١) وخلفت بنتاً لحاتم في الحاضر (قلت هي السفانة المشهورة برجاحة العقل وبعد النظر والتي أسرت وأكرمها الرسول ﷺ وأعتقها من الأسر).

قال عدى: فلما قدمت الشام أقمت بها وتحالفني خيل لرسول الله ﷺ فتصيب ابنة حاتم (السفانة) فيمن أصابت، فقدم بها على رسول الله ﷺ في سبايا طيء^(٢) وقد بلغ رسول الله ﷺ هربى إلى الشام، قال: فجعلت ابنة حاتم في حظيرة بباب المسجد، كانت السبايا يوضعن فيها، فمرّ بها رسول الله ﷺ فقامت إليه (وكانت امرأة جزلة أي شجاعة وجريئة) فقالت: يا رسول الله هلك الوالد وغاب الوافد، فامنن عليّ من الله عليك. قال: فمن وافدك؟ قالت: عدى بن حاتم. قال: الفار من الله ورسوله؟ قالت: نعم.

(١) قال ياقوت: الجوشية، جبل للضباب قرب ضرية من أرض نجد.

(٢) انظر موقف الإسلام من السبايا والرق الحربي في كتابنا (غزوة بني قريظة) حيث أوضحنا فيه أن الرق في الإسلام كان عملية حربية مقابلة لا بد لجند الإسلام من القيام بها لأن الأعداء يسترقون نساء وصبيان المسلمين إذا وقعوا في أيديهم، ومع ذلك فحث الإسلام على العناية بالأسير وإطلاق سراحه وجعل ذلك من أبر الأعمال والأسرى والسبايا الذين حث الإسلام على العناية بهم وتحريرهم، في الأصل من غير المسلمين.

قالت: ثم مضى رسول الله ﷺ وتركني، حتى إذا كان من الغد مرّ بي فقلت له مثل ذلك، وقال لي: ما قال بالأمس. قالت: حتى إذا كان بعد الغد مرّ بي وقد يئست منه فأشار إلى رجل من خلفه أن قومي فكلّميه، قالت: فقمتم إليه فقلت: يا رسول الله هلك الوالد وغاب الوافد فامنن عليّ من الله عليك. فقال ﷺ: قد فعلت فلا تعجلي بخروج حتى تجدي من قومك من يكون لك ثقة حتى يبلغك إلى بلادك، ثم آذني (أي أخبرني). قالت السفانة: فسألت عن الرجل الذي أشار إلى أن أكلمه فقيل: علي بن أبي طالب رضوان الله عليه، وأقمت حتى قدم ركب من بلى أو قضاة. قالت: وإنما أريد أن آتي أخي بالشام. قالت: فجئت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله قد قدم رهط من قومي لي فيهم ثقة وبلاغ. قالت: فكساني رسول الله ﷺ وحلني (أي أعطاني بغيراً) وأعطاني نفقة، فخرجت معهم حتى قدمت الشام.

قال عدى بن حاتم: فو الله إني لقاعد في أهلي إذ نظرت إلى ظعينة (الظعينة المرأة التي في سفر) تصوّب إليّ تؤمنا. قال: فقلت: ابنة حاتم. قال: فإذا هي هي، فلما وقفت عليّ انسحلت تقول: القاطع الظالم احتملت بأهلك وولدك وتركت بقية والدك عورتك؟. قال: قلت: أي أخية لا تقولي إلا خيراً، فو الله ما لي من عذر ولقد صنعت ما ذكرت. قال: ثم نزلت وأقامت عندي. فقلت لها - وكانت امرأة حازمة - : ماذا ترين في أمر هذا الرجل (يعني رسول الله ﷺ).

قالت أي والله أرى أن تلحق به سريعاً، فإن يكن الرجل نبياً فللسابق إليه فضله، وإن يكن ملكاً فلن تدل في عز اليمن وأنت أنت. قال: قلت والله إن هذا هو الرأي. قال عدى فخرجت حتى أقدم على رسول الله ﷺ المدينة، فدخلت عليه وهو في مسجده فسلمت عليه فقال: من الرجل؟ فقلت عدي بن حاتم، فقام رسول الله ﷺ فانطلق بي إلى بيته، فو الله إنه لعامد بي إليه إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة فاستوقفته، فوقف لها طويلاً تكلمه في حاجة قال: قلت في نفسي: والله ما هذا بملك. قال: ثم مضى بي رسول الله ﷺ حتى إذا دخل بي بيته تناول وسادة من أدم محشوة ليفاً ففذفها إليّ وقال: اجلس على هذه. قال: قلت: بل أنت تجلس عليها. فقال: بل أنت، فجلست عليها وجلس رسول الله ﷺ على الأرض.

قال عدي: قلت في نفسي: ما هذا بأمر ملك، ثم قال: إيه يا عدي بن حاتم، ألم تك

ركوسياً؟ (الركوسية دين بين دين الصابئة والنصارى) قال: قلت: بلى، قال: أو لم تكن تسير في قومك بالمرباع؟ قال: قلت بلى. قال: لم يكن يحل لك في دينك. قال: قلت: أجل والله. قال: وعرفت أنه نبي مرسل يعلم ما يُجهل. ثم قال: لعلك يا عدي إنما يمنعك من دخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم، فو الله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم، فو الله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه أنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم، وإيم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم. قال عدي: فأسلمت.

وهكذا قضت دورية علي بن أبي طالب على آخر مظهر من مظاهر الوثنية في الشمال الشرقي لجزيرة العرب، وقضى على العسكرية الوثنية الطائفة، وهكذا أسلم عدي بن حاتم الطائي فصار فيما بعد من خيرة أصحاب محمد ﷺ فأعز الله به الإسلام في مواقف عصيبة، ولعل أروع موقف وقفه عدي بن حاتم، حين كان أكبر عون للقائد خالد بن الوليد في إخماد فتن الأعراب المرتدين في مناطق طيء وأسد وغطفان، حيث ثبت على إسلامه، ثم أقنع أكثر من ثلاثة آلاف فارس من قومه طيء بالعودة إلى الإسلام وكانوا قد خرجوا منه مرتدين مساندين لطليحة بن خويلد الأسدي، فحوّل عدي بن حاتم بحكمته ونفوذه هذه الآلاف من الفرسان إلى صفوف قوات الإسلام التي كان يقودها خالد بن الوليد، فكان لهذه الآلاف في طيء أكبر الأثر في إنزال الهزيمة بطليحة بن خويلد الأسدي ونائبه عيينة بن حصن الفزاري في معركة بزاخة الطاحنة الشهيرة.

إسلام كعب بن زهير الشاعر: سنة تسع هـ: وهكذا أخذت جيوب المقاومة الوثنية المبعثرة في أقاليم الجزيرة العربية تتهاوى الواحد بعد الآخر، وقد هوى وتحطم ما يمكن اعتباره من الناحية العسكرية أقوى جيب من هذه الجيوب، وهم طيء، فقبيلة طيء التي بالآلاف المؤلفة من الفرسان، لم تستطع أن تقاوم دورية قتال صغيرة للمسلمين مكونة من مائة وخمسين ليس معهم سوى خمسين فرساً.

لقد أثبت سير الأحداث في جزيرة العرب أنه - منذ أوائل السنة التاسعة للهجرة - قد أصبحت الكلمة النافذة والسلطان المطلق في طول الجزيرة وعرضها للإسلام، بالرغم

من توقف بعض القبائل عن إعلان دخولهم في الإسلام، فهذا البعض من القبائل، هم إما ضعفاء لا يقوون على مجرد التفكير في محاربة المسلمين، وإما أقوياء بعض الشيء ولكنهم بعيدون جدًا عن حاضرة الإسلام المدينة، مثل بعض قبائل قضاة وبلوى وعذرة وكتب وبلقين الذين يسكنون أقصى الشمال على حدود الشام، وهؤلاء جرد عليهم الرسول ﷺ - وهو بتبوك غازيًا - حملات عسكرية خضد بها شوكتهم وطهر بها جميع جيوب مقاومتهم المتبقية هناك، أو مثل بعض القبائل القحطانية في الجنوب، مثل بلحارث في نجران وهمدان وحير في اليمن وكندة في حضرموت، وهؤلاء جرد الرسول ﷺ على بعضهم حملات عسكرية انتهت بدخولهم في الإسلام والبعض الآخر جاء إلى المدينة طائعًا مختارًا وأعلن إسلامه ضمن الوفود التي وفدت على المدينة للدخول في الإسلام عقب عودة الرسول ﷺ من تبوك ظافرًا منتصرًا.

ومما يدل على أن كلمة الإسلام أصبحت - بعد فتح مكة وانتصار المسلمين في حنين - هي النافذة في جزيرة العرب، وأن من بقي على الوثنية من شراذم هنا وهناك، إما صاروا في ضيق لا ينجيهم إلا دخولهم في دين الحق.

قصة كعب بن زهير^(١) الشاعر المشهور والذي كان من ألد أعداء رسول الله ﷺ ومن أهم السنة الإعلام الجارحة التي كانت تؤذي رسول الله ﷺ بالشعر (والشعر له تأثيره بين العرب) وتدعو إلى التآليب عليه ومقاومة دعوته بكل الوسائل.

(١) هو كعب بن زهير بن أبي سلمى المزني الشاعر ابن الشاعر. بداية قصته أنه كان وأخوه بجير أتيا بغنم المدينة. فقال له أخوه بجير: أثبت أنت في غنمنا في هذا المكان حتى ألقى هذا الرجل (يعني رسول الله ﷺ) فأسمع ما يقول. فثبت كعب عند الغنم، وخرج بجير فجاء رسول الله ﷺ فعرض عليه الإسلام فأسلم، فبلغ ذلك كعبًا فغضب وقال شعرًا يندد ببجير وإسلامه وهذا الشعر مثبت في قصة كعب في هذا الكتاب.. ومما يستجد من شعر كعب بن زهير قوله:

لو كنت أعجب من شيء لا عجبني	سعى الفقى وهو مخبوء له القدر
يسمى الفقى لأمرور ليس يدر كها	والنفس واحدة والهيم منتشر
والمرء ما عاش ممدود له أمل	لا تنتهي العين حتى ينتهي الأثر

ومن جيد شعره أيضًا:

مقالة السوء إلى أهلها	أسرع من منحدر سائل
ومن دعا الناس إلى ذمة	ذموره بالحق وبالباطل

فعندما انتصر المسلمون ذلك الانتصار العظيم بفتح مكة، وتم لهم في حين تحطيم العسكرية الهوازنية، ولم تبقى قوة حربية في جزيرة العرب يمكنها الوقوف على قدميها في وجه قوات محمد ﷺ خاف كعب بن زهير على نفسه خوفاً شديداً، حتى ضاقت عليه الأرض بما رحبت، ولم ينجه إلا أن يطير بنفسه إلى المدينة، ويقف فجأة أمام رسول الله ﷺ معلناً إسلامه طالباً الصفح والعفو، وذلك بتوجيه من أخيه بجير، وقد قبل الرسول ﷺ إسلامه وعفى عنه.

فقد روى ابن هشام عن ابن إسحاق في سيرته، أن بجير بن زهير أخا كعب (وكان قد أسلم قديماً) كتب إلى أخيه كعب قائلاً له: إن من بقى من شعراء قريش ابن الزبيري، وهبيرة بن وهب، قد هربوا في كل وجه، فإن كانت لك حاجة في نفسك فطر إلى رسول الله ﷺ فإنه لا يقتل أحداً جاءه تائباً، وكان كعب قد لام أخاه بجيراً لما أسلم في شعر بعث به إليه وهجا فيه الرسول ﷺ، وهو:

ألا أبلغا عني بجيراً رسالة	فهل لك فيما قلت ويحك هل لك
فبين لنا إن كنت لست بفاعل	على أي شيء غير ذلك ذلكا
على خلق لم تلق أمّا ولا أبّا	عليه وما تلقى عليه أبالكا
فإن أنت لم تفعل فلست بأسف	ولا قائل إمّا عثرت لما لكا
سقاك بها المأمون كأساً روية	فأهلها المأمون منها وعلكا

قال ابن إسحاق: وبعث كعب بالآيات إلى أخيه بجير، فلما أتت بجيراً كره أن يكتمها رسول الله ﷺ، فأنشده إياها، فقال رسول الله ﷺ لما سمع (سقاك بها المأمون) صدق وإنه لكذوب، أنا المأمون. ولما سمع: (على أي خلق لم تلق أمّا ولا أبّا عليه) قال: أجل لم يلق عليه أباه ولا أمه.

وقد أجاب بجير أخاه كعباً فقال:

تلوم عليها باطلاً وهي أحزم
فتنجو إذا كان النجاء وتسلم
من الناس إلا طاهر القلب مسلم
ودين أبي سلمى عليّ محرم

من مبلغ كعباً فهل لك في التي
إلى الله (لا العزى ولا الالات) وحده
لدى يوم لا ينجو وليس بمفلت
فدين زهير وهو لا شيء دينه

قال ابن إسحاق: فلما بلغ كعباً الكتاب ضاقت به الأرض، وأشفق على نفسه وأرجف به من كان في حضره من عدوه، ثم خرج حتى قدم المدينة، فنزل على رجل كانت بينه وبينه معرفة من جهينة (والشعراء لهم أصدقاء كثيرون) فغدا به إلى رسول الله ﷺ حين صلى الصبح، فصلّى مع رسول الله ﷺ، ثم أشار له إلى رسول الله ﷺ، فقال: هذا رسول الله ﷺ فقم إليه فاستأمنه. فذكر لي أنه قام إلى رسول الله ﷺ، حتى جلس إليه، فوضع يده في يده، وكان رسول الله ﷺ لا يعرفه، فقال: يا رسول الله إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمن منك تائباً مسلماً، فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به؟ قال رسول الله ﷺ: نعم، قال: أنا يا رسول الله كعب بن زهير.

قال ابن إسحاق فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة: أنه وثب عليه رجل من الأنصار، فقال: يا رسول الله دعني أضرب بعنقه، وكان كعب كما قلنا من أشد ألسنة الإعلام الوثنية تنفيراً عن رسول الله ﷺ وعن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: دعه عنك، فإنه قد جاء تائباً نازعاً عما كان عليه. قال: فغضب كعب على هذا الحي من الأنصار لما صنع به صاحبهم، وذلك أنه لم يتكلم فيه رجل من المهاجرين إلا بخير، فقال في قصيدته التي قال حين قدم على رسول الله ﷺ:

وما إخال لدينا منك تنويل
 إلا العتاق النجيات المراسيل
 لها على الأيمن أرقال وتبغيل
 عرضتها طامس الأعلام مجهول
 إذا توقدت الحزان والميل
 في خلقها عن بنات الفحل تفصيل
 في دقها سعة قدامها ميل
 طلح بضاحية المتنين مهزول
 وعمها خالها قوداء شمليل
 منه لبان وأقرباب زهاليل
 مرفقها عن بنات الزور مفقول
 من خطمها ومن اللحين برطيل
 في غارز لم تحونسه الأحاليل
 عتق مبين وفي الخدين تسهيل
 ذوابل مسهن الأرض تحليل
 لم يقهن رءوس الأكهم تنعيل
 وقد تلفع بالقور العساقيل
 أن ضاحيه بالشمس مملول
 ورق الجنادب يركضن الحصا قيلوا
 قامت فجاوبها نكد مئاكيل
 لما نعى بكرها الناعون معقول
 مشقق عن تراقبها رعابيل
 إنك يابن أبي سلمى لقتول
 لا أهينك إني عنك مشغول
 فكل ما قدر الرحمن مفعول

أرجو وآمل أن تدنو مودتها
 أمست سعاد بأرض لا يبلغها
 ولن يبلغها إلا عذافرة
 من كل نضاخة الذفري إذا عرقت
 ترمي النجاد بعيني مفرد لهق
 ضخم مقلدها فعم مقيدها
 غلباء وجناء علجوم مذكرة
 وجلدها من اطوم يؤيسه
 حرف أبوها أخوها من مهجنة
 يمشي القراد عليها ثم ينزلقه
 عيرانة قذفت بالنعوض عن عرض
 كأنما فات عينها ومذبحها
 تمر مثل عسيب النحل ذا خصل
 قنواء في حرتيها للبصير بها
 نخدى على يسرات وهي لاحقة
 سمر العجايات يتركن الحصى زبما
 كأن أوبى ذراعها وقد عرقت
 يوما يظل به الحرباء مصطخدا
 وقال للقوم حاديهم وقد جعلت
 شد النهار ذراعاً عيطل نصف
 نواحة رخوة الضبعين ليس لها
 تفرى اللبان بكفها ومدرعها
 تعسى القوات جابها وقولهمو
 وقال كل صديق كنت آلمه
 فقلت خلوا سبيلي لا أبا لكمو

إن الرسول لنور يستضاء به
في عصبة من قريش قال قائلهم
زالوا فما زال أنكاس ولا كئُفٌ
شمّ العرانيين أبطال لبوسهمو
بيض سوابغ قد شكت لها حلق
ليسوا مفاريح إن نالت رماحهمو
يمشون مشى الجمال الزُّهر يعصمهم

وكان كعب في قصيدته هذه قد غمز الأنصار لموقف صاحبهم الذي طلب من الرسول قتل كعب وغمزة كعب للأنصار هي قوله: (إذا عرد السود التنايل)، وقد غضبت الأنصار على كعب، فقال قصيدة يمدحهم فرضوا، وهذه القصيدة قوله:

في مقنب من صالحى الأنصار
إن الخيار همو بنو الأحيار
كسوالف الهندي غير قصار
كالجمر غير كليلة الإبصار
للموت يوم تعانق وكرار
بالمشرفى وبالقنا الخطار
بدماء من علقوا من الكفار
غلب الرقاب من الأسود ضواري
أصبحت عند معاقل الأعفار
دانست لوقعتها جميع نزار
فيهم لصدقي الذين أمارى
للطارقين السنازلين مقارى
أعيت محافرها على المنقار

مهتد من سيوف الله مسلول
ببطن مكة لما اسلموا زولوا
عند اللقاء ولا ميل معازيل
من نسج داود في الهيجا سرايل
كانها حلق القفعاء مجدول
قوما وليسوا مجازيع إذا نيلوا
ضرب إذا عرد السود التنايل

من سره كرم الحياة فلا يزل
ورثوا المكارم كابرًا عن كابر
المكهرين السمهري بأذرع
والسناظرين بأعين محمورة
والسباعين نفوسهم لنبهم
والقائدين الناس عن أديانهم
يتطهرون يرونه نسًا لهم
دربوا كما دربت ببطن خفية
وإذا حللت ليمنعوك إليهمو
ضربوا عليا يوم بدر ضربة
لو يعلم الأقوام علمى كله
قوم إذا خوت النجوم فإنهم
في الغرّ من غسان من جرثومة

الفصل الثاني

ما هي تبوك؟

أسباب غزوة تبوك.

النبي يحشد أعظم جيش في تاريخ حياته.

التبرع السخي من أغنياء الصحابة لتجهيز الجيش.

موقف المنافقين التخريبي ضد النبي وجيشه.

فشل المنافقين في مساعيهم الخبيثة.

تبوك اسم مشهور في القديم والحديث، وقد وصفها ياقوت في معجم البلدان فقال:

تبوك، بالفتح ثم الضم وواو ساكنة، وكاف، موضع بين وادي القرى والشام، وقيل بركة لأبناء سعد من بني عذرة.

وقال أبو زيد: تبوك بين الحجر وأول الشام على أربع مراحل من الحجر، نحو نصف

طريق الشام، وهو حصن به عين ونخل وحائط ينسب إلى النبي ﷺ.

وجاء في بعض المعاجم الإسلامية، أن أصحاب الأيكة الذين جاء ذكرهم في القرآن

الذين بعث الله إليهم نبي الله شعيب عليه السلام كانوا في تبوك، وأن شعيباً لم يكن منهم،

وإنما كان من مدين.. ومدين تقع ديارهم على ساحل بحر القلزم (البحر الأحمر)، وعلى

ست مراحل من تبوك.

قال ياقوت: وتبوك تقع بين جبل حُسمى وجبل شرورى.. حسمى غربيها وشرورى

شرقيها. وبين تبوك والمدينة اثنتا عشرة مرحلة، وكان ابن عريض اليهودي قد طوى بئر

تبوك لأنها تنظم في كل وقت، وكان عمر ابن الخطاب أمره بذلك.

تاريخ قبائل الشمال: يعتبر الركن الشمالي الغربي من جزيرة العرب (بما فيه تبوك)

موطنًا لقبائل عديدة ذات تاريخ مشهور، وكانت هذه القبائل - منذ عصور قديمة - ذات

مقدرة قتالية ممتازة، وقد كان الملك في بعضها، فكان منها ملوك حكموا الأطراف

الشمالية لجزيرة العرب، والأطراف الجنوبية للشام.

وكل هذه القبائل يرجع أصلها إلى حضرموت، وترجع هذه القبائل القحطانية التي استوطنت شمال الجزيرة أو جنوب الشام في فترات مختلفة - إلى أصلين أثنين - وهما :

١- قضاة .. وقضاة نزحت من الشحر بحضرموت وأسست ملكاً لها بأطراف الشام، ويتفرع من قضاة عدة قبائل منها بلى وعذرة وبهراء وغيرها.

٢- بنو كلب. وهؤلاء من كندة، وكندة نزحت من شمال حضرموت، وأسست لها ملكاً مشهوراً في دومة الجندل التي تعرف اليوم بالجوف، وكان هؤلاء الحضارمة القضاعيون والكنديون يدينون بالوثنية، إلا أنهم - بتأثير من جيرانهم البيزنطيين الذين كانوا يحكمون الشام - تحولوا إلى النصرانية، فأكثرية قبائل الشمال القحطانيين عند ظهور الإسلام كانوا على النصرانية.

وكانت قبائل قضاة تستوطن منطقة تبوك وما حولها حتى شواطئ البحر الأحمر غرباً، أما قبائل كلب من كندة فتسكن إلى الشرق وشمال الشرق من تبوك حيث كان ملكهم بدومة الجندل^(١).

وكانت هذه القبائل (قضاة وكندة) على عداء شديد للمسلمين، وكانت أحياناً - لما تشعر به من قوة وكثرة جند - تفكر في غزو المسلمين في المدينة، وذلك (على ما يبدو) بتحريض من أصدقائهم الرومان، الذين يتهيون حروب الصحراء، ثم بدافع من هؤلاء القحطانيين من الخوف من أن يمتد نفوذ الإسلام إلى مناطقهم، التي لهم فيها ملك وسلطان مثل ملوك (دومة الجندل) أن اليد المطلقة في الحكم تحت رعاية الرومان مثل قبائل قضاة في الركن الشمالي الغربي من الجزيرة ومشارف الشام.

غير أن المسلمين كانوا متيقظين لهذه الناحية، فما يبلغهم أي حشد من هؤلاء الحضارمة النصرانية (وخاصة قضاة) إلا وسارعوا إلى غزوهم وتشتيت شملهم قبل أن يشرعوا في تنفيذ ما يفكرون فيه من غزو للمدينة.

وقد دلت الأحداث على أن هناك مصلحة مشتركة بين القبائل الشمال المنتصرة القحطانية وبين الإمبراطورية البيزنطية، جعلت الفريقين يجعلون من قواتهم المسلحة قوة واحدة تقف على أهبة الاستعداد لمحاربة المسلمين، كلما سنحت الفرصة، وهذه المصلحة

(١) انظر كتابنا (العرب في الشام قبل الإسلام) فيه أوسع التفاصيل عن تاريخ هذه القبائل وما كان لها من ملك وسلطان وقوة في الشمال وفي أطراف الشام.

المشتركة هي حرص الحضارمة من قضاة و كلب على الاحتفاظ بسطانهم الشبه المطلق في مناطق الشمال، وحرص الرومان على حماية حدودهم من أي غزو قد تتعرض له الشام من قبل المسلمين.

وهذه حقيقة أثبتتها التاريخ، فالناظر في كتب السير والمغازي وكتب التاريخ الأخرى يجد أن قبائل الشمال المنتصرة هؤلاء (وخاصة قضاة) كانوا أشبه بحرس يحرسون حدود الشام الجنوبية لحساب الإمبراطورية البيزنطية، كما يجاولون الصمود والثبات في بواديهم بالشمال من الجزيرة في وجه أي تحرك تقوم به القوات الإسلامية.

فكانت (دائماً) فصائل الخيالة والهجانة من هذه القبائل تقوم بأعمال الدورية في شمال الجزيرة، وكثيراً ما تصطدم هذه الدوريات بطلائع القوات الإسلامية المسلحة، وحتى العزل من الدعاة المسلمين تفتك بهم هذه القبائل المتوحشة، فقد رأينا (كما هو مفصل في كتابنا السابع غزوة مؤتة) كيف أعدم هؤلاء العرب المنتصرة في ذات الطلح بالشمال خمسة عشر مدنياً من أصحاب النبي ﷺ كانوا يدعون إلى الإسلام بالحسنى.

كذلك كانت قبائل الشمال (وخاصة منطقة تبوك وكل الركن الشمالي الغربي) أشبه بمرتزة في جيش الإمبراطورية البيزنطية، رغم ما هم فيه من حرية واستقلال، إلا أنهم (رغم كونهم مستقلين في بواديهم داخل الجزيرة العربية) كانوا دائماً رأس الحربة في أية قوات رومانية مسلحة تعمل ضد المسلمين، وكان هؤلاء العرب (وخاصة قضاة) قوة مرهوبة ذات عدد غامر، تستفيد منهم الإمبراطورية البيزنطية، ولقد رأينا كما هو مفصل في كتابنا السابع (غزوة مؤتة) كيف كانت هذه القبائل من الحضارمة، يشكلون نصف الجيش الروماني الذي قاده أخو هرقل واصطدم في مؤتة) بمنطقة الكرك بالجيش الإسلامي الذي كان أول جيش يجتاز حدود الجزيرة إلى الشام في تاريخ الإسلام ورأينا كيف قتل في معركة مؤتة إلى جانب الرومان قائد هؤلاء الحضارمة المنتصرة واسمه مالك بن رافلة.

بل لقد كان القضاعيون (هؤلاء الذين كان منطلق هجرتهم الشحر بضمير موت). تنتسب إليهم القبيلة العظيمة ذات التاريخ الحافل في الجاهلية والإسلام (قبيلة جهينة) التي تمتد ديارها من ساحل خليج العقبة على شريط البحر الأحمر حتى ينبع، إلا أن جهينة هذه لم تكن على صلة بالرومان أو على ولاء لهم في أية فترة من فترات تاريخها، ولهذا كانت جهينة من أسرع القبائل استجابة لدعوة الإسلام، وكانت منهم كتيبة مؤلفة من حوالي أربعمئة مقاتل اشتركت تحت قيادة الرسول ﷺ في فتح مكة.

وذلك عكس إخوانهم من قبائل قضاة في الشمال مثل بهراء وعذرة وعاملة وسليح، الذين ظلوا بمنطقة تبوك وما جاورها من مناطق حدود الشام على عداء شديد للإسلام والمسلمين، يشاطرهم هذا العداء الشديد المستحکم أبناء عمومتهم الحضارمة الآخرون من كندة الذين منهم ملوك دومة الجندل ذات القلاع المشهورة، والتي - لعناد أهلها في الكفر ومعاداة المسلمين - حاربهم خالد بن الوليد مرتين، مرة عندما أرسله الرسول ﷺ في أربعمئة فارس من تبوك ليشن الغارة على هؤلاء الكنديين الحضارمة من كلب، ومرة في خلافة الصديق، عندما جاءهم خالد من الحيرة في العراق واقتحم عليهم قلاعهم في دومة الجندل بمساندة عياض بن غنم الفهري الذي عجز بمفرده عن إخضاع أولئك الكنديين لأنهم كانوا ذوي عدد مسلح غفير وكانوا يعتصمون بمبينة بالحجارة.

ورغم الحملات التي كان المسلمون يشنونها ضد قبائل الشمال النصرانية هذه من كندة وقضاة، فقد ظلوا قوة ذات خطر على الإسلام والمسلمين، لأنهم كانوا إذا ما ضايقتهم أية حملة عسكرية إسلامية ورأوا أن ليس من مصلحتهم الاشتباك معها، يلجئون إلى جنوب الشام حيث يتلقاهم حلفاؤهم وشركاؤهم في النصرانية، الرومان بالترحاب وكانوا إذا ما عادت القوات الإسلامية إلى المدينة عاد هؤلاء القضاة والنصارى إلى بواديهم وديارهم في مناطق الحدود الشمالية، كما حدث حين غزاهم عمرو بن العاص ومعه صفوة ممتازة من كبار المهاجرين والأنصار وذلك في غزوة ذات السلاسل التي كانت موجهة بصفة خاصة إلى قضاة الذين هم أحوال عمرو نفسه.

إذن فهناك جيوب مقاومة كبيرة ضد الإسلام من بطون الحضارمة من قضاة وكندة الذين تقع ديارهم في الشريط الشمالي من الجزيرة، والممتدة من حدود العراق شرقاً، حتى بحر القلزم (البحر الأحمر) غرباً، وهذه البطون التي أكثرها يدين بالنصرانية - إذا ما اتحدت - تستطيع حشد ما لا يقل عن مائة ألف مقاتل، وهذا العدد إذا ما غفلت عنه القيادة الإسلامية العليا في المدينة وسمحت له بالتجمع والتكامل والتلاحم داخل الجزيرة العربية، فستجد هذه القيادة نفسها أمام مشكلة عسكرية قد تكون أخطر من مشكلة الأحزاب التي واجهتها في السنة الثالثة للهجرة، ومن مشكلة التجمع الهوازني الذي عانت من أخطاره الشديدة الأهوال في ملحمة حنين.

يضاف إلى خطورة جيوب المقاومة المتمثلة في هذه البطون القضاعية الكندية المنتشرة في الشريط الشمالي من الجزيرة. يضاف إلى هذه الخطورة خطر آخر كبير وهو وجود الرومان في الشام الذين - منذ عصور قديمة - كانوا ولا يزالون على صلوات وثيقة بهؤلاء النصارى من كندة وقضاة، وذلك بحكم اعتناق الجميع لدين هو واحد في الأصل، وبحكم ارتباط هؤلاء الجنوبيين بتاج الإمبراطورية البيزنطية التي على رأسها ملك (وهو هرقل) الذي لا تزال خمرة انتصاره على الفرس تلعب برأسه، حيث عاد لتوه من معارك سجل فيها أروع الانتصارات على الإمبراطورية الفارسية التي كانت - قبل أن يهزمها هرقل - أعظم إمبراطورية في العالم.

فالرومان قد لا يغامرون بزج فيالقهم الثقيلة في صحراء الجزيرة العربية كي يقضوا على كيان الإسلام الذي أصبحوا يتخوفون من انتشاره عبر الحدود إلى الشام وخاصة بعد أن تلقى ملكهم هرقل كتاب النبي ﷺ الذي يدعو فيه وشعبه إلى الإسلام، وأدرك الملك القسيس هرقل - بما عنده من علم بالإنجيل - أن محمداً هو النبي الذي بشر به عيسى في الإنجيل.. الرومان هؤلاء قد لا يغامرون بزج فيالقهم في صحراء الجزيرة العربية لقطع أو على الأقل لإيقاف تيار الإسلام، لأنهم يخشون حروب الصحراء اشد الخشية، لأن هذه الصحراء تنجح فيها (فقط) حرب الصاعقة التي لا يجيدها الجندي الروماني بينما يجيدها الجندي المسلم البدوي، وذلك لثقل سلاح ومعدات الأول وعدم مباشرته في حياته العسكرية مثل هذه الحرب، ولخفة سلاح ومعدات الثاني ومعرفته العملية التامة بحرب الصاعقة هذه التي نشأ وتدرّب عليها.

نعم قد لا يغامر الرومان بأن تقتحم فيالقهم الثقيلة الصحراء في الجزيرة، ولكنهم بما لديهم من إمكانيات، قد يقتحمون مناطق معينة من الجزيرة تصلح لأن تكون قواعد لقواتهم الثقيلة، ثم يوحدون كلمة البطون العربية البدوية من قضاة وكندة والقادة (بحكم نشأتها البدوية) على حروب الصاعقة، ويكونون منها (داخل الجزيرة نفسها) جيشاً يكون عربياً في مظهره ورومانياً في جوهره، حيث تتولى القيادة الرومانية تسليح هذا الجيش العربي وإعاشته، وبالتالي قيادته وتوجيهه، بقيادة ضباط من الرومان لغزو المسلمين في المدينة، أو على الأقل شنّ غارات متفرقة على المسلمين، بقصد اقتطاع ما يمكن اقتطاعه من جزيرة العرب لحساب الرومان، وبقصد إعاقة أيّ نفوذ وامتداد لدعوة الإسلام في الشريط الشمالي من الجزيرة، وبالتالي حراسة الشام من أن تغلغل إليه هذه الدعوة.

هكذا كانت الاحتمالات، وهكذا كان الموقف في شمال الجزيرة، حيث البطون العربية النصرانية من قضاة وكندة الحضارمة، الذين يشكلون جيوب مقاومة قوية ضد الإسلام داخل الجزيرة، كما أن إلى جانبهم في الشام قوات الإمبراطورية الرومانية التي تعتبر (بعد انتصارها على الفرس) أعظم وأقوى إمبراطورة في العالم، والتي تجد في نفسها الرغبة والقدرة على اجتياز حدود الجزيرة لمحاربة المسلمين.

فهو إذن خطر روماني جسيم قائم في الشمال يهدد المسلمين، وفعلاً قد تجسد هذا الخطر الروماني الكبير حين وصلت إلى المسلمين أنباء عن حشود رومانية في جنوب الشام شمالي تبوك.

إذن لابد من تحرك عسكري إسلامي ضخم يهرب الرومان (أولاً) وينسخ من أذهانهم فكرة القدرة على اجتياز حدود الجزيرة، ويثبت لهم أن المسلمين قادرون عسكرياً على أن ينقلوا المعركة إلى الشام نفسها، ثم يقوم هذا التحرك الإسلامي - بعد إرهاب الروم - بتصفية جيوب المقاومة العربية النصرانية وغير النصرانية التي بقيت في الشريط الشمال من الجزيرة العربية على كفرها وعلى عدائها الشديد للإسلام.

وهكذا أعلن الاستنفار العام بين المسلمين في الحاضرة والبادية فاحتشد للرسول ﷺ أضخم جيش في تاريخ حياته العسكرية حيث تمكن من حشد ثلاثين ألف مقاتل في المدينة، تحرك هذا الجيش الضخم نحو الشمال في اتجاه تبوك، ومما يدل على شعور المسلمين بالخطر الروماني الشديد في الشمال، سرعة حشدهم وإسراعهم في التحرك بجيشهم الضخم، حتى أن الرسول القائد ﷺ تحرك بهذا الجيش في وقت تشتد فيه حرارة الصيف اللاهبة، الأمر الذي يستتج منه أن القيادة الإسلامية في المدينة، قد تلقت عن الحشد الروماني معلومات خطيرة تستدعي التحرك من المدينة بأسرع ما يمكن نحو الحدود الشمالية، ولولا ذلك لما تحرك الرسول ﷺ بهذا الجيش الضخم في ذلك الفصل من الصيف ذي الحرارة اللاهبة، الأمر الذي أعطى المنافقين الفرصة كي يحاولوا تشييط عزائم المسلمين مضخمين لهم المتاعب التي سيلاقونها من شدة الحر أثناء تحركهم كما سيأتي تفصيله فيما يلي من هذا الكتاب.

كيف حشد الرسول جيشه: كان من عادة الرسول الأعظم ﷺ أنه إذا أراد أن يغزو عدواً، أن يلتزم خطة الكتمان فلا يفصح عن هدفه من التحرك حتى لأقرب المقربين إليه، اللهم إلا هيئة أركان حربه مثل أبي بكر الصديق، وذلك كما فعل عندما تحرك لفتح مكة بعشرة آلاف مقاتل، لم يعلم عامتهم بالجهة التي يتحركون نحوها، إلا عندما وصل مسافة حوالي عشرة أميال عن العاصمة المقدسة، حيث علم عامة الجيش أنه يريد قريشاً بمكة.

أما في غزوة تبوك فقد أعلن رسمياً أنه يريد غزو الروم، ليستعد كل من يمكنه الانخراط في سلك الجيش المقرر زحفه نحو الحدود الشمالية، ويجهز نفسه بكامل ما يحتاج من عتاد حربي وإعاشة؛ لأن الرسول ﷺ سيقطع بهذا الجيش قرابة ستمائة ميل (حوالي ألف كيلو متر).

فهي ليست غارة خاطفة يمكن القيام بها عبر مسافة قصيرة وبقوات خفيفة، كما أنه لم يعد مجال للتورية في التحرك حيث لم تغد «في جزيرة العرب» قوة معادية لها خطرها تستدعي هذا الحشد العظيم سوى الرومان والخليط من العرب والنصارى الموالين لهم في منطقة الحدود في تبوك ودومة الجندل والعقبة وإيلة (إيلات) وما جاورها.

فهو إذن غزو شامل وبقوة ضاربة، ستقطع مسافة طويلة جداً، وقد يتطلب الأمر أن تجتاز هذه القوة الضاربة حدود الجزيرة إلى الشام للقتال هناك.

ثم إن للرومان في المدينة طابوراً خامساً من المنافقين، سيطيرون لهم - ولا شك - خبر هذا الحشد الضخم، والذي - حتى وإن التزم الرسول ﷺ سياسة التكتّم بشأن وجهة هذا الحشد - فإن الرومان سيكون من المؤكد لديهم أنهم وحلفاؤهم من قضاة وکلب وغسان، دون سواهم، المقصودون بهذا الحشد، لأنهم يعلمون أنه - بعد القضاء على العسكرية الهوازنية وقبلها القرشية والغطفانية وبعدها الطائية - لم تعد هناك في جزيرة العرب قوة عسكرية معادية للإسلام ذات خطر تستدعي مثل هذا الحشد العسكري الضخم الذي لم تشهد الجزيرة مثله في العهد النبوي.

لهذا لم يعد من المفيد أن يلتزم الرسول ﷺ خطة الكتمان بالنسبة لهذا التحرك، لأن الرومان بمجرد علمهم «من جواسيسهم» بهذا التحرك، سيجزمون بأنهم وحلفاءهم العرب في الشمال، المقصودون دون غيرهم بهذا التحرك، ثم لطول المسافة وبعد الشقة في هذه الغزوة - ولما سيلاقى فيها الجيش من متاعب نتيجة شدة الحر - لا بد من مصارحة المسلمين بالحقيقة، كي لا ينخرط في سلك الجيش إلا الذي لديه من الإيمان الصادق ما يجعله يتقبل المشاق والصعاب في غزوة العسرة هذه بثقة وتصميم، ويجعله يوفر لنفسه من النفقة وبقية الوسائل ما يمكنه من التغلب على الصعاب الذي ستلاقيه ولا شك في هذه الغزوة الشاقة.

الاستنفار العام بين المسلمين: وتقديرًا لخطورة ما الرسول ﷺ مقدم عليه من هذا الغزو الشاق الخطير، وبعد معادلات وحسابات دقيقة للنتائج والعواقب التي يتوقعها المسلمون نتيجة ما قد يحدث من صدام - قد يكون ضارياً - بين المسلمين وبين بني الأصفر «الرومان» فإن الرسول ﷺ قرر أن يستوعب جيشه كل قادر على حمل السلاح من المسلمين في الحاضرة والبادية، فأعلن الاستنفار العام موضحاً للجميع أنه يقصد الروم في الشمال.

فبالإضافة إلى إعلان الاستنفار الكامل بين المهاجرين والأنصار في الحاضرة المدينة، بعث رسول الله ﷺ إلى البادية بمندوبين خاصين من السابقين الأولين من أصحابه، كل من هؤلاء المندوبين إلى القبيلة التي ينتسب إليها ليستنفرها للجهاد في سبيل الله، على أن يجبروهم أن الهدف من هذا الحشد هو الرومان.

ولم يقتصر في بعث مندوبيه ﷺ للاستنفار والحشد على سكان العاصمة المدينة وسكان البوادي فحسب، بل بعث أيضاً إلى أهل مكة الذين لم يمض على إسلامهم أكثر من ثمانية أشهر - يستنفرهم للجهاد.

وذكر المؤرخون أسماء أحد عشر من مشهوري الصحابة من أبناء القبائل، بعث بهم رسول الله ﷺ إلى البادية ليستنفروا قبائلهم للقتال تحت لواء الرسول ﷺ، وهؤلاء المبعوثون هم:

اسم القبيلة المبعوث إليها	اسم المبعوث
أذسلم الذين تقع منازلهم بين مكة والمدينة	١- بريدة بن الحصيب
غفار ناحية بدر والصفراء	٢- أبو رهم الغفاري
بني ليث من كنانة	٣- أبو واقد الليثي
بني ضمرة بالساحل	٤- أبو الجعد الضمري
جهينة	٥- رافع بن مكيث
جهينة	٦- جندب بن مكيث
أشجع	٧- نعيم بن مسعود
خزاعة	٨- بديل بن ورقاء
خزاعة	٩- عمرو بن سالم
خزاعة	١٠- بشر بن سفيان
سليم	١١- العباس بن مرداس (١)

(١) قد أتينا على ترجمة هؤلاء الصحب الكرام فيما نشر من هذه السلسلة.

أما المبعوثون إلى أهل مكة فلم أر فيما بين يدي من مصادر اسم أحد منهم، وكما ذكر أن الرسول ﷺ بعث إلى أهل مكة يستنفرهم كما بعث إلى أهل البوادي، كما جاء في مغازي الواقدي.

ولقد لقيت دعوة استنفر الرسول ﷺ تجاوبًا كبيرًا، سواء في الحاضرة أو في البادية، فتم حشد ثلاثين ألف مقاتل، رغم كيد المنافقين ومحاولة توهينهم عزائم المسلمين. ولقد تحدث الواقدي في كتابه المغازي عن التهيؤ لهذه الغزوة الخطيرة. فقال راويا عن عشرة من شيوخه: كانت الساقطة - وهم الأنباط - يقدمون المدينة بالدرك والزيت في الجاهلية وبعد أن دخل الإسلام، فإنما كانت أخبار الشام عند المسلمين كل يوم لكثرة من يقدم عليهم من الأنباط، فقدمت قادمة فذكروا أن الروم قد جمعت جموعًا كثيرة بالشام، وأن هرقل قد رزق أصحابه «أي دفع رواتبهم» لسنة كاملة، وأجلبت معه لحم وجذام وغسان وعاملة، وزحفوا وقدموا مقدماتهم إلى اللقاء وعسكروا بها، ولم يكن عدو أخوف عند المسلمين منهم، وذلك لما عاينوا منهم - إذ كانوا يقدمون عليهم تجارًا - من العدد والعدة والكراع.

وكان رسول الله ﷺ لا يغزو غزوة إلا وري بغيرها، لثلا تذهب الأخبار بأنه يريد كذا وكذا، حتى كانت غزوة تبوك، فغزاها رسول الله ﷺ في حر شديد، واستقبل سفراء بعيدًا، واستقبل غزى وعدوًا كثيرًا، فجلى للناس أمرهم ليتأهبوا لذلك أهبة غزوهم، وأخبر بالوجه الذي يريد. ثم ذكر الواقدي أسماء المبعوثين الذين بعثهم إلى البادية لاستنفر سكانها للجهاد.

لقد كانت السنة التي أعلن فيها الرسول ﷺ الاستنفر العام لمواجهة الرومان في الشمال، سنة جذب وجفاف، فالمسلمون «وخاصة البادية» في حالة ضيق شديد، ولذلك أطلق على غزوة تبوك اسم غزوة «العسرة» لما لاقى الرسول ﷺ وأصحابه من جهد ومشقة لإكمال تمويل وتجهيز هذا الجيش الضخم، ولكون هذه الغزوة قام بها المسلمون في صائفة شديدة الحر ولطول المسافة التي سيقطعها الجيش الضخم، ولكون هذه الغزوة قام بها المسلمون في صائفة شديدة الحر، ولطول المسافة التي سيقطعها الجيش الضخم هذا

من المدينة إلى الحدود الشمالية، فإن التجنيد الإجباري لم يتناول إلا الذين يجدون مركباً من خيل أو إبل، فقد كان هذا الجيش كله محمولاً، ولذلك أبقى الذين لم يجدوا ما يحملون عليه في هذه الغزوة، أعفوا من الاشتراك في هذه الغزوة رغم حرصهم الصادق الشديد على أن يشهدوها، كما جاء ذلك صريحاً في القرآن الكريم:

﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ٥١ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا اتَّوَكَّلُوا لَتَحْمِلَهُمْ قُلُوبُهُمْ قُلْ لَا أُجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴾.

ومما يدل على أن التجنيد لغزو الروم كان إجبارياً، لا يجوز لمسلم قادر «جسدياً ومادياً» أن يتخلف عن الانخراط في سلك الجيش الغازي، قول الله تعالى - بعد أن عذر المعسرين مادياً وأثنى عليهم - : ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءٌ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

وقد يتساءل البعض: لماذا لم يؤجل الرسول ﷺ تحرك هذا الجيش، حتى ينتهي فصل الصيف اللاهب، وتحسن أحوال الناس المعيشية فتزول الضائقة المادية التي هم عليها الناس، الذين لولا سخاء أغنياء الصحابة وتبرعهم العظيم بأموالهم لما استطاعوا «لفقرهم» الاشتراك في هذه الغزوة التاريخية؟.

والجواب هو أن الحالة في الحدود الشمالية «كما ذكرت المعلومات» من حيث حشد الجيوش الرومانية والعرب المنتصرة بقصد اجتياح حدود الجزيرة - تدعو إلى القلق والسرعة الشديدة من المسلمين لدفع الخطر الروماني قبل أن يستفحل، وهذا «على ما يبدو» هو الذي اضطر القيادة الإسلامية في المدينة إلى أن تقوم بهذا التحرك العسكري الضخم السريع رغم المتاعب التي سيلاقها الجيش نتيجة شدة الحر وضيق ذات يد الكثير ممن اشتركوا في غزوة العسرة هذه.

أغنياء الصحابة يتبرعون للجيش: ولما كانت سنة غزوة تبوك سنة قحط وعسرة بين عامة المسلمين، فقد حث الرسول ﷺ أغنياء الصحابة على التصدق - وهو ما يسمى بلغة العصر بالتبرع - لتجهيز ذلك الجيش الضخم وإكمال تموينه، لأن بيت مال المسلمين بالمدينة ليس فيه ما يكفي لتموين وتجهيز هذا الجيش اللجب.

لم يكن هناك في العصر النبوي نظام عسكري إداري تدفع بموجبه رواتب للمحاربين يتقاضونها مقابل اشتراكهم في القتال لتدعيم سلطان الإسلام، بل يكون القتال هذا بدافع من منطلق وجداني أساسه الإيمان بأن هذا القتال هو الجهاد الذي أعد الله للقائمين به أعلى الدرجات في الدار الآخرة، وخاصة الذين يلقون حتفهم وهم يباشرون هذا الجهاد، والذين أكد القرآن أنهم يفضلون جميع أموات المسلمين ، بأنهم يصيرون بعد موتهم أحياء. تتمتع أرواحهم بأعلى درجات النعيم عند الله ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَدَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿

وانطلاقاً من هذه العقيدة (عقيدة الجهاد لإعلاء كلمة الله) يقوم القادرون منهم بواجب تجهيز أنفسهم بما يلزمهم من سلاح وإعاشة ووسائل نقل إلى ميادين القتال، فلا يطلبون من الدولة شيئاً من هذه المستلزمات للجهاد وإنما يطلب هذه المستلزمات من المجاهدين من الدولة غير القادرين من المعوزين، فهؤلاء تبذل الدولة جهدها لتوفير ما يحتاجونه من سلاح وإعاشة ووسائل نقل.

وهؤلاء كانوا كثيرين عندما أعلن الاستنفار العام كي يتحرك الرسول بالجيش نحو الشمال لمواجهة الروم، ولما كان بيت المال، ليس فيه ما يوفر لهؤلاء الفقراء من مستلزمات القتال شيء كالسلاح والإعاشة ووسائل النقل، وجه الرسول ﷺ إلى أثرياء الصحابة وميسوري الحال نداء بأن يتصدقوا بما تسخو به نفوسهم من أموالهم لسد احتياجات الراغبين في الجهاد، من الذين لا يجدون (في أموالهم الخاصة) ما يوفر لهم ما يحتاجونه في هذه الرحلة القتالية الشاقة الطويلة التي تستغرق ذهاباً وإياباً حوالي شهر كامل.

وما كاد الأغنياء وميسورو الحال من الصحابة يتبلغون نداء الرسول ﷺ الحاث على التصدق والتبرع لإكمال تجهيز الغازي هذا حتى تسابقوا إلى ميدان التبرع والتصديق طمعاً فيما عند الله تعالى من ثواب.

وكان التبرع من هؤلاء الكرام البررة على أعلى مستويات السخاء، فتم للرسول ﷺ - وفي وقت وجيز - جمع أموال عظيمة من المتصدقين، تمكن بهذه الأموال من تموين الجيش وإكمال تجهيزه، حيث بهذه الأموال وفر الإعاشة ووسائل النقل والأسلحة للذين لا يقدرّون على أن يوفروها لأنفسهم من ماله الخاص.

وكان أعظم المتصدقين المتبرعين سخاء من الصحابة لتجهيز الجيش هذا، عثمان بن عفان، فقد ضرب أعلى رقم قياسي في البذل والسخاء في سبيل الله بماله، تولى وحده تموين وتجهيز ثلث الجيش من ماله الخاص. أي أن عثمان قام وحده بتجهيز عشرة آلاف من ماله الخاص للحلال، وكان عثمان تاجرًا ناجحًا.

أي إيمان عظيم جعل صاحبه يذهب في الكرم وحب الخير إلى أن ينفق بسخاء وطيب خاطر كل هذه النفقات العظيمة (عشرة آلاف مجاهد يمونهم ويجهزهم بكل ما يحتاجونه من ماله الخاص؟).. تضحية ما بعدها تضحية، وسخاء - باعته الإيمان - ما بعده سخاء جعل الرسول ﷺ - تقديرًا لهذا الكرم العظيم - أن يقول مبشرًا عثمان أن الله قد رضي عنه: (ما يضر عثمان ما فعل بعد هذا).

وقد روى أصحاب السير والمغازي، كل حسب سنده وروايته يصفون حملة التبرعات التي قام بها الصحابة لتموين الجيش في هذه الغزوة (غزوة العسرة): وحض رسول الله ﷺ المسلمين على القتال والجهاد، ورغبهم فيه، وأمرهم بالصدقة، فحملوا صدقات كثيرة، فكان أول من حمل أبو بكر الصديق، جاء بماله أربعة آلاف درهم، فقال رسول الله ﷺ: هل أبقيت شيئًا؟ قال: الله ورسوله أعلم، وجاء عمر بن الخطاب بنصف ماله، فقال له رسول الله ﷺ: هل أبقيت شيئًا؟ قال: نعم النصف، مثل الذي جئت به.

وبلغ عمر ما جاء به أبو بكر فقال: ما استبقنا إلى الخير قط، إلا سبقني إليه، وحمل العباس إلى رسول الله ﷺ مالا، وحمل طلحة بن عبيد الله إلى النبي ﷺ مالا، وحمل عبد الرحمن بن عوف إليه مالا، مائتي أوقية، وحمل سعد بن عبادة إليه مالا، وحمل محمد بن مسلمة إليه مالا وتصدق عاصم بن عدي^(١) بتسعين وسقا تمرًا، وجهز عثمان بن عفان ثلث ذلك الجيش، فكان من أكثرهم نفقة، حتى كفى ذلك الجيش مئونتهم، حتى إن كان ليقال: ما بقيت لهم حاجة، حتى كفاهم شئق أسقيتهم^(٢). فيقال: إن رسول الله ﷺ قال يومئذ: ما يضر عثمان ما فعل بعد هذا^(٣).

(١) انظر ترجمته في كتابنا (غزوة بدر).

(٢) شئق جمع شناق، وهو الخيط أو السير الذي تعلق به القرية، والخيط الذي يشد به فمها.

(٣) مغازي الواقدي ج ٣ ص ٩٩١.

ورغب أهل الغنى في الخير والمعروف، واحتسبوا في ذلك، وقووا أناساً دون هؤلاء من هو أضعف منهم، حتى إن الرجل ليأتي بالبعير إلى الرجل والرجلين فيقول: هذا البعير بينكما تتعاقبانه، ويأتي الرجل بالنفقة فيعطيها بعض من يخرج^(١).

اشترك النساء في التبرع للجيش : ولم يقصر النساء عن الرجال في مساندة الجيش بالتبرع لإكمال تجهيزه، كل حسب قدرتها والتي لم يكن عندها دراهم أو دنانير، تتصدق بما تزين به من حلى. قال الواقدي: حتى إن كنّ النساء ليبعثن بكل ما قدرن عليه. قالت أم سنان الأسلمية^(٢): لقد رأيت ثوباً مبسوطاً بين يدي رسول الله ﷺ في بيت عائشة فيه مسك ومعاضد^(٣) وخالخل وأقرطة وخواتيم وخدمات، مما يبعث به النساء يعنّ به المسلمون في جهازهم والناس في عسرة شديدة^(٤).

عناصر التخريب تتحرك في المدينة: لا شك أن الظرف الذي حشد فيه الرسول ﷺ جيشه الضخم للتتحرك نحو الشمال لإرهاب الروم، كان ظرفاً صعباً بالنسبة للمسلمين الغزاة من جهات كثيرة، فقد كان الناس في عسرة شديدة، حتى أن الإمام البخاري سمى غزوة تبوك هذه: غزوة العسرة^(٥).

وبالإضافة إلى الضائقة العامة والعسرة الشديدة التي عليها المسلمون، كان الوقت وقت حر شديد، وكانت ثمار النخل قد طابت، والنفوس بطبعها ميالة في ذلك الظرف إلى التمتع بالظلال في عروشهم بين النخيل، فالناس - كما قال أصحاب السير - يحبون (في ذلك الظرف) المقام في ديارهم ويكرهون الشخوص عنها على الحال من الزمان الذي هم عليه، والضائقة التي تأخذ بتلابيبهم.

ولكن الأغنياء وميسوري الحال من الصحابة قد خففوا بتبرعاتهم السخية العظيمة من هذه الضائقة المادية، ولكن شدة الحر اللاهب، والخروج من المدينة في وقت طابت فيه الثمار حيث يودّ الكثير قطعها والتمتع بها في ظل النخيل والعروش، جعل الناس يودّون

(١) مغازي الواقدي ج ٣ ص ٩٩٢.

(٢) هي أم سنان الخ.

(٣) المسك (بفتح أوله وثانيه) أسورة من عاج أو ما شابهه، والمعاضد: الدمالج، وهو ما توضع النساء في عضدهن.

(٤) مغازي الواقدي ج ٣ ص ٩٩٢.

(٥) البخاري ج ٦ ص ١.

لو أنهم لم يغادروا المدينة في ذلك الفصل، ولكنه أمر.. أمر عسكري من الرسول القائد ﷺ وأمر الرسول ﷺ إذا قضى به لا يجوز لمسلم أن يخالفه حتى وإن لم تكن نفسه مبالغة إليه.

ووجدت عناصر التخريب من المنافقين المناخ موافقاً للتخريب والإرجاف وبث الإشاعات المثبثة للعزائم في صفوف الجيش، فقد ساء هذه العناصر المنافقة المنتسبة إلى الإسلام والمحسوبة على المسلمين، ساءها ما رأت من شوكة حرية عظيمة، لم يكن للمسلمين مثلها منذ بزغت شمس الإسلام، فحاولت هذه العناصر الخبيثة، وهي الرتل الخامس من الباطنيين الذين سماهم الله تعالى في القرآن (المنافقين) حاولت القيام بأعمال التخريب داخل صفوف الجيش الذي كان يتم حشده، وذلك بمحاولة بث الإرجاف وتثبيط الهمم وتفريق الكلمة وإحداث البلبلة والتشويش بين مختلف فئات المسلمين، كي يعجز الرسول ﷺ عن حشد الجيش المطلوب، فيفشل الغزو.

غير أن الطابور الخامس من هؤلاء المنافقين - رغم محاولاتهم المستميتة لم يجنوا سوى الفشل الذريع، فقد تجاهلهم المؤمنون الصادقون وسخروا من محاولاتهم الخبيثة، فاستجابوا لداعي الجهاد بغير تردد، سواء منهم الحاضرة أو البادية، فتم حشد ذلك الجيش اللجب الذي بلغ ثلاثين ألفاً.

وقد فطن الرسول القائد ﷺ لتحركات المنافقين المشبوهة، فقضى عليها، وتتبع خلاياهم التخريبية السرية، فكشفها، وهدم الأوكار التي تحوكت فيها هذه الخلايا الباطنية الخبيثة مؤامراتها ضد وحدة المسلمين، كما نزل القرآن الكريم يندد بهؤلاء المنافقين، ففضحهم، وثبت المؤمنون الصادقون، وتحرك الجيش بكامله من المدينة حسب الخطة المرسومة، حتى أدى مهمته وحقق أهدافه على أكمل وجه، رغم أنه قد اندس فيه جماعات من الرتل الخامس (المنافقين)، ورغم أن هؤلاء المنافقين قد نجحوا في حمل بعض الوحدات على التمرد بالانسلاخ عن الجيش بعد أن انخرط في سلكه، ولكن انسلاخ هذه الوحدات كان في صالح المسلمين، حيث كانت عناصر مشبوهة معادية للإسلام في الباطن، ومنتسبة إلى المسلمين في الظاهر.

فلو أن هذه العناصر الخبيثة المشبوهة ظلت (مع كثرتها) داخل الجيش الإسلامي حتى عودته من تبوك، لكانت عامل تخريب وقتنة داخل هذا الجيش المؤمن، وما زادته إلا شراً وخبلاً كما أشار القرآن الكريم إلى ذلك: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا وُضِعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾

وكان الرسول ﷺ كقائد عسكري حريصاً على سلامة جيشه، وخاصة بعد أن نجح في حشده وتجهيزه، وكان حذراً كل الحذر من دسائس المنافقين واستمرار محاولاتهم في التأثير بروحهم الخبيثة على الجيش، فبعد أن تم حشده وتجهيزه، سارع الرسول ﷺ إلى الخروج به من المدينة، وبذلك عزله عن عناصر الرتل الخامس من المنافقين، بعد تصفيته منهم. قال الواقدي: وأخذ رسول الله ﷺ الناس بالانكماش (أي الإسراع) والجد، وضرب رسول الله ﷺ عسكره بثنية الوداع (خارج المدينة) والناس كثير لا يجمعهم كتاب.

نماذج من تصرفات المنافقين: لقد كان المنافقون - منذ قدوم الرسول ﷺ المدينة - وهم يضمرون العداوة للمسلمين ويسببون المتاعب للرسول ﷺ بمختلف وسائلهم الباطنية الخبيثة، فكانوا لا يصارحون المسلمين بالعداوة، بل يبدون في الظاهر وكأنهم مسلمون بما يؤدون من شعائر معهم كالصلاة والحج وغير ذلك من الشعائر الظاهرة، ولكنهم في الباطن يكيّدون للمسلمين كلما سنحت لهم الفرصة سراً.

ولما كان هؤلاء المنافقون يحملون الهوية الإسلامية، حيث يعتبرون - لاعتناقهم الإسلام ظاهراً - جزءاً من الأمة الإسلامية، فإن القانون الإسلامي الذي يحكم به النبي ﷺ لم يضعهم تحت طائلة أية عقوبة، رغم القرائن والمؤشرات التي تشير - من خلال تصرفاتهم - إلى خبث طويتهم وإضرارهم بالبغض والكيّد للإسلام والمسلمين، لأن هذا القانون الإسلامي لا يصدر حكماً بالعقوبة إلا ضد جريمة معلنة ثابتة مشهودة، وعلى أساس هذا القانون كان النبي ﷺ يعامل هؤلاء المنافقين، فلم يثبت أن الرسول ﷺ حكم على أحد منهم بعقوبة استناداً إلى ما تضمنه نفوسهم وتنطوي عليه من كيد وبغض للمسلمين، ورغبة ملحة في إلحاق الضرر بهم.

وفي ظل القانون الإسلامي هذا ظل هؤلاء المنافقون - رغم ما يضمرون من شر للمسلمين - يتمتعون بحقوق المواطن المسلم، وقد استغلوا تمتعهم بهذا الحق لجعله ستاراً يكيّدون من خلفه للإسلام ويعملون بكل إمكانياتهم (سراً) للتآمر على كيان المسلمين، فلا تسنح لهم فرصة يظنون أنهم قادرون فيها على الإضرار بالمسلمين (على أي مستوى) إلا واغتموها كي يصيبوا المسلمين بهذا الضرر ولكن بحبث وحذر بحيث لا يقعون تحت طائلة القانون.

كما أن النبي ﷺ - وبما عرف عنه من مرونة وتسامح وصبر - يلجأ دائماً إلى تجاهل تصرفات هؤلاء المنافقين، حتى وإن بلغت - في بعض الأحيان - جد الضرر الواضح

بالمسلمين، كما حدث في غزوة أحد، حين تمرد ثلثمائة منافق بقيادة عبد الله بن أبيّ كانوا قد انخرطوا في سلك الجيش النبوي الذاهب إلى أحد لمواجهة قريش، فرجع عبد الله بن أبيّ بهؤلاء المنافقين من منتصف الطريق بين المدينة وأحد، بقصد توهين عزائم المسلمين وإحداث الفرقة في صفوفهم وتقوية معنويات المشركين الذين كانوا يرون ما يحدث من تمرد من هؤلاء المنافقين، ومع ذلك فلم يتخذ الرسول ﷺ أي إجراء تأديبي ضد هؤلاء المنافقين، بالرغم من اقتراح بعض أصحابه - آن ذاك - بتصفية هذه العناصر التخريبية المنافقة عسكرياً قبل ملاقات قريش^(١).

ومثل هذه المواقف المشينة سبق وأن تكررت من عناصر النفاق كما حدث من زعيمهم من إثارة للفتنة في غزوة بني المصطلق، وإشاعة مقالة السوء الكاذبة في أم المؤمنين الطاهرة عائشة رضي الله عنها، والتي على أثرها طلب الابن الصالح لهذا المنافق وهو (أي الابن) عبد الله بن عبد الله بن أبيّ أن يقتل أباه عبيد الله من أبي رأس المنافقين ولكن الرسول ﷺ عاجلها بكل حكمة، ولم يسمح بقتل رأس النفاق، بل تركه وشأنه، حتى اكتشفه أبناء عشيرته على حقيقته الخبيثة فمقتوه، وصار نفوذه يتضاءل حتى تلاشى نهائياً واستراح المسلمون بموته^(٢). وذلك بعد أن تمت السيطرة الكاملة للإسلام على جميع نواحي الجزيرة العربية من أقصاها إلى أقصاها.

موقف ابن أبيّ والجد بن قيس في غزوة تبوك: ورغم انحسار نفوذ زعماء المنافقين شيئاً فشيئاً في المدينة، فقد بقي لهم بعض النفوذ بين العناصر المغرر بها، فكان عبد الله بن أبيّ والجد بن قيس، وهما رأساً النفاق، لا يزالان على قيد الحياة عندما اعتزم الرسول ﷺ أن يتحرك بالجيش إلى الحدود الشمالية لإرهاب الروم.

ولقد بذل هذان الزعيمان المنافقان كل جهد لتمزيق وحدة المسلمين بنشر الشائعات المغرضة، والتي هدفها إحداث الفوضى والبلبلة داخل صفوف الجيش الذي تقرر أن يتحرك من المدينة إلى تبوك بقيادة الرسول ﷺ.

أما الجد بن قيس فقد قال له الرسول ﷺ كزعيم من زعماء المسلمين (في الظاهر) ولعله ينقي سريره ويشترك - بإخلاص - في هذه الحملة العسكرية التاريخية، فالرسول

(١) انظر تفاصيل تمرد المنافقين هذا في كتابنا الثاني (غزوة أحد).

(٢) انظر تفاصيل هذه الفتنة في كتابنا الثالث (غزوة الأحزاب).

دائمًا لا يبأس من إصلاح النفوس التي اعترها الخراب، فهو رسول رحمة ومحبة وإصلاح، لذلك فقد قال للجد ابن قيس هذا (بأدب نبوي رفيع): هل لك العام تخرج معنا، وبلهجة فيها شيء من المداعبة قال له: لعلك تحتقب من بنات بني الأصفر؟. وكان الإسلام يبيح سبى نساء الأعداء وتسريهن كعمل حربي مقابل لا بد منه^(١)؛ لأن الأعداء إذا ما سبوا نساء المسلمين استرقوهن وتسروهن^(٢) فقال الجد بن قيس للنبي ﷺ - بلغة منافقة خبيثة ماكرة - : أو تأذن لي ولا تفتني؟ فو الله، لقد عرف قومي ما أحد أشد عجبًا بالنساء مني، وإني لأخشى إن أنا رأيت نساء بني الأصفر، لا أصبر عنهن.

ولقد استاء الرسول ﷺ لهذا الجواب الخبيث، غير أن الرسول - لما هو عليه من أدب رفيع جم - لم يعبر عن استيائه من هذه الإجابة التي تحمل أكثر من معنى من معاني الخبث والتناق، لم يعبر عن استيائه بأكثر من أنه (فقط) أعرض عن الجد بن قيس، وذهب في الحلم على هذا المنافق إلى أن أذن له في التخلف عن الجيش قائلاً له قد أذنت لك^(٣).

ومن عجائب المفارقات التي تصنعها العقيدة، أن لهذا المنافق الجد بن قيس، ابن صالح شديد الإيمان، كان شهد بدرًا مع المسلمين، وهو أخو معاذ بن جبل لأمه، واسمه عبد الله^(٣).. هذا الشاب الثابت العقيدة الصالح المؤمن، لما بلغته مقالة أبيه النابية لرسول الله ﷺ ذهب إليه ليقدم له النصيح كي يتوب إلى الله مما فاه به من منكر القول أمام الرسول ﷺ ولينفر ضمن الجيش مع رسول الله ﷺ إلى حيث يريد، لاسيما وأنه غني من أغنياء المدينة، وسيد من سادات الخزرج المرموقين، والمفروض فيهم أن يكون (بإخلاص) في مقدمة الجيش النبوي الغازي.

فقد قال هذا الشاب المؤمن الطيب عبد الله لأبيه الباطني المنافق الجد بن قيس - متسائلًا في استنكار - : لم ترد على رسول الله ﷺ مقالته؟ فو الله ما في بني سلمة أكثر مالا منك، ولا تخرج ولا تحمل أحدًا (أي لا تساعد أحدًا من المعوزين المجاهدين) بخيل ولا ركاب يركبها في هذه الغزوة، فقال الجد المنافق لابنه المؤمن الصادق: يا بني ما لي وللخروج في الريح والحر والعسرة إلى بني الأصفر؟.

ثم اندفع بلغة الإرجاف والتخوف من قوة الرومان لعله يؤثر في معنويات ابنه المؤمن

(١) انظر تفاصيل موقف الإسلام من سبايا الحرب في كتابنا الرابع (غزة بني قريظة) ففيه ما يدحض جميع شبه أعداء الإسلام.

(٢) مغازي الواقدي ج ٣ ص ٩٩٢.

(٣) هو عبد الله بن الجد بن قيس، قال في أسد الغابة: هو من الأنصار من بني سلمة، شهد بدرًا وأحدًا.

ومن يسمع قوله الخبيث، فيخافوا فيقعدوا مثله مع الخوالب، فقال - وهو يحاور ابنه - :
والله ما آمن من بني الأصفر وأنا في منزلي بخربي، فأذهب إليهم فأغزوهم، إني والله يا
بني عالم بالدوائر.

وهنا تفاعلت عوامل الغضب لله ولرسوله في نفس الشاب المؤمن الصادق - فوضع
اعتبار العقيدة فوق كل اعتبار، فداس - في سبيل نصر عقيدته - على عاطف الأبوة،
فخاطب أباه كما يخاطب المنحرفين الضالين الخبثاء، حيث صارحه بأنه منافق وأن باعث
تحلفه عن رسول الله ﷺ لم يكن الخوف من بني الأصفر كما زعم، ولكنه الرغبة في الكيد
للإسلام وتثييط المسلمين عن الغزو، حيث قال له: ولكنه النفاق، والله لينزلن على
رسول الله ﷺ فيك قرآن يقرءونه، فغضب المنافق الكبير لمقالة ابنه، ثم ضربه بالنعل على
وجهه، وكان ابنه به برأ، فصبر الابن المؤمن الصادق وانصرف من مجلس أبيه ولم
يكلمه^(١).

وازداد المنافق الكبير إياه كفرةً وعناداً، فاستمر في إرجافه برسول الله ﷺ وتشكيكه
الناس في دين الله وتجسيمه ما سيقولون في غزوتهم الطويلة الشاقة من مشاق الحر
الشديد، وذلك عن سبق إصرار دنيء ورغبة خبيثة في التأثير على المسلمين لعلمهم
يتأثرون بإرجافه فيعدلوا عن المشاركة في الجهاد، فيصيب التصدع والتفكك الجيش
النبوي الذي بدأ يستكمل حشده وتجهيزه استعداداً للتحرك إلى تبوك.

فقد ذكر أصحاب السير والحديث أن الجدي بن قيس المنافق هذا وجه نداء إلى قومه
بني سلمة وفي مقدمتهم جبار بن صخر^(٢)، حثهم فيه على التخلف عن رسول الله ﷺ
لأن الفصل فصل حر شديد، فقال لجبار بن صخر ونفر من بني سلمة، يا بني سلمة لا
تنفروا في الحر. قال الواقي: يقول: لا تخرجوا في الحر زهادة في الجهاد، وشكا في الحق،
وإرجافاً برسول الله ﷺ..

ولكن الخبيث فشل في مسعاه، وأنزل الله فيه قرآناً فضحه فيه - كما توقع ابنه المؤمن
- قال تعالى مبيناً وضع هذا المنافق الكبير وأمثاله: ﴿ فَرَحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ
خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا
فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا
جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [التوبة: آية ٨١ - ٨٢].

(١) مغازي الواقي ج ٣ ص ٩٩٣.

(٢) هو جبار بن صخر بن أمية بن خنساء بن سنان الأنصاري ثم الخزرجي، كان من السابقين الأولين في
الإسلام، شهد بيعة العقبة وحضر بدرًا وأحدًا والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ.

وفي مقالة المنافق الجذ بن قيس لرسول الله ﷺ بشأن بنات الروم: أو تأذن لي ولا تفتني أنزل الله تعالى قرآنا أكد فيه أن هذا المنافق وأضرابه هم واقعون في فتنة أعظم فقال تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ أُنْذِنَ لِي وَلَا تَفْتِنِي ۗ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ [التوبة: آية ٤٩] .

فلما نزلت هذه الآية الكريمة التي تفضح الجذ بن قيس وأمثاله وتشهر نفاقهم، ذهب إليه ابنه عبد الله. فقال له: مكرراً لومه له على موقفه السييء من رسول الله ﷺ، ألم أقل لك: إنه سوف ينزل فيه قرآن يقرأه المسلمون؟.

ولكن الأب المنافق تمادى في غيئه وازداد النفاق في نفسه الخبيثة، فأظهر شديد غضبه على ابنه المؤمن لتكراره النصيح له، وأعلن أنه سيقطع عنه كل صلة، حيث قال له: اسكت يا لُكع، والله لا أنفعك بِنافعة أبداً، والله لأنت أشد من محمد (١) .

دور عبد الله بن أبيّ التخريبي: أما دور رأس النفاق عبد الله بن أبيّ الذي هو سيد من سادات الخزرج، فقد كان أكبر الأدوار لمحولة الإرجاف والتخريب داخل صفوف الجيش الذي تقرر أن يتحرك من المدينة إلى تبوك لمواجهة الروم.

فإذا كان دور المنافق الكبير الثاني الجذ بن قيس ينحصر في تشييط وتوهين عزائم المسلمين، بتخويفهم من العسكرية الرومانية وما هي عليه من قوة وبأس، وتوجيهه النداء إلى قومه بأن لا ينفروا مع الرسول ﷺ في هذه الغزوة، لأن الحر شديد، فإن دور عبد الله بن أبيّ في مجال التخريب وتمزيق الكلمة أخطر وأعظم.

ذلك أن عبد الله بن أبيّ لم يكتف بالتشويش وأعمال التشييط والتوهين القولي، بل قاد عملية تمرد داخل الجيش النبوي بعد أن انتظم عقده وتم حشده وتجهيزه.

فقد كان عبد الله بن أبيّ وجماعته الباطنيين - باعتبارهم يحملون الهوية الإسلامية في الظاهر - قد انحرفوا في سلك الجيش النبوي بأعداد كبيرة عندما أعلن الاستنفار العام، وذلك لا لإسناد هذا الجيش وتقويته، وإنما بقصد إحداث الفرقة والتشويش والبلبله داخل صفوفه، وذلك بالانفصال عن هذا الجيش والرجوع إلى المدينة عندما يبدأ الجيش التحرك نحو وجهته.

(١) مغازي الواقدي ج ٣ ص ٦٩٣.

وقد مثل عبد الله بن أبي بالنسبة للجيش النبوي المتحرك إلى الشمال، مثل (تماماً) دور التخريب الذي قام به يوم معركة أحد عندما خرج في جماعته مع الجيش النبوي المتحرك نحو أحد لمقاتلة مشركي قريش، حيث رجع إلى المدينة من منتصف الطريق برتله وكانوا يمثلون ثلث الجيش تقريباً، الأمر الذي كان له أسوأ الأثر في نفوس المؤمنين، بل كاد يؤدي إلى تمرد آخر في الجيش النبوي أخطر وأعظم، حيث كادت قبيلتان من الأنصار أن تحذوا حذو عبد الله بن أبي ورتله الخامس، فترجع إلى المدينة وتترك الاشتراك مع النبي ﷺ في مقاتلة قريش، لولا أن الله ثبت رجال هاتين القبيلتين فثبتوا على إيمانهم واستمروا في مساندة الرسول ﷺ حتى نهاية معركة أحد^(١).

ففي غزوة تبوك خرج عبد الله بن أبي في جيش كبير من أصحابه المنافقين على أنه جزء من الجيش النبوي، غير أن رأس النفاق هذا لما بدأ الجيش النبوي في التحرك من ثنية الوداع حيث كان يعسكر، قام بما يمكن تسميته تمرداً، حيث رجع إلى المدينة بمجموعة كبيرة من المحاربين الذين كانوا قد انتظموا في سلك الجيش النبوي، وكان الذين رجعوا مع رأس النفاق، هم (بالتأكيد) ممن كان مثله على النفاق.

وكان الهدف واضحاً من تصرف رأس النفاق هذان وهو محاولة تمزيق وحدة الجيش النبوي، بإغراء بعض وحداته الأخرى بأن تصنع صنيعه، وكان عبد الله بن أبي عندما تمرد برتله، نفوه بكلمات فيها تخويف لمن بقى ثابتاً حول النبي ﷺ من الجيش وتحريض لوحدات الجيش الأخرى على التمرد بالرجوع إلى المدينة، وترك الرسول القائد ﷺ وشأنه، ولكن محاولات المنافق الكبير هذه باءت بالفشل، فلم يتبعه في الانسلاخ من الجيش والرجوع إلى المدينة سوى رتله الخاص، والذي كان أفراد منافقين مثله، فقد بقى الجيش النبوي متماسكاً كأقوى وكأعظم ما يكون، حيث بقى تحت قيادة الرسول ﷺ ثلاثون ألف مقاتل تحرك بهم إلى الشمال وحقق بهم الأهداف التي من أجلها تحرك بهم، ولم يجن عبد الله بن أبي وبقية عصابة المنافقين إلا الخيبة والخسران.

ورغم أن عبد الله بن أبي قد انسلاخ عن الجيش بوحداته التابعة له، بقصد الإضرار بوحدة هذا الجيش، وبقصد تحريض المسلمين على الانفضاض من حول الرسول القائد ﷺ كي يفشل النبي ﷺ في غزوته التاريخية تلك، فإن الرسول الحكيم الحليم لم

(١) انظر تفاصيل تمرد عبد الله بن أبي وقومه المنافقين في كتابنا الثاني (غزوة أحد).

يتخذ أي إجراء تأديبي ضد عبد الله بن أبيّ ورتله المتمرد، وتلك دائماً عادة الرسول الحكيمة إزاء مثل هذه التصرفات الشائنة التي يلجأ إليها كل المنافقين بقصد تمزيق وحدة المسلمين والتنكيد على الرسول العظيم ﷺ.

قال الواقدي يصف تأمر عبد الله بن أبيّ وأتباعه المنافقين يوم تحرك الجيش النبوي إلى تبوك: وأقبل عبد الله بن أبيّ بعسكره، فضربه على ثنية الوداع بجذء ذباب^(١) معه حلفاؤه من اليهود والمنافقين ممن اجتمع إليه، فكان يقال: ليس عسكر ابن أبيّ بأقل العسكرين وأقام ما أقام رسول الله ﷺ وكان رسول الله ﷺ يستخلف على العسكر أبا بكر الصديق يصلي بالناس، فلما سار رسول الله ﷺ تخلف ابن أبي عن رسول الله ﷺ فيمن تخلف من المنافقين، وقال مستهزئاً: يغزو محمد بن الأصفر مع جهد الحال والحر والبلد البعيد، إلى مالا قبل له به، يحسب محمد أن قتال بني الأصفر اللعب؟ ونافق معه من هو على مثل رأيه.

ثم قال الخبيث متمنياً الهزيمة والانكسار للنبي ﷺ وجيشه: والله لكأني أنظر إلى أصحابه غداً مقرنين في الجبال، إرجافاً برسول الله ﷺ وأصحابه^(٢).

ولا شك أن العناصر الطيبة المخلصة في الجيش النبوي قد تأملت للتصرف المشين الذي تصرفه عبد الله بن أبيّ، فساءها أن يخذل عن رسول الله ﷺ، فيرجع بوحداته العسكرية الخاصة قاصداً إحداث الفرقة وإشاعة البلبله داخل الجيش النبوي، ومن المحتمل أن بعض القادة المخلصين قد رغبوا في أن يقوم الرسول ﷺ بتصفية عبد الله بن أبي وعصابته المتمردة تصفية جسدية، بحيث يقاتلهم ويقضي عليهم قبل أن يتحرك لمواجهة الرومان ويترك المدينة وفيها هذا البلاء المتمثل في هؤلاء المنافقين المسلحين الذين - بدافع من الرغبة المجنونة في إلحاق الضرر بالقوات النبوية المسلحة - انسلخوا عن هذا الجيش ورجع رتلهم إلى المدينة معلناً أن النبي ﷺ حين يتحرك لمواجهة الرومان في الشمال إنما يقدم أصحابه ليوثقهم بنو الأصفر في الجبال، لأن النبي (في زعم رأس النفاق) لم يقدر العسكرية الرومانية حق قدرها: (يحسب محمد أن قتال بني الأصفر اللعب؟ والله لكأني أنظر إلى أصحابه غداً مقرنين في الجبال)^(٣).

(١) ذباب (بكسر الذال) قال في مراصد الإطلاع: جبل بالمدينة وروضات الذباب موضع آخر.

(٢) مغازي الواقدي ج ٣ ص ٩٩٦.

(٣) من كلام رأس النفاق عبد الله بن أبي.

ولكن النبي ﷺ - وهو البعيد النظر والحليم الذي لا يبلغ أحد مداه في الحلم والأناة والمجرب الذي يقدر النتائج قبل الإقدام على العمل، والذي فوق ذلك كله يتلقى الوحي من السماء فلا يصدر إلا عن أمر ربه لم يشأ أن يتخذ أي إجراء (مهما كان) ضد عبد الله بن أبي ومن لفّ لفه من المنافقين الذين لم يتركوا وسيلة لتخذيل الجيش وتمزيق وحدة المسلمين إلا واتبعوها، في وقت يمكن تسميته (بلغة العصر) وقت طوارئ وظروف استثنائية، تنزل النظم العصرية - حتى في البلاد الديمقراطية - أقسى العقوبات التي تصل أحياناً حد الإعدام بمن تثبت إدانته بعمل تخريبي يقصد به الإضرار بالقوات المسلحة، وخاصة إذا كانت في حالة استنفار واستعداد لمواجهة العدو، وهو ما فعله تماماً عبد الله ابن أبي ورتله الذي تمرد به وانسلخ من الجيش بعد أن كان جزءاً منه، بقصد إلحاق الضرر بذلك الجيش.

ولكن الرسول الحكيم (وهو في ذلك الظرف البالغ الخطورة) لم يقدم على أي عمل يؤدب به قوات النفاق المتمردة وزعيمها الخبيث، بل حتى لم يسمع منه (آن ذاك) مجرد كلمة لوم يوجهها إلى عبد الله بن أبي وعصابته على ما فعلوا، فقد تجاهلهم الرسول ﷺ وتجاهل تصرفاتهم ومضى بالجيش لوجهه حتى وصل تبوك وحقق أهدافه وعاد ظافراً منتصراً، لم تؤثر فيه تصرفات رأس النفاق وحزبه.

ولقد أثبتت الأحداث وأكدت أن سكوت الرسول ﷺ على تصرفات المنافقين ورجوع العسكريين منهم وانسلاخهم عن الجيش النبوي بعد انخراطهم فيه كجنود وقادة، هو عين الحكمة، حيث كان خروج هؤلاء المنافقين من الجيش النبوي بمثابة تطهير له من جرائم خبيثة كانت ستلحق به أفدح الأضرار، لو بقيت منخرطة داخل صفوفه لأنها ستكون دائماً داخله مبعث فتنة وإرجاف وتشويش.

وقد أكد القرآن هذه الحقيقة فقال تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا حَبَالًا وَلَا وُضْعُوا حَلَلَكُمْ يَبْغُونَكُمْ أَلْفِئَةً وَفِيكُمْ سَمْعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [التوبة : آية ٤٧] .

وكانت هناك من المنافقين عناصر أقل تجاهراً بالنفاق من عبد الله بن أبي والجد بن قيس وحزبيهما. جاءت العناصر - وهي قادرة من الناحية الجسدية والمادية - على الاشتراك في الجهاد.. جاءت هذه العناصر تطلب من الرسول ﷺ إعفاءها من الاشتراك

في الحملة، معتذرة بمختلف الأعذار الكاذبة، فلم يناقشها الرسول ﷺ فقبل اعتذارها ولم يجبرها على الاشتراك في الغزو، وهذه العناصر المنافقة الأشد تكتماً، تبلغ بضعة وثمانين رجلاً^(١)، وهؤلاء من غير العناصر التي رجع بها عبد الله بن أبي.

تدمير وكر تأمر المنافقين: لم يكن خافياً على الرسول القائد ﷺ ولا على أصحابه ما يضمه المنافقون من بغض وحقد على المسلمين، ورغبة في إلحاق الضرر بهم، ومحاولات مبطنة لتدمير الأمة الإسلامية، مع تظاهر هؤلاء المنافقين بأنهم مسلمون وحرصون على مصلحة المسلمين، فكان زعماءهم (مثل عبد الله بن أبي والجد بن قيس) يحضرون كثيراً من الاجتماعات التي يعقدها النبي ﷺ مع كبار أصحابه، باعتبار أن زعماء المنافقين هؤلاء في الظاهر جزءاً من الأمة الإسلامية.

وقد كان النبي يتسامح معهم هكذا مع علمه أنهم منافقون، بل ويتجاوز عن كثير من تصرفاتهم مادام أن هذه التصرفات لا تتعدى التنفيس عما تكنه صدورهم المريضة من بغض للنبي ﷺ وأصحابه، ومادام إنها لا تصل إلى درجة الإضرار الفعلي بأمن الأمة الإسلامية وسلامتها، فحين يصل المنافقون في تصرفاتهم إلى هذه الدرجة، فإن الرسول الحكيم الحازم، يتخذ ضدهم من الإجراءات ما يحفظ لأمة الإسلام أمنها وسلامتها.

لذلك كانت عيون المسلمين - وهو ما يسمى اليوم بأجهزة الأمن - تراقب هؤلاء المنافقين، ونتيجة مراقبة أجهزة الأمن هذه للمنافقين، تم اكتشاف نشاطات مشبوهة واجتماعات سرية يعقدها هؤلاء المنافقون للتآمر على سلامة الجيش وأمن الأمة الإسلامية. فنقل حراس الأمن في المدينة إلى الرسول القائد ﷺ أن هناك وكرًا تلتقي فيه سرًا عناصر النفاق، وتحيك فيه الدسائس والمؤامرات التي تعرّض سلامة الجيش وأمن الأمة للخطر، وأن هذا الوكر على وجه التحديد، هو بيت أحد اليهود الذي رغم أنه في ذمة المسلمين وحمائهم - قبل أن يكون بيته ملتقى لعناصر التخريب والتآمر على الإسلام والمسلمين، وهذا اليهودي اسمه سويلم.

وعندما تبلغ الرسول ﷺ خبر هذا الوكر وما يجري فيه من دس وتآمر من المنافقين بمساندة بقايا اليهود أمر قوى الأمن في المدينة بأن تنسف وتدمر وكر التآمر هذا وهو بيت سويلم اليهودي، فسارعت قوى الأمن إلى محاصرة بيت سويلم اليهودي الذي كان فيه

(١) مغازي الواقدي ج ٣ ص ٩٩٥.

المتآمرون معه يعقدون اجتماعاً من اجتماعاتهم المشبوهة، ثم أضمرت قوى الأمن الإسلامية النار في ذلك الوكر على من فيه من المتآمرين، والتهمت النيران ذلك الوكر (بيت سويلم اليهودي) وكادت تلتهم المتآمرين المجتمعين فيه، لولا أنهم قفزوا من النوافذ فنجوا من الموت، وكان الذي تولى قيادة قوى الأمن التي نُفِذت عملية إحراق وتدمير بيت سويلم اليهودي الصحابي الشهير طلحة بن عبيد الله.

فقد روى ابن هشام عن ابن إسحاق، قال: بلغ رسول الله ﷺ أن ناساً من المنافقين يجتمعون في بيت سويلم اليهودي، وكان بيته عند جاسوم، يثبطون الناس عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فبعث إليهم النبي ﷺ طلحة بن عبيد الله في نفر من أصحابه وأمره أن يحرق عليهم بيت سويلم ففعل طلحة بن عبيد الله، فاقتحم الضحاك بن خليفة من ظهر البيت، فانكسرت رجله، واقتحم أصحابه، فأفلتوا فقال الضحاك في ذلك:

كادت وبيت الله نار محمد يشيط بها الضحاك وابن أبرق
وظلت وقد طبقت كبس سويلم أنوء على رجلي كسيراً ومرفقي
سلام عليكم لا أعود لمثلها أخاف ومن تشمل به النار تحرق

ومع ما حدث من هؤلاء المتآمرين، فإن الرسول القائد ﷺ اكتفى (فقط) في تأديب هؤلاء المتآمرين بحرق الوكر الذي يلتقون فيه وهو بيت سويلم اليهودي، فلم يأمر باعتقال أحد ممن كانوا في بيت سويلم ساعة مدهامته وإحراقه، وحتى سويلم اليهودي لم يتخذ الرسول ﷺ ضده أي إجراء سوى حرق بيته.

وكر أخطر: ومع قيام قوى الأمن الإسلامية بإحراق بيت سويلم اليهودي ملتقى المنافقين المتآمرين، فإن هؤلاء المنافقين، لم يكفوا (بأساليبهم الباطنية الخبيثة) عن الدس والتآمر ضد النبي ﷺ وضد أصحابه، بل ظلوا موغلين في النفاق، يتظاهرون بالإسلام وإظهار شعائره كالصلاة، بينما يكيدون له ولنبيه في الخفاء، جاعلين من انتسابهم إلى هذا الدين غطاءً لأعمالهم الإجرامية ومؤامراتهم الخبيثة التي دأبوا على حبكها ضد الإسلام بمختلف الأساليب.

وإذا كان هناك وكرٌ واحدٌ للمنافقين قد اكتشفته قوى الأمن الإسلامية في المدينة، وهدمه الرسول ﷺ قبل أن يتحرك بجيشه من المدينة، وهو بيت سويلم اليهودي فإن هناك وكرًا أخطر وأعظم منه، اكتشفته أجهزة الأمن الإسلامية في المدينة، بعد أن رجع الرسول ﷺ بجيشه من تبوك، فأمر بإحراقه، فتم تدميره، ألا وهو مسجد الضرار الذي جاء ذكره في القرآن الكريم.

فقد بنى المنافقون وكرًا على هيئة مسجد ليتخذوا منه ملتقى للتآمر والدرس ومحاربة الله ورسوله، يأمنون فيه عيون المراقبة، لأنه مسجد وبيت من بيوت الله في ظاهره، وهذا من المنافقين عملية اشد إغراقًا في الخبث والتستر، وقد تم إحراق هذا الوكر الثاني بالنار، كما أحرق بيت سويلم اليهودي، وذلك بعد عودة الرسول ﷺ من تبوك كما سيأتي تفصيله في هذا البحث إن شاء الله.

تكامُل حشد الجيش والترتيبات الإدارية

وبعد أن تكامل حشد الجيش الإسلامي في المدينة وتم تجهيزه تجهيزًا كاملاً بكل ما يحتاجه من سلاح ونقلات من خيل وإبل، بعد التبرعات السخية التي جاد بها كبار أغنياء الصحابة، وشارك فيها مختلف فئات الشعب بمن في ذلك النساء اللواتي كن - بدافع من إيمانهن العميق - يتبرعن ويتصدقن لتجهيز الجيش بحليهن الخاصة.. بعد أن تكامل حشد الجيش هكذا وتم تجهيزه، وبلغ عدده - بعد انسلاخ المنافقين عنه - ثلاثين ألف مقاتل صدرت الأوامر من الرسول الأعظم والقائد الأعلى للقوات المسلحة أن يستعد هذا الجيش للتحرك من المدينة نحو الشمال، وكان الرسول «كما تقدم» أبلغ كل عناصر الجيش قادة وجنودًا بأنه يريد بهم غزو الرومان الذين بلغه أنهم يحتشدون بالقرب من الحدود الشمالية الغربية لجزيرة العرب في منطقة معان، ليقوموا - بمساندة العرب المنتصرة من الحضارمة الكنديين والقضاعيين، واليمانيين الغساسنة المرتبطين بتاج بيزنطا في القسطنطينية - ليشنوا الحرب على جزيرة العرب لحساب الملك هرقل، الذي كان يعيش نشوة انتصاراته الساحقة على كسرى إبرويز الذي هزمه وانتزع منه كل الممتلكات البيزنطية التي كان الفرس قد اغتصبوها في الشام وآسيا الصغرى وأفريقيا.

لم يكن الملك هرقل متحمسًا لمحاربة المسلمين، لأنه (بما لديه من علم راسخ بالإنجيل) يوقن أن من العبث محاربة المسلمين، لأن محمدًا بن عبد الله الهاشمي رسول مؤيد من عند الله، كما يجدون ذلك مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل، وكما أكد هذه الحقيقة للملك هرقل كبير البابوات في رومية «روما» عندما بعث إليه الإمبراطور هرقل يصف له ظهور محمد ﷺ ويسأله ليتأكد ما إذا كان هو النبي العربي المنتظر الذي توجد صفاته وذكره وضرورة ظهوره في التوراة والإنجيل.

وقد رأينا أن هرقل الملك هذا عندما تسلم كتاب الرسول ﷺ الذي يدعوه فيه وشعبه إلى الدخول في الإسلام في السنة الثامنة الهجرية، أخبر مبعوث الرسول ﷺ دحية الكلبي بأن محمداً هو النبي المنتظر الذي يجدونه مكتوباً عندهم في الإنجيل وأكرم دحية غاية الإكرام، واحتفى بكتاب الرسول ﷺ وحاول إقناع رؤساء الدين وكبار القادة في إمبراطوريته بأن يدخلوا جميعاً في الإسلام، لأن أمره سيظهر على كل من يخالفه، وعسكره سيتغلبون على أية قوة عسكرية تعترض سبيلهم مهما كانت، ولكن كبار القساوسة والرهبان والقادة العسكريين رفضوا «جملة وتفصيلاً» نصيحة الإمبراطور هرقل، بل وغضبوا لنصيحته هذه وحاولوا القيام ضده بانقلاب لخلعه، ولكنه بدهائه تمكن من تهدئتهم فسكنوا، وظل على عرش الإمبراطورية حتى شهد وشهدوا، هم التوقعات التي توقعها هذا الملك، حينما سيطرت قوات محمد النبي ﷺ على جميع ممتلكات الإمبراطورية الرومانية فيما وراء البحار «الشام ومصر وشمال أفريقيا» وكان الملك هرقل في السنة الثامنة الهجرية، قد أخبرهم أن ذلك سيحدث إذا لم يستجيبوا لنصحه ويدخلوا في الإسلام^(١).

الملك هرقل هذا: - يبدو - لم يكن متحمساً للدخول في أية مواجهة عسكرية مع الجيش النبوي، لعلمه أن محمداً ﷺ نبي مرسل ومؤيد من عند الله، ولكن يظهر أن كبار السياسيين والقساوسة والقادة العسكريين في جيش الإمبراطورية ضغطوا على الإمبراطور كي يحشد جيوشه على حدود الجزيرة العربية بقصد اقتحامها على المسلمين، وقد فعل مكرها وبدون اقتناع بنجاح هذا الحشد، بدليل أن هذا الملك، لما بلغه وصول الجيش النبوي إلى تبوك القريبة من حدود الشام، فض حشوده وعدل عن فكرة مصادمة المسلمين، وكتب للرسول ﷺ كتاباً رقيقاً مهذباً يعترف فيه «شخصياً» بأن النبي ﷺ هو الرسول المنتظر الذي مر ذكره في الإنجيل، كما سيأتي تفصيله فيما يلي من هذا الكتاب.

أمير المدينة بالنيابة: كان من عادة الرسول ﷺ المتبعة (إدارياً) أنه عندما ينوي القيام بمغادرة المدينة لغزو، أو غير ذلك يترك في العاصمة رجلاً من أصحابه يدير شئونها (حاكماً) وكان الذي خلفه على المدينة في غزوة تبوك هو سباع بن عرفطة الغفاري^(٢).

فقبل تحركه بالجيش من المدينة أصدر ﷺ مرسوماً شفويًا عين بموجبه سباعاً هذا أميراً على المدينة، وسباع هذا ليس من أهل المدينة، بل من قبيلة غفار البدوية الكنانية التي

(١) انظر تفاصيل قصة الملك هرقل في كتابنا السابع (غزوة مؤتة).

(٢) انظر ترجمته فيما مضى من هذه السلسلة.

تقع ديارها «على الأرحح» ناحية بدر بين مكة والمدينة، ولا شك أن في هذا التصرف «من الرسول ﷺ» مغزى من مغازي المساواة التي جاء بها الإسلام وقضى بها على العنصرية والتعصب القبلي الجاهلين فلم يؤمر على أهل المدينة «في حال غيابه» أميراً منهم بل أمر عليهم أميراً بدويًا أهله سابقته في الإسلام لأن يكون أميراً على عاصمة المهاجرين والأنصار.

كذلك خلف الرسول ﷺ ابن عمه علي بن أبي طالب في المدينة، ولم يخلفه أميراً، وإنما خلفه ليتولى العناية بشؤون خاصة بالنبي ﷺ وهي رعاية شئون أهله الأطهار. وقد أرجف المنافقون بعلي، كما هي طريقتهم في الفتنة وإحداث البلبلة - فقالوا: ما خلفه محمد في المدينة إلا استتقالاً له وتخففاً منه، فأثر قول المنافقين الخبيث هذا في نفس أمير المؤمنين علي، فتأذى له إلى درجة أنه لحق برسول الله ﷺ - وهو لا يزال بجيشه معسكرًا على بعد ثلاثة أميال من المدينة - وأخبره بما يذيع المنافقون في المدينة من سيء القول المؤلم، حيث قال علي: يا نبي الله، زعم المنافقون أنك استتقلتني وتخفت مني، فطمأنه الرسول ﷺ بأن هذا القول محض افتراء، ورغب إليه في أن لا يلقي له بالا، وأن يرجع إلى المدينة ليظل في مهمته التي أكلها إليه، حيث قال له: كذبوا، ولكني خلقتك لما تركت ورائي، فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك، أفلا ترضى يا علي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي، فرجع على إلى المدينة، وتجاهل إشاعات وإرجافات المنافقين وبقي في المدينة يرعى شئون أهله وأهل النبي ﷺ حتى عاد الرسول ﷺ من تبوك^(١).

شأن البكائين المؤمنين: وأثناء حشد وتجهيز الجيش النبوي، حدث أمران متباينان، فقد كانت هناك عناصر من أهل المدينة قادرة (جسدياً ومادياً) على المشاركة الحربية في الحملة الضخمة التي تقرر أن يتحرك بها الرسول ﷺ إلى تبوك لغزو الروم، ولكن هذه العناصر تخلفت ولم تشارك في الغزو منتحلة شتى الأعذار الكاذبة، وهذه العناصر هم المنافقون. بينما ظهرت في الجانب الآخر عناصر خيرة طيبة مؤمنة، كانت على عكس المنافقين القادرين المتخلفين، هذه العناصر، كانت تتوق وتتحرق شوقاً إلى مشاركة الرسول ﷺ الغزو، حيث كانت قادرة نفسياً وجسدياً على المشاركة، ولكنها لفقرها لم تكن قادرة مادياً، فليس لديها لا من الإعاشة ولا من وسائل النقل ما يمكنها من الاشتراك في الغزو الذي ندب الرسول ﷺ إليه المسلمين.

(١) مغازي الواقدي ج ٣.

فجاءت هذه العناصر (وهم سبعة رجال) إلى الرسول ﷺ لعلمهم يجدون عنده ما يمكنهم من الاشتراك في الغزو، ولكن الرسول ﷺ - وهو الصادق المصدوق - أبلغهم أنه ليس لديه ما يحقق رغبتهم، فرجعوا يبكون تحسراً على ما سيفوتهم من شرف الجهاد في سبيل الله.

قال ابن إسحاق: ثم أن رجلاً من المسلمين أتوا رسول الله ﷺ ، وهم البكاءون، وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم، وهم من بني عمرو بن عوف: سالم بن عمير^(١) وعلبة بن زيد^(٢) أخو بني حارثة، وأبو ليلي^(٣) ، عبد الرحمن بن كعب أخو بني مازن من بني النجار، وعمرو بن هام بن الجموح^(٤) أخو بني سلمة، وعبد الله بن المغفل المزني^(٥) وهرمي بن عبد الله^(٦) أخو بني واقف وعرباض بن سارية الفزاري^(٧) ، فاستحملوا

(١) هو سالم بن عمير بن ثابت بن النعمان بن أمية بن امرؤ القيس بن ثعلبة بن عمر بن عوف الأنصاري العوفي حضر بيعة العقبة وشهد بدرًا وبقية المشاهد مع رسول الله ﷺ إلا غزوة تبوك هذه لعدم قدرته المادية وهو من البكائين الذين اثني الله تعالى عليهم في القرآن الكريم. توفي سالم في خلافة معاوية.

(٢) هو علبة بن زيد بن صيفي الخزرجي الأنصاري من البكائين الذين تولوا وأعينهم تفيض من الدمع. كما جاء في القرآن. روى عبد المجيد بن أبي عيسى بن جبر قال: لما حض رسول الله ﷺ على الصدقة جاء كل منهم بطاقته، فقال علبة بن زيد ليس عندي ما أتصدق به اللهم إني أتصدق بعرضي على من ناله من خلقك. فقال رسول الله ﷺ: إن الله عز وجل قد قبل صدقتك.

(٣) هو عبد الرحمن بن كعب أبو ليلي من بني مازن من بني النجار قال ابن الأثير شهد بدرًا وهو من أفاضل الصحابة.

(٤) هو عمرو بن الحمام الأنصاري من بني سلمة وقال جعفر المستغفري: يقال: إنه استشهد يوم أحد ودفن هو وعبد الله بن عمرو أبو جابر في قبر واحد وسمي قبر الأخوين، وكانا متصافيين. قال أبو موسى: الذي دفن مع عبد الله إنما هو عمرو بن الجموح. قال ابن الأثير في أسد الغابة وهو الصحيح وما عداه ليس بشيء.

(٥) هو عبد الله بن مغفل بن عبد غنم وقيل: عبد نهم، المزني من بني أد بن طابخة ويكنى أبا سعيد، حضر الحديبية وهو من أصحاب الشجرة، كان من سكان بادية مزينة، ومزينة قبيلة بأسلة مباركة لها مواقف رائعة مشرفة في الإسلام فهي التي بمساندة النعمان بن مقرن وقيادة الخليفة الصديق شاركت مشاركة فعالة في حماية المدينة من احتلال المرتدين العرب (طليحة بن خويلد وعيينة بن حصن وقومهما).. سكن عبد الله بن مغفل المدينة ثم تحول إلى البصرة، وهو أول من دخل باب مدينة (تستر) في فارس لما فتحها المسلمون. كان من رواة الحديث.. روى عنه الحسن البصري وأبو العالية ومطرف، ويزيد ابنا عبد الله بن الشخير وعقبة بن صهبان وأبو الوازع ومعاوية بن قره وحميد بن هلال وغيرهم.. توفي سنة تسع وخمسين وقيل سنة ستين هـ بالبصرة أيام إمارة عبيد الله بن زياد.

(٦) هو هرمي بن عبد الله بن رفاعة الأوسي الأنصاري الواقفي. كان من السابقين في الإسلام شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ إلا تبوك.

(٧) هو العرباض بن سارية من بني سليم، روى عنه خلق كثير من التابعين، وهو الذي روى عن رسول الله ﷺ الحديث المشهور: (قال وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب). فقال رجل يا رسول الله: هذه موعظة مودع، فما تعهد إلينا؟ قال: أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن كان عبداً حبشياً، فإنه من يعيش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، وإياكم ومحدثات الأمور فإنها ضلالة، فمن أدرك ذلك منكم فعليه بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين، عضواً عليها بالنواجذ، توفي العرباض سنة خمس وسبعين.

(أي طلبوا ما يحملهم عليه) وكانوا أهل حاجة، فقالك لا أجد ما أحملكم عليه، فتولوا، أعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون.

وقد عذر الله هؤلاء الرجال الطيبين واثني عليهم في قرآن أنزله فقال تعالى:

﴿ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴾ «التوبة: ٩٢».

﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَعِذُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ «التوبة: ٩٣».

الفصل الثالث

الجيش النبوي يتحرك نحو الشمال.

شأن البكّائين الذين عذرهم الرسول ﷺ.

شأن الثلاثة الذين خُلّفوا عن الجيش النبوي.

أعمال المنافقين المشينة داخل الجيش.

مرور الجيش بديار ثمود والنهي عن دخولها.

وصول النبي ﷺ بالجيش إلى تبوك.

عدم وجود أي أثر للرومان على الحدود.

النبي يخطب كخطبة حجة الوداع.

كان الرسول ﷺ من عادته أن يأمر بأن يعسكر الجيش بناحية الجرف شمالي المدينة وخاصة إذا كان يريد الشمال، وقد أقام معسكره بالجرف حتى تكامل حشد الجيش وتم تجهيزه وهو (بعد انسلاخ الرتل الخامس من المنافقين عنه) ثلاثون ألفاً، فيهم أيضاً قليل من عناصر النفاق، بقوا في الجيش بقصد الإرجاف، بل وحاولوا اغتيال الرسول ﷺ وهو عائد من تبوك منتصراً، كما سيأتي تفصيله في محله من هذا الكتاب.

وبعد أن تكامل حشد الجيش في الجرف، عين قادته وحملة الرايات والألوية، وكان أبرز القادة من حملة الرايات والألوية أربعة وهم:

١- أبو بكر الصديق وأعطاه الرسول ﷺ لواءه الأعظم، وهذا يعني أن أبا بكر كان بعد رسول الله ﷺ يحمل أعلى رتبة عسكرية في الجيش.

٢- الزبير بن العوام، ودفع إليه الرسول ﷺ رايته العظمى، وهذا يعني أن الزبير يأتي في الرتبة العسكرية بعد أبي بكر الصديق؛ لأن اللواء أعظم من الراية.

٣- وبعدهما يأتي في مرتبته العسكرية في الجيش أسيد بن حضير الذي دفع إليه الرسول ﷺ راية الأوس.

٤- أبو دجانة، سماك بن خرشه، بطل أحد المشهور^(١) أعطاه الرسول ﷺ راية الخزرج، وهم في العدد (دائماً) أكثر من الأوس.

(١) مغازي الواقدي ج ٣ ص ١٠٠٣.

٥- زيد بن ثابت - وكان شاباً - أعطاه الرسول راية بني مالك بن النجار من الخزرج، وهي تعتبر راية ثانية بالنسبة للراية التي يحملها أبو دجانة. وكان الرسول ﷺ قد أعطى راية بني النجار عمارة بني حزم، ثم أخذها منه وأعطاهها زيد بن ثابت، فقال عمارة: يا رسول الله لعلك وجدت علي (أي غضبت)؟. قال: لا والله، ولكن قدموا القرآن، وكان (أي زيد) أكثر أخذًا للقرآن منك، والقرآن يقدم وإن كان عبدًا مجددًا.

ولم يذكر أحد من المؤرخين التفاصيل الوافية عن أمراء الكتائب وحملة الرايات الفرعية من المهاجرين والأنصار وبقية القبائل، كما فعلوا في فتح مكة.

غير أن هؤلاء المؤرخين ذكروا أن الرسول ﷺ - عند تعبئة الجيش - اتبع تقريباً، في التعبئة نفس الطريقة التي اتبعها عند تعبئة الجيش في قديد وهو في طريقه إلى مكة.

فقد ذكر هؤلاء المؤرخون أن الرسول ﷺ - عند تعبئة الجيش وتنسيق قواته - أمر كل بطن من الأنصار أن يتخذوا لواءً وراية، والقبائل من العرب فيها الرايات والألوية، وأمر الأوس والخزرج أن يحمل راياتهم أكثرهم أخذًا للقرآن، وكان أبو زيد يحمل راية بني عمرو بن عوف، وكان معاذ بن جبل^(١) يحمل راية بني سلمة^(٢).

سلاح الفرسان في الجيش : كان سلاح الفرسان في ذلك العصر، هو أقوى سلاح يعتمد عليه المحارب وخاصة العرب، لأن الخيل أهم وسيلة لحرب الصاعقة التي لا يجيد العرب البدو مثلها؛ لأنهم نشأوا عليها، وكانت بلادهم الصحراوية الواسعة أصلح مكان لتربية الخيل والتدريب على متونها لحرب الصعقة، وكان سلاح الفرسان من حيث أهميته في ذلك العصر، يمكن تشبيهه (في هذا العصر) بسلاح المدرعات، لأن المحاربين دائماً في ذلك العصر يستخدمون سلاح الفرسان في المقدمة تماماً كالمدرعات اليوم.

ولأهمية الحملة التي سيقوم بها النبي ﷺ ولكونه عازماً على مواجهة قوات إمبراطورية تملك من الإمكانيات العسكرية على مختلف المستويات الشيء العظيم، حرص على أن يكون سلاح الفرسان في جيشه سلاحاً قوياً وهذا هو الذي تحقق، فقد كان ثلث

(١) انظر ترجمته في كتابنا (غزوة حنين).

(٢) مغازي الواقدي ج ٣ ص ١٠٠٣.

الجيش من الفرسان، والبقية من الهجانة (راكبي الإبل)، والإبل لها أهميتها في حرب الصاعقة التي لا يفزع الرومان والفرس شيء مثلها، إلا أن الإبل تأتي - بعد الخيل - في المرتبة الثانية، فهي من حيث القوة والفعالية في القتال تشبه نصف المجنزرة بالنسبة للدبابة، إذا استثنينا تفوق الخيل على الجمال في سرعة الحركة والقدرة على قفز الخنادق وتسلق التلال والانحدار منها أثناء القتال، وجيش ثلثه من الفرسان، هو بالنسبة للمسلمين أبناء الصحراء يدل على تطور عظيم في تسليح الجيش النبوي، يجعله - عند التحرك إلى تبوك - في مصاف جيوش فارس والروم.

فإذا ما رجعنا إلى الوراة قليلاً، وجدنا أن المسلمين في أول معركة خاضوها وهي معركة بدر الكبرى في السنة الثانية من الهجرة، ليس معهم سوى فرس واحد أو فرسان كما أنه لم يكن لديهم من سلاح الفرسان يوم أحد سوى فرس واحد.

وأعظم مجموعة من سلاح الفرسان تتكون في العهد النبوي - قبل تبوك - المجموعة التي كانت في فتح مكة وغزوة حنين، هي ألفان وأربعمائة وثمانون فارساً، وذلك في السنة الثامنة للهجرة، ولا شك أن التطور في سلاح الفرسان في الجيش النبوي كان سريعاً - ولعل ذلك راجع إلى دخول كثير من أبناء البادية في الإسلام الذين لا يحرصون على شيء مثل حرصهم على اقتناء الخيل - فبعد أقل من سنة تطور سلاح الفرسان في الجيش النبوي (إذن) من ألفين وأربعمائة وثمانين فارساً إلى عشرة آلاف فارس، حيث كان فتح مكة وغزوة حنين في السنة الثامنة الهجرية وغزوة تبوك في السنة التاسعة.

قال الواقدي في مغازيه ج ٣ ص ١٠٠٢: قالوا: وكان مع رسول الله ﷺ ثلاثين ألفاً، ومن الخيل عشرة آلاف فرس.

وقد استفاد الرسول ﷺ كثيراً من سلاح الفرسان في غزوة تبوك، حيث استخدم هذا السلاح السريع الحركة في الحرب التي تتطلب قطع مسافات بعيدة فعندما كان في تبوك وبعد أن حققت الحملة الضخمة أهدافها، بعث الرسول ﷺ القائد خالد بن الوليد لإخضاع مملكة دومة الجندل في أربعمائة مقاتل كلهم من الفرسان، وقد تغلبوا على قوات ملك دومة الجندل الأكيدر وأسروا هذا الملك كما سيأتي تفصيله في حينه.

وقبل تحرك الجيش على تبوك، أصدر الرسول ﷺ أمراً منع بموجبه اشتراك أي إنسان معه في هذه الغزوة التاريخية مالم يكن مجهزاً تجهيزاً كاملاً بكل ما يحتاجه للقتال من سلاح

وإعاشة ووسيلة نقل من خيل أو جمل، وذلك لبعد المسافة وشدة الحر، فقد ذكر أصحاب السير والمغازي أن النبي ﷺ قال: لا يخرج معنا إلا مقو (أي ذو قوّة) فخرج رجل على بكر صعب، فصرعه، فقال الناس: الشهيد، الشهيد، فبعث رسول الله ﷺ منادياً ينادي: لا يدخل الجنة إلا مؤمن - أو إلا نفس مؤمنة - ولا يدخل الجنة عاص، وكان الرجل طرحه بعيره بالسويداء.

وهكذا وفي شهر رجب من السنة التاسعة للهجرة فصل الرسول ﷺ من المدينة في اتجاه تبوك بجيشه البالغ ثلاثين ألف مقاتل، وفشلت كل محاولات المنافقين التي بذلوها لتمزيق وحدة هذا الجيش وتفريق كلمته كي يفشل الغزو الذي هو أضخم عمل عسكري يقوم به الرسول ﷺ في حياته من حيث كثرة العدد وأهمية الأهداف التي حققها هذا الغزو، وهو إرهاب الإمبراطورية الرومانية التي تعتبر آنذاك - وبعد انتصارها على إمبراطورية الفرس - أعظم قوة في العالم، حيث سحبت هذه الإمبراطورية وحداتها العسكرية الضخمة التي كانت قد حشدتها على حدود جزيرة العرب عند تبوك، وذلك بمجرد علمها بوصول الجيش النبوي إلى تبوك.

الأربعة المؤمنة المتخلفون عن رسول الله ﷺ: لم يتخلف أحد من المسلمين الصادقين عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك من غير عذر، سوى أربعة نفر، كلهم من الأنصار، لا عن شك وارتياب، وإنما أدركهم الضعف البشري وأثر عليهم أكثر من غيرهم، وهؤلاء هم: كعب بن مالك^(١)، وهلال بن أمية^(٢)، ومرارة بن الربيع^(٣)، وأبو خيثمة.

أما أبو خيثمة فقد تغلب على ضعفه البشري أمام مغريات الحياة، فسارع إلى اللحاق برسول الله ﷺ، وأما الثلاثة الآخرون، فقد تخلفوا في المدينة وقعد بهم الضعف البشري، يقولون كل يوم نلحق بالرسول ﷺ حتى انتهت مهمة الرسول في تبوك وعاد إلى المدينة، فأمر المسلمين أن يقاطعوهم كتأديب لهم، لأنهم تخلفوا عن الجيش والتجنيد فيه إجباري،

(١) انظر ترجمته في كتابنا «غزوة بدر الكبرى».

(٢) هو هلال بن أمية بن عامر بن قيس بن عبد الأعمى الأوسي الأنصاري شهد بدرًا وأحدًا كان قديم الإسلام، كان يكسر أصنام بني واقف وكانت من رأيهم يوم الفتح.

(٣) هو مرارة بن الربيع بن ربيعي بن عدي بن زيد الأوسي الأنصاري شهد بدرًا.

وظل المسلمون لا يكلمون الثلاثة حتى لا قوا من العذاب النفسي المدمر ما الله به عليم وذلك تمحيص لهم وبقوا هكذا نيفاً وخمسين ليلة حتى نزل القرآن يعلن توبتهم، لأن لم تكن هناك أية شائبة تشوب إيمانهم وإسلامهم في أية ناحية، ولكن الإنسان خطاء والله يقبل التوبة عن عباده، وسنأتي على قصة هؤلاء الثلاثة المخلفين الكرام فيما يأتي من فصول هذا الكتاب إن شاء الله.

أما أبو خيثمة الذي هزم نفسه الأمانة بالسوء وسحق مقاومة الضعف البشري في نفسه، فلنتركه هو، يحدثنا عن قصته الشيقة فيها عبر كثيرة، ففيها أن كل إنسان - حتى خيار الناس من الصحابة - يمسك الشيطان بمقوده، ولكن المهم كيف يتمكن المؤمن انتزاع مقوده من الشيطان بعد أن أمسك به كما فعل أبو خيثمة الذي تغلبت قوة وجدانه الإسلامي على ضعفه الإنساني البشري، فترك الشيطان - بعد أن ظفر به - يتميز من الغيظ.

كان أبو خيثمة مؤمناً لا يتهم في إسلامه ولا يغمص عليه، فرجع بعد أن سار رسول الله ﷺ عشرة أيام حتى دخل على امرأتين له في يوم حار، فوجدتهما في عريشين لهما، قد رشت كل واحدة منهما عريشها وبردت له فيه ماء، وهيات له فيه طعاماً، فلما انتهى إليهما قام على العريشين فقال سبحان الله، رسول الله ﷺ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، في الضح (بكسر أوله، والضح ضوء الشمس إذا استمكن من الأرض) والريح والحر يحمل سلاحه على عنقه، وأبو خيثمة في ظلال بارد وطعام مهياً وامرأتين حسناوين، مقيم في ماله، ما هذا بالنصف، ثم قال: والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى أخرج فألق برسول الله ﷺ. فأناخ ناضحه^(١) وشد عليه قته وتزود وارتحل، فجعلت امرأته يكلمانه ولا يكلمهما، حتى أدرك عمير بن وهب الجمحي^(٢) بوادي القرى يريد النبي ﷺ، فصحبه فترافقا، حتى إذا دنوا من تبوك قال أبو خيثمة: يا عمير إن لي ذنباً، وأنت لا ذنب لك فلا عليك أن تخلف عني حتى آتي رسول الله ﷺ قبلك، ففعل عمير، فسار أبو خيثمة حتى إذا دنا من رسول الله ﷺ - نازل بتبوك -

(١) الناضح الجمل المعد للركوب.

(٢) انظر ترجمة عمير بن وهب الجمحي في كتابنا (غزوة بدر).

قال الناس: هذا راكب الطريق، قال رسول الله ﷺ: كن أبا خيثمة. فقال الناس: يا رسول الله، هذا أبو خيثمة، فلما أقبل فسلم على النبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: أولى لك يا أبا خيثمة، ثم أخبر رسول الله ﷺ الخبر، فقال له رسول الله ﷺ خيراً ودعا له. وكان فيمن تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ثم لحق به، أبو ذر الغفاري^(١) وذلك بسبب ضعف بعيره الذي كان يركبهن والذي - لهزاله - عجز عن المشي، فتركه ولحق (مشياً على الأقدام) برسول الله ﷺ.

فقد قال الواقدي: وكان أبو ذر يقول: أبطأت في غزوة تبوك من أجل بعيري، كان نضوا^(٢) أعجف، فقلت أعلفه أياماً ثم ألحق برسول الله ﷺ فعلفته أياماً ثم خرجت، فلما كنت بذي المروة^(٣) (قرية بوادي القرى) عجز، فتلومت عليه يوماً، فلم أر به حركة، فأخذت متاعي فحملته على ظهري ثم خرجت أتبع رسول الله ﷺ ماشياً في حر شديد، وقد تقطع الناس فلا أرى أحداً يلحقنا من المسلمين، فطلعت على رسول الله ﷺ نصف النهار وقد بلغ مني العطش، فنظر ناظر من الطريق فقال: يا رسول الله، إن هذا الرجل يمشي على الطريق وحده، فجعل رسول الله ﷺ يقول: كن أبا ذر، فلما تأملني القوم قالوا: يا رسول الله، هذا أبو ذر، فقام رسول الله ﷺ حتى دنوت منه فقال: مرحباً بأبي ذر، يمشي وحده ويموت وحده، ويبعث وحده فقال: ما خلفك يا أبا ذر؟ فأخبره خبر بعيره، ثم قال: إن كنت لمن أعز أهلي على تخلفاً، لقد غفر الله لك يا أبا ذر بكل خطوة ذنباً إلى أن بلغتني، ووضع متاعه عن ظهره ثم استسقى، فأتى بإناء من ماء فشربه^(٤).

الطريق الذي سلكه الرسول إلى تبوك: تقع تبوك - التي هي هدف الرسول ﷺ من التحرك - شمال المدينة، في الركن الشمالي الغربي من جزيرة العرب، فهي على حدود الشام الجنوبية، وتقع اليوم جنوب غربي المملكة الأردنية الهاشمية. وتبعد تبوك عن المدينة حوالي ستمائة ميل أي ما يقارب تسعمائة كيلو متراً.

(١) انظر ترجمة أبي ذر في كتابنا (صلح الحديدية).

(٢) قال في النهاية: النضو (بكسر النون) الدابة التي أهزلتها الأسفار وأهبت لحمها.

(٣) ذو المروة: قرية بوادي القرى الشهير.

(٤) مغازي الواقدي ج ٣ ص ١٠٠٠.

فكان من البديهي أن ينطلق الرسول ﷺ بجيشه من شمال المدينة، فقد عسكر في الجرف الواقع على بعد ثلاثة أميال شمال المدينة غربي أحد ومن هناك بدا التحرك بجيشه نحو الشمال.

وكان أول منزل نزله بجيشه - بعد الجرف - ذا خشب^(١)، ويظهر أن الرسول ﷺ كان في رحلته هذه يسير الليل ويستريح النهار، وقد يكون ذلك راجعاً إلى شدة حرارة الشمس، فقد ذكر المؤرخون أن الرسول ﷺ في تحركه الأول صبح ذا خشب، وهي مكان - كما قال ياقوت في معجمه - تبعد مسافة ليلة عن المدينة.

ومنذ نزل الرسول ﷺ ذا خشب، وهو يجمع بين الظهر والعصر في منزله، يؤخر الظهر حتى يبرد (بضم الياء) ويعجل العصر، ثم يجمع بينهما، وكان يفعل فعله ذلك حتى رجع من تبوك.

ولم يذكر المؤرخون بالتفصيل والترتيب المنازل التي نزلها فبات أو برد فيها وهو في طريقه إلى تبوك، غير أنه من معرفة أسماء المساجد التي أحصاها المؤرخون والتي صلى فيها الرسول ﷺ ونسبها إليه وعددها خمسة عشر مسجداً يمكن معرفة أسماء المنازل التي استراح أو بات فيها ﷺ.

فقد ذكر أصحاب السير أن مساجده في سفره إلى تبوك معروفة وهي:

١- مسجد صلى فيه تحت الدومة بذي خشب.

٢- مسجده في الفيفاء^(٢).

٣- مسجد في المروة^(٣).

٤- مسجد بالسقيا^(٤).

(١) ذو خشب (بضم أوله وثانيه) قال ياقوت: واد على مسيرة ليلة من المدينة، والخشب أيضاً من أودية العالية باليمامة، وهو الخشن الغليظ من الجبال، ويقال: هو الذي يرتقي فيه.

(٢) الفيفاء بفتح أوله: هو مكان في نواحي وادي العقيق والفيفاء اسم لعدة مواضع.

(٣) تقدم أن المروة: قرية بوادي القرى.

(٤) قال ياقوت: السقيا قرية جامعة من عمل الفرع بينهما مما يلي الجحفة تسعة عشر ميلاً، قلت وهذه إنما تقع في الجنوب بين مكة والمدينة، والسقيا المذكورة هنا لا شك أنها شمال المدينة، ولم أر أحداً من أصحاب المعاجم حددها.

- ٥- مسجد بوادي القرى^(١).
- ٦- مسجد بالحجر^(٢).
- ٧- مسجد بذنب حوصاء^(٣).
- ٨- مسجد بذني الجيفة^(٤).
- ٩- مسجد بشق تاراء مما يلي جوبر^(٥).
- ١٠- مسجد بذات الخطمي^(٦).
- ١١- مسجد بسمنة^(٧).
- ١٢- مسجد بالأخضر^(٨).
- ١٣- مسجد بذات الزراب^(٩).
- ١٤- مسجد بالمدران.
- ١٥- مسجد بتبوك.

وفي أيام التحرك إلى تبوك، صدرت من الرسول ﷺ تصرفات، وصدرت منه تصريحات صارت تشريعاً، اتخذها فقهاء السنة ودونوه في مؤلفاتهم ليعمل به، من ذلك:

١- جواز تأخير صلاة الظهر في أوقات الحر الشديد حتى يبرد الجو، وهذا أمر جائز وقد يكون سنة، والشافعية (فيما أعتقد) يعتبرون هذا سنة، وذلك أن الرسول كان (كما في غزوة تبوك) يؤخر الظهر حتى يبرد، ويعجل العصر، ثم يجمع بينهما، وكان من سنته الفعلية ﷺ أنه إذا كان على سفر، يجمع بين الظهر والعصر وبين المغرب والعشاء، جمع تقديم إذا أدركه الظهر أو المغرب وهو نازل، أما إذا أدركه أحدهما بعد أن يتحرك في سفره فإنه يؤخر الظهر والمغرب ثم يجمع الظهر مع العصر والمغرب مع العشاء جمع تأخير.

- (١) انظر أوسع التفاصيل عن وادي القرى في كتابنا (غزوة خيبر).
- (٢) الحجر (بكسر الحاء) هنا هو - كمال الأصطخري - مكان في وادي القرى.
- (٣) لم أر أحداً من أصحاب المعاجم حدد مكانه.
- (٤) قال ياقوت: هو مكان بين المدينة وتبوك ولم يزد على هذا شيئاً.
- (٥) لم أر أحداً من أصحاب المعاجم حدد مكانه.
- (٦) ذات الخطمي (بكسر الحاء) قال ياقوت: موضع فيه مسجد لرسول الله ﷺ، ولم يحدد مكانه.
- (٧) سمنة (بضم أوله وسكون ثانيه) قال ياقوت: ماء بين المدينة والشام.
- (٨) لم يحدد أحد من المختصين مكانه.
- (٩) لم يحدد المختصون مكانه.

٢- روى أن النبي ﷺ بينما كان في مسيره مرّ على بعير من العسكر، قد تركه صاحبه من العجف والضعف فمرّ به مارّ، فأقام عليه وعلفه أياماً، ثم حوله إلى منزله، فصلح البعير فسافر عليه، فرآه صاحبه الأول، فاختصما إلى النبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ من أحبى خفاً (أي جملاً) أو كراعاً (أي خيلاً) بمهلكة من الأرض فهو له^(١).

المنافقون في الجيش: ورغم انسلاخ عبد الله بن أبيّ وجماعة من المنافقين عن الجيش قبل أن يترك المدينة، فقد بقيت عناصر من المنافقين داخل هذا الجيش، خرجوا مع رسول الله ﷺ، لم يخرجوا إلا بقصد المشاركة في الغنيمة، وبقصد التخريب والإرجاف وإحداث التشويش بين مختلف وحدات الجيش، بل وبقصد اغتيال الرسول ﷺ حيث قاموا بمحاولة الاغتيال هذه فعلاً، كما سيأتي تفصيله فيما يلي من هذا الكتاب.

قال الواقدي: ولما مضى رسول الله ﷺ من ثنية الوداع سائراً، فجعل يتخلف عنه الرجال فيقولون: يا رسول الله، تخلف فلان، فيقول: دعوه، فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه، فخرج معه ناس من المنافقين كثير، لم يخرجوا إلا رجاء الغنيمة^(٢).

وذكر أصحاب المغازي والسير أن رسول الله ﷺ سأل أبا رهم الغفاري^(٣) عن جماعة من الأعراب قد تخلفوا في باديتهم عن غزوة تبوك، مع سماعهم دعوة الاستنفار العام للجهاد وقدرتهم على الغزو، فقد روى الواقدي أن أبا رهم الغفاري قد بايع النبي ﷺ تحت الشجرة في الحديبية، فقال أبو رهم غزوت مع رسول الله ﷺ تبوكاً. قال: فسرت ذات ليلة معه ونحن بأخضر، وأنا قريب من رسول الله ﷺ وألقى على النعاس، فطفقت أستيقظ وقد دنت راحلتي من راحلة رسول الله ﷺ فيفزعني دنوها منه خشية أن أصيب رجله في الغرز، فطفقت أحوز راحلتي وغلبتني عينا في بعض الطريق، وبينما نحن في بعض الليل، زاحمت راحلتي راحلته، ورجله في الغرز، فما استيقظت إلا بقوله: حس

(١) مغازي الواقدي، ج ٣ ص ١٠٠٢.

(٢) مغازي الواقدي، ج ٣ ص ١٠٠٠.

(٣) اسم أبو رهم كلثوم بن حصين وهو من غفار، من مشاهير الصحابة، ولكنه لم يشهد بدرًا ولا أحدًا، وكان ممن بايع تحت الشجرة في الحديبية، ولاه الرسول ﷺ إمارة المدينة في حال غيابه مرتين، مرة في عمرة القضاء، ومرة في عام الفتح، وكان يسكن المدينة.

(بكسر الحاء) - كلمة تقولها العرب عند الألم - فقلت: يا رسول الله استغفر لي. فقال ﷺ: سر، فجعل يسألني عنم تخلف من بني غفار فأخبره بهم، وهو يسألني ما فعل النفر الحمر النطانط^(١)، فحدثته بتخلفهم. قال: فما فعل النفر السود القصار الجعاد الحلس^(٢)، فقلت: يا رسول الله والله يا رسول الله ما أعرف هؤلاء. قال: بلى، الذين هم بشبكة شدخ^(٣). قال: فتذكرتهم في بني غفار فلا أذكرهم، ذكرت أنهم رهط من أسلم كانوا فينا، وكانوا يملّون بشبكة شدخ، لهم نعم كثير، فقلت: يا رسول الله، أولئك رهط من أسلم حلفاء لنا. فقال رسول الله ﷺ: ما منع أحد أولئك حين تخلف أن يحمل بعيراً من إبله رجلاً نشيطاً في سبيل الله ممن يخرج معنا؟ فيكون له مثل أجر الخارج، إن كان لمن أعز أهلي عليّ أن تخلف عني المهاجرون من قريش والأنصار وغفار وأسلم^(٤).

أذركُ القوم فإنهم قد احترقوا : كلمة قالها الرسول الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ، عندما بلغه ما فاه به المنافقون والجيش يتحرك نحو تبوك، فقد كانت (كما تقدم) عناصر من فئة عبد الله بن أبي المنافقين منخرطين في سلك الجيش النبوي، وقد واكبت هذه العناصر الجيش وكانت تحسب ضمن وحداته حتى عاد من تبوك.

هذه العناصر المشبوهة المدسوسة بين مختلف فصائل الجيش، كانت - والجيش في طريقه إلى تبوك - تقوم بدور السخرية بقيادة المسلمين وفضلاء المهاجرين والأنصار وتذيع نشرات شفووية بين صفوف الجيش عن عظمة وقوة الجيش الروماني فتصور في نشراتها هذا الجيش الروماني وكأنه جيش لا يقهر، حتى يبدوون وكأن هذه العناصر المنافقة المشبوهة جهاز استخبارات سرى مكلف من قبل قيادة الرومان بإذاعة ما تذيعه عن عظمة الجيش الروماني، كما أن هذه العناصر المدسوسة، تحاول بما تذييع من إرجاف، إضعاف ثقة الجيش الإسلامي في نفسه، وذلك بقصد إحلال روح الهزيمة محل هذه الثقة التي يمتا بها جيش الإسلام دائماً.

(١) النطانط، جمع نطانط، وهو الطويل المديد القامة.

(٢) الحلس جمع أحلس وهو الذي لونه بين السواد والحمرة

(٣) شبكة شدخ اسم مكان، وفي السهيلي بشبكة شرح

(٤) مغازي الواقدي ج ٣ ص ١٠٠٢.

فقد ذكر أصحاب الحديث والمغازي ذلك، فقالوا: كان رهط من المنافقين يسيرون مع النبي ﷺ في تبوك، منهم ودیعة بن ثابت، أحد بني عمرو بن عوف، والجلاس بن سويد بن الصامت، ومخشى بن حمير من أشجع، حليف لبني سلمة، وثعلبة بن حاطب. فقال: تحسبون قتال بني الأصفر كقتال غيرهم؟ والله لكأنا بكم غداً مقرنين في الجبال - إرجافاً برسول الله ﷺ وترهيباً للمسلمين - وقال ودیعة بن ثابت - مستهزئاً بخيرة أصحاب الرسول ﷺ - : مالي أرى قرأنا هؤلاء أو عبنا بطوناً وأكذبنا ألسنة، وأجبنا عند اللقاء؟ وقال الجللاس بن سويد، وكان زوج أم عمير، وكان ابنها عمير يتيمًا في حجره: هؤلاء سادتنا وأشرفنا وأهل الفضل منا، والله لئن كان محمد صادقاً لنحن شر من الحمير، فقال له عمير: أنت والله شر من الحمار، ورسول الله ﷺ الصادق وأنت الكاذب والله لوددت أني أقاضي على أن يضرب كل رجل منا مائة جلدة وأنا نفلت من أن ينزل فينا القرآن بمقاتلكم.

فقال رسول الله ﷺ وسلم لعمار بن ياسر: أدرك القوم فإنهم قد احترقوا، فسلمهم عما قالوا، فإن أنكروا فقل: بلى، قد قلت كذا وكذا، فذهب إليهم عمار فقال لهم: فأتوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه. فقال ودیعة بن ثابت، ورسول الله ﷺ على ناقته، - وقد أخذ بحقب ناقة النبي ﷺ ورجلاه تنسفان الحجارة وهو يقول - : يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب، ولم يلتفت إليه رسول الله ﷺ، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآبِآيِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَآئِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾^(١).

قالوا: ورد عمير على الجللاس ما قال - حين قال: لنحن شر من الحمير - قال: فأتت شر من الحمار، ورسول الله ﷺ الصادق وأنت الكاذب.

وجاء الجللاس إلى النبي ﷺ فحلف ما قال من ذلك شيئاً، فأنزل الله عز وجل على نبيه: ﴿تَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكْ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾^(٢).

وكان للجللاس دية في الجاهلية على بعض قومه وكان محتاجاً، فلما قدم رسول

(١) التوبة آية ٦٥ - ٦٦.

(٢) التوبة آية ٧٤.

الله ﷺ أخذها له فاستغنى بها.

توبة مخشى بن حمير: وقال مخشى بن حمير: قد والله يا رسول الله قعد بي اسمى واسم أبي، فكان الذي عفى عنه في هذه الآية مخشى بن حمير، فسماه رسول الله ﷺ عبد الرحمن أو عبد الله، وسأل الله عز وجل أن يقتل شهيداً ولا يعلم بمكانه، فقتل يوم اليمامة فلم يوجد له أثر.

ويقال في الجلاس بن سويد: إنه كان ممن تخلف من المنافقين في غزوة تبوك، فكان يثبط الناس عن الخروج، وكانت أم عمير تحته، وكان عمير يتيمًا في حجره ولا مال له، فكان يكفله ويحسن إليه، فسمعه وهو يقول: والله لئن كان محمد صادقًا لنحن شر من الحمير، فقال له عمير: يا جلاس، قد كنت أحب الناس إلى، وأحسنهم عندي أثراً، وأعزهم عليّ أن يدخل عليه شيء نكرهه، والله، لقد قلت مقالة لئن ذكرتها لتفضحنك، ولئن كتمتها لأهلكن، وإحداهما أهون على من الأخرى، فذكر للنبي ﷺ مقالة الجلاس، وكان رسول الله ﷺ قد أعطى الجلاس مالا من الصدقة لحاجته وكان فقيراً، فبعث النبي ﷺ إلى الجلاس فسأله عما قال عمير، فحلف بالله ما تكلم به قط، وأن عميراً لكاذب - وهو عمير بن سعيد - وهو حاضر عند النبي ﷺ، فقام وهو يقول: اللهم أنزل على رسولك بيان ما تكلمت به، فأنزل الله على نبيه: ﴿ تَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ أُغْنِيَهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ للصدقة التي أعطها النبي ﷺ، فقال الجلاس: أسمع، الله قد عرض على التوبة، والله لقد قلت ما قال عمير، ولما اعترف بذنبه وحسنت توبته ولم يمتنع عن خير كان يصنعه إلى عمير بن سعيد، فكان ذلك مما عرفت به توبته^(١).

المرور بديار ثمود والنهي عن الشرب من بئرها: وكما هي سياسة الرسول صلى الله عليه وسلم الحكيمة لم يتخذ أي إجراء ضد عناصر النفاق لكلام التثبيط والكفر والاستهزاء الذي فاهوا به، مع أن القرآن الكريم أدانهم بذلك بعد إنكارهم. واستمر الرسول ﷺ في تحركه نحو تبوك، وأثناء التحرك مر بوادي القرى ذي المزارع

(١) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ١٦٨، ومغازي الواقدي ج ٣ ص ١٠٠٣ و ١٠٠٤ و ١٠٠٥، والسيرة الحلبية ج ٢،

الشهيرة والمناخ الجميل، والذي قال فيه الشاعر :

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة
بوادي القرى إني إذن لسعيد
كما مر بالحجر^(١) من ديار ثمود (قوم صالح) وهناك نهى الجيش أن يشرب أحد أو
يتوضأ من البئر التي كانت ثمود تستقي منها.

وكان ثمود جيل من طغاة البشر عصوا الله وتحذوا رسوله صالح بعد أن كذبوه،
وقد جاء ذكر قصتهم وقصة ناقة نبيهم صالح في القرآن، وكانوا قد عقروا هذه الناقة
عصياناً وتحدياً لأمر الله تعالى فحل بهم العذاب العاجل حيث أبادهم الله تعالى بالرجفة.
فقد جاء في كتب التاريخ والسير أن الرسول ﷺ لما أمسى بالحجر من ديار ثمود،
قال: أنها ستهب الليلة ريح شديدة فلا يقوم أحد منكم إلا مع صاحبه، ومن كان له
بعير فليوثق عقله. وحدث ما حذر النبي ﷺ منه أصحابه، حيث هاجت ريح شديدة
عاصفة، وكما هي تعليمات الرسول القائد ﷺ لم يبق أحد إلا مع صاحبه، إلا رجلين من
الأنصار من بني ساعدة، خرج أحدهما منفرداً لحاجته، وخرج الآخر منفرداً أيضاً في
طلب بعيره.

أما الذي خرج لحاجته فقد أصيب بنوبة خنق شديدة، وأما الذي ذهب في طلب
بعيره فقد احتملته الريح حتى قذفت به في جبلي طيب، فلما أخبر الرسول ﷺ بما حدث
للرجلين قال: ألم أنهكم أن لا يخرج رجل إلا ومعه صاحب له، ثم دعا بالذي أصيب
بالخنق، فشفي مما ألم به، وأما الآخر الذي وقع بجبلي طيب فإن طيئاً أعادته إلى النبي ﷺ
حينما عاد من تبوك إلى المدينة^(٢).

(١) الحجر (بكسر الحاء وسكون الجيم) قال ياقوت في معجمه : اسم ديار ثمود بوادي القرى بين المدينة
والشام، وقال الاصطخري: الحجر قرية صغيرة قليلة السكان، وهو من وادي القرى على يوم بين جبال..
وبها كانت منازل ثمود، قال تعالى: ﴿وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين﴾ قال: ورأيتها بيوتاً مثل بيوتنا في
أضعاف جبال، وتسمى الجبال الأثالث، وهي جبال إذا رآها الرائي من بعد ظنها متصله، فإذا توسطها رأي
كل قطعة منها منفردة بنفسها، يطوف بكل قطعة منها قائمة بنفسها لا يصعدا أحد إلا بمشقة شديدة وبها
بئر ثمود التي قال الله فيها وفي الناقة: ﴿ها شرب ولكم شرب يوم معلوم﴾.

(٢) جوامع السيرة لابن حزم ص ٢٥٢ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٥٧ ومغازي الواقدي ج ٣ ص ١٠٠٦ وسيرة
ابن هشام ج ٤ ص ١٦٥.

وكان أبو هريرة يحدث يقول: لما مررنا بالحجر استقى الناس من بئرها، وعجنوا فنأدى منأدى النبي ﷺ: لا تشربوا من مائها ولا تتوضئوا للصلاة، وما كان من عجين فاعلفوه الإبل، قال سهل ابن سعد ^(١): كنت أصغر أصحابي وكنت مقرهم في تبوك، فلما نزلنا (أي الحجر من ديار ثمود) عجنت لهم ثم تحميت العجين، وقد ذهبت أطلب حطباً، فإذا منأدى النبي ﷺ ينادي: إن رسول الله ﷺ يأمركم ألا تشربوا من ماء بئرهم، فجعل الناس يهرقون ما في أسقيتهم، قالوا يا رسول الله قد عجننا، قال: اعلفوا الإبل قال سهل: فأخذت ما عجنت فعلفت نضوين فهما كانا أضعف ركابنا.

قال: وتحولنا إلى بئر صالح النبي عليه السلام فجعلنا نستقي من الأسقية ونغسلها، ثم ارتوينا فلم نرجع يومئذ إلا ممسين، فقال رسول الله ﷺ: لا تسألوا نبيكم الآيات «أي المعجزات»، هؤلاء قوم صالح سألو نبيهم آية فكانت الناقة ترد عليهم من هذا الفلج، تسقيهم من لبنها يوم وردها ما شربت من مائها، فعقروها فأوعدوا ثلاثاً وكان وعد الله غير مكذوب فأخذتهم الصيحة فلم يبق أحد منهم تحت أديم السماء إلا هلك، إلا رجل في الحرم، منعه الحرم من عذاب الله. قالوا يا نبي الله: من هو؟ قال رسول الله ﷺ: أبو رغال أبو ثقيف. قالوا: فما له بناحية مكة؟ قال: إن صالحاً بعثه مصدقاً «أي جامعاً للزكاة» فأنتهى إلى رجل معه مائة شاة شصص ^(٢) ومع شاة والد ومعه صبي ماتت أمه بالأمس. فقال: إن رسول الله ﷺ أرسلني إليك، فقال: مرحباً برسول الله وأهلاً، خذ، قال: فأخذ الشاة اللبون، فقال: إنما هي أم هذا الغلام بعد أمه، خذ مكانها عشراً، قال: لا، قال: عشرين، قال: لا، قال: خمسين، قال: لا، قال: خذها كلها إلا هذه الشاة، قال: لا، قال: إن كنت تحب اللبن فأنا أحبه، فشر كنانته ثم قال: اللهم تشهد ثم فوق له بسهم فقتله، فقال: لا يسبق بهذا الخبر إلى نبي الله أول منى، فجاء صالحاً فأخبره الخبر، فرفع صالح يديه مدأً فقال: اللهم العن أبا رغال ثلاثاً ^(٣).

(١) هو سهل بن سعد بن مالك بن خالد بن ثعلبة، خزرجي من الأنصار، وكان اسمه حزنا، فسماه الرسول ﷺ سهلاً، قال الزهري: توفي الرسول ﷺ وسهل ابن خمس عشرة سنة، وقد أدرك سهل ولاية الحجاج، روى عن سهل أئمة التابعين، سعيد بن المسيب والزهري وأبو حازم وابنه عباس بن سهل وغيرهم، توفي سهل سنة إحدى وتسعين وقد بلغ مائة سنة، ويقال: إنه آخر من بقي من أصحاب النبي ﷺ بالمدينة، وكان يصبغ لحيته باللون الأصفر، كان يقول: لو مت لم تسمعوا من أحد يقول: قال رسول الله ﷺ.

(٢) شصص جمع شصوص بضم الشين: والشصوص، الشاة التي قل لبنها جداً أو ذهب (النهاية ج ٢ ص ٢٢٠).

(٣) مغازي الواقدي، ج ٣ ص ١٠٧.

النهي عن دخول مساكن ثمود: وجاء في كتب الحديث والمغازي أن الرسول ﷺ وهو بالحجر قال: لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين - يعني قوم صالح - إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم مثل ما أصابهم، وفي رواية أنه ﷺ قال «وهو بالحجر»: لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم أن يصيبكم ما أصابهم إلا أن تكونوا باكين، ثم قنع رأسه (١) وأسرع السير حتى أجاز الوادي (٢).

وفي مغازي الواقدي: قال رسول الله ﷺ: لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم فيصيبكم ما أصابهم. وقال أبو سعيد الخدري: رأيت رجلاً جاء إلى النبي ﷺ بخاتم وجدته في الحجر في بيوت المعذبين، قال فأعرض عنه واستتر بيده أن ينظر إليه، وقال: ألقه، فآلقاه فما أدري أين وقع حتى الساعة. وكان ابن عمر يقول: إن رسول الله ﷺ قال لأصحابه حين حاذاهم «أي المعذبين»: إن هذا وادي النفر، فجعلوا يوضعون فيه ركابهم «أي يحثونها لتسرع في المشي» حتى خرجوا منه (٣).

العناصر المشبوهة والتشكيك داخل الجيش : فيما مضى من هذا البحث ذكرنا أن عناصر الجيش النبوي المتحرك نحو تبوك كانت تضم فئات من الرتل الخامس الذين ليس لهم من الإسلام إلا حمل هويته في الظاهر، وهم المنافقون، والذين تنطبق عليهم كلمة «باطنيين» لأنهم يظهرون الإسلام ويضمرون الكفر.

وقد كشفهم القرآن الكريم للرسول ﷺ في آيات أنزلت عليه كما تقدم حينما فاهوا بقبیح القول من السخرية والاستهزاء بالله وبرسوله وبأصحابه، ولم ينكروا قبیح صنعهم حينما استجوبهم الرسول ﷺ، ولكنهم اعتذروا بأن ما بدر منهم إنما كان باعته الخوض واللعب فحسب ولكن القرآن أدانهم بالكفر فقال: لا تعتذروا قد كفرتم ﴿لا تعتذروا قد كفرتم﴾ الآية، وقد تاب البعض منهم وبقى البعض على كفره الباطني.

ومع إدانة القرآن لهم بالكفر والإلحاد، فإن الرسول الحكيم ﷺ لم يطردهم من الجيش ولم يتخذ ضدهم أي إجراء تأديبي، رغم أنه - حسب تعبيرات هذا العصر - في حالة استنفار وطوارئ، واستمرار بقائهم أحراراً داخل جيش كبير يتحرك للحرب قد يسبب متاعب لهذا الجيش ولقائده الأعلى على وجه الخصوص.

(١) قنعه أي غطاه كي لا يرى.

(٢) صحيح البخاري ج ٦ ص ٢٦ ومغازي الواقدي ج ٣ ص ١٠٠٨.

(٣) مغازي الواقدي ج ٣ ص ١٠٠٨.

وفعلًا لقد استمر الرسول ﷺ وأصحابه الأبرار من أفراد هذا الجيش يعانون الشيء الكثير من المتاعب من هؤلاء المنافقين فقد كانت هذه العناصر الخبيثة التي تنطوي على الكفر وتظاهر بالإسلام، تغلي مراحل الحقد والحسد في قلوبها المريضة، فقد أقض مضاجعها واعتصر قلوبها أن تصبح للمسلمين وحدة بهذا التلاحم الصادق الذي لم تشهد جزيرة العرب بل والعالم كله في تاريخه لها مثيلاً، وساء عناصر النفاق الخبيثة هذه أن يكون لمحمد ﷺ الذي خرج من مسقط رأسه مستخفياً خائفاً وحيداً بعد أن أهدر أهله وعشيرته دمه، وليس معه سوى صاحبه الوفي الصديق الأكبر.. ساء هذه العناصر المنافقة أن تصبح هذه القوة العسكرية الضخمة «ثلاثون ألف مقاتل» تأتمر «في طاعة لا مثيل لها» بأمر محمد ﷺ.. هذه القوة التي كانت الأكثرية الساحقة بينها «الأوس والخزرج» مهينة وفي طريق الإعداد لأن تكون رعية لرجل من هؤلاء المنافقين الذي كان أصحابه «قبل مجيء محمد ﷺ إلى المدينة بقليل» يضعون الترتيبات لتتويجه ملكاً على يثرب وهو عبد الله بن أبي سلول سيد الخزرج.

فهؤلاء المنافقون وعلى رأسهم عبد الله بن أبي يرون في قرارة أنفسهم الخبيثة أن مجيء الرسول ﷺ إلى يثرب ودخول أهلها في الإسلام، قد كان بمثابة انقلاب أبيض «إن صح هذا التعبير» قلب الأوضاع الجاهلية التي كانت قاب قوسين أو أدنى كي يصبح فيها رأس النفاق ملكاً متوجاً على يثرب، حيث جاء النبي ﷺ إلى المدينة وقوم ابن أبي يرصعون له التاج بالأحجار الكريمة ليضعوه على رأسه^(١).

لذا فرأس النفاق والعناصر الموالية له يرون أن الرسول ﷺ بنشره الإسلام في يثرب قد سلب زعيمهم عبد الله بن أبي الملك الذي كانوا يهيئون له للتربع على عرشه، من هنا جاء إيغال هؤلاء المنافقين في الكيد للإسلام والنبي ﷺ بهدف تفتيت وحدة المسلمين وتشتيت شملهم، عسى أن يقوم على أنقاض وحدتهم - التي أقامها الإسلام - الملك الذي يطمع فيه عبد الله بن أبي.

ولقد كان المنافقون - منذ أن تشرفت المدينة بمقدم الرسول الأعظم ﷺ - وهم يعملون ضد الوضع الجديد الذي أقامه الإسلام، فيحكيكون الدسائس والمؤامرات ضد الرسول ﷺ في كل مناسبة تسنح لهم، ولكنهم في غزوة تبوك وسعوا من نشاطاتهم التخريبية وقاموا ضد النبي ﷺ بأعمال خطيرة جداً بلغت حد محاولة اغتياله، وهي أعمال لم يجروا المنافقون على القيام بمثلها في الماضي.

(١) انظر قصة عبد الله بن أبي ومحاولة تتويجه في كتابنا الأول (غزوة بدر الكبرى).

فمن أعمالهم التخريبية التشكيكية، محاولتهم إشاعة الريب بين عناصر الجيش في صدق نبوة الرسول ﷺ، فقد حدث أن عسكر الجيش النبوي بمنطقة ليس بها ماء وهو في طريقه إلى تبوك، تعرض الجيش «وهو ثلاثون ألفاً» لعطش شديد، فابلغوا الرسول ﷺ خطورة الحالة، فتوجه الرسول ﷺ إلى ربه بالدعاء فأكرمه بمعجزة، حيث أنزل الله تعالى الغيث فارتوى الجيش بالماء وسقوا خيلهم وإبلهم وسكنت نفوسهم، وكان بإمكان عناصر النفاق في الجيش النظر في هذه المعجزة ليعتبروا بها كدليل من الأدلة على صدق نبوة محمد ﷺ، ولكنهم تبادوا في كفرهم وعنادهم، وقالوا: إنما حدث ذلك صدفة.

فقد روى عن أبي سعيد الخدري أنه قال: إن رسول الله ﷺ - وهو في طريقه إلى تبوك - أصبح ذات يوم ولا ماء مع الجيش، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ على غير ماء أي الرسول وجيشه لم يكونوا بأرض بها آبار أو منابع للمياه قال عبد الله بن أبي حدرد^(١): فرأيت رسول الله ﷺ استقبل القبلة فدعا - ولا والله ما أرى في السماء سحاب - فما برح رسول الله ﷺ يدعو حتى أني لأنظر إلى السحاب يأتلف من كل ناحية، فما رام مقامه حتى سحت علينا السماء بالرواء، فكانني أسمع تكبير رسول الله ﷺ في المطر، ثم كشف الله السماء عنا من ساعتها وإن الأرض إلا غدر تناخس^(٢) فسقى الناس وارتووا عن آخرهم، واحتملوا ما يحتاجون إليه، وأسمع رسول الله ﷺ يقول: أشهد أني رسول الله.

وروى عن الفاروق عمر بن الخطاب أنه قال: خرجنا في حر شديد فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطش حتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقي على كبده فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ، وقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله قد عودك الله من الدعاء خيراً، فادع الله لنا. قال: أتحب ذلك؟ قال: نعم، فدعا فرفع يديه فلم يرجعهما حتى أرسل الله سحابة فمطرت حتى ارتوى الناس.

قال عبد الله بن أبي حدرد: قلت لرجل من المنافقين: ويحك أبعث هذا شيء؟ فقال: سحابة مارة، وهو أوس بن قيطي^(٣).

وحدث يونس بن محمد، عن يعقوب بن عمر بن قتادة، عن محمود بن لبيد، أنه قال

(١) انظر ترجمته في كتابنا (غزوة خيبر).

(٢) مغازي الواقدي ج ٣ ص ١٠٠٩.

(٣) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٥٨ ومغازي الواقدي ج ٢ ص ١٠٠٩.

له: هل كان الناس يعرفون أهل النفاق فيهم؟ فقال: نعم والله، إن كان الرجل ليعرفه من أبيه وأخيه ومن عمه. ثم يلبس بعضهم بعضاً على ذلك. ثم قال محمود: لقد أخبرني رجال من قومي عن رجل من المنافقين، معروف نفاقه، كان يسير مع رسول الله ﷺ حيث سار، فلما كان أمر الناس بالحجر ما كان، ودعا رسول الله ﷺ حين دعا، فأرسل الله السحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس. قالوا: أقبلنا عليه نقول: ويحك هل بعد هذا شيء؟ قال: سحابة مارة.

وطوال تحرك الجيش النبوي إلى تبوك استمر المنافقون في محاولاتهم الخبيثة لزعزعة ثقة المسلمين في صدق نبيهم، فلا تأتي مناسبة يرون أنها ملائمة لاستخدامها لتحقيق أهدافهم التشكيكية إلا واغتنموها، غير مباليين باستياء الرسول الأعظم ﷺ لتصرفاتهم المشينة المتكررة، ومستغلين سعة حلم الرسول ﷺ وصبره عليهم.

فقد صدف وأن حدثت حادثة ازداد لها المؤمنون الصادقون إيماناً، وزاد لها توغل هؤلاء المشبوهين المنافقين إيغالاً في الكفر وبث الإرجاف والتشكيك في نبوة الرسول ﷺ. فقد روى المؤرخون أنه عندما ارتحل الرسول ﷺ بعد حادثة إكرام الله له بإنزال الغيث، نزل منزلاً، وبات فلما أصبح افتقدت ناقته القصوى، فخرج بعض أصحابه يبحثون عنها، فاستغل المشبوهون في الجيش هذا الحادث، وحاولوا أن يجعلوا منه منطلقاً لتسريب الشكوك والريب إلى النفوس في صدق نبوة محمد ﷺ، فقد ذكر عمارة بن حزم أن رجى من المنافقين.

«وهو زيد بن اللصيت أحد بني قينقاع اليهود - قد تظاهر بالإسلام، بينما ظل ينطوي على حقد اليهود وبغضهم للرسول ﷺ - ابن اللصيت هذا كان في رحل عمارة بن حزم، فلما ضاعت ناقه الرسول القصوى وانطلق بعض أصحابه يبحثون عنها، قال زيد بن اللصيت: أليس محمد يزعم أنه نبي ويخبركم عن خبر السماء وهو لا يدري أين ناقته؟.. كلمة خبيثة تحمل شحنة لعينة من متفجرات الريبة والشك أراد هذا المنافق أن يفجرها عسى أن تصيب شظاياها قلوب بعض البسطاء ممن في الجيش فيتلوثون بما تلوث به هذا المنافق وحزبه الخبيث، ولكن الله سبحانه وتعالى كبت هذا المنافق وأخزاه وأبطل مفعول متفجرات الريبة والشك التي رمى بها على أسماع العسكر.

فقد بلغ الرسول القائد ﷺ ما قاله هذا المنافق على ملاً من الجيش، فأكد

الرسول ﷺ أنه بشر لا يعلم الغيب، ولكنه في الوقت نفسه أكد ﷺ أنه نبي مرسل، والنبي مع علو مرتبته فوق كل مرتبة - لا يعلم من أمور الغيب إلا ما أخبره الله به، وأعلن الرسول على ملاء من الجيش أن الله تعالى أخبره. فقال ﷺ: إن منافقاً يقول: إن محمداً يزعم أنه نبي، وأنه يجبركم بأمر السماء، ولا يدري أين ناقته، وإني والله ما أعلم إلا ما علمني الله، وقد دلني عليها، وهي في الوادي في شعب كذا وكذا - الشعب أشار لهم إليه - حبستها شجرة بزمامها، فانطلقوا حتى أتوا بها. فذهبوا فجاءوا بها، وكان عمارة بن حزم حاضراً، «وهو لا يعلم أن ابن اللصيت هو صاحب المقالة الخبيثة» فلما جاء عمارة رحله قال لرفاقه: العجب من شيء حدثناه رسول الله ﷺ. إنها عن مقالة قائل أخبره الله عنه. قال: كذا وكذا - الذي قال زيد. قال: فقال رجل ممن كان في رحل عمارة، ولم يحضر رسول الله ﷺ: زيد والله قائل هذه المقالة قبل أن تطلع علينا، قال: فأقبل عمارة على زيد بن اللصيت يجأه^(١) في عنقه ويقول: والله، إن في رحلي لداهية وما أدري، أخرج يا عدو الله من رحلي.

وكان الذي أخبر عمارة عن زيد أخوه عمرو بن حزم، وكان في الرحل رهط من أصحابه. والذي ذهب فجاء بالناقة من الشعب، الحارث بن خزيمة الأشهلي^(٢)، وجدها وزمامها قد تعلق في شجرة^(٣). قال الواقدي: فقال زيد بن اللصيت: لكأني لم أسلم إلا اليوم، قد كنت شاكاً في محمد، وقد أصبحت وأنا فيه ذو بصيرة، وأشهد أنه رسول الله، فزعم الناس أنه تاب^(٤).

ولكن خارجة بن زيد^(٥) بن ثابت ينكر أن يكون ابن اللصيت قد تاب، فقد كان خارجة يقول: لم يزل زيد بن اللصيت فسلاً^(٦) حتى مات^(٧).

(١) يجأه، قال في النهاية: يضربه.

(٢) هو الحارث بن خزيمة بن عدي بن أي غنم، حليف لبي عبد الأشهلن قال موسى بن عقبة شهد بدرًا وكل المشاهد مع الرسول ﷺ توفي سنة ٤٠هـ في خلافة علي.

(٣) مغازي الواقدي ج ٣ ص ١٠١٠.

(٤) مغازي الواقدي ج ٣ ص ١٠١٠.

(٥) خارجة هذا هو ابن زيد بن ثابت الصحابي المشهور، وخارجة أحد الفقهاء السبعة أدرك خلافة عثمان ومات بالمدينة.

(٦) الفسل من الرجال: الرذل.

(٧) مغازي الواقدي ج ٣ ص ١٠١٠.

أول من حدا من العرب بالإبل: ويذكر الواقدي أن الرسول ﷺ لما صار بوادي المشقق^(١) سمع حاديًا في جوف الليل فقال: أسرعوا بنا لنلحقه، ورسول الله ﷺ يقول: ممن الحادي، منكم أو من غيركم؟ قالوا: بلى من غيرنا، قال: فأدرکه رسول الله ﷺ، فإذا جماعة، فقال: ممن القوم؟ قالوا: من مضر. قال رسول الله ﷺ: وأنا من مضر، فانتسب حتى بلغ مضر، قال القوم: نحن أول من حدا بالإبل. فقال النبي ﷺ: وكيف ذلك؟ قالوا: بلى إن أهل الجاهلية كان يغير بعضهم على بعض، فأغير على رجل منهم ومعه غلام له، فندت إبله فأمر غلامه أن يجمعها، فقال، لا أستطيع، فضرب يده بعصا، فجعل الغلام يقول: وا يداه، وا يداه، وتجتمع الإبل، فجعل سيده يقول: قل هكذا بالإبل، وجعل النبي ﷺ يضحك^(٢).

نصر أهل اليمن للإسلام: وذكر أصحاب السير والمغازي أن الرسول صلى الله عليه وسلم بشر أصحابه «وهو في طريقه إلى تبوك» بأن الله سيكتب الغلبة والنصر للمسلمين على فارس والروم والاستيلاء على ممالكهم وأن أهل اليمن سيكونون قوة ضاربة ذات أثر فعال في نصر الإسلام بالجهاد. فقد روى أن النبي ﷺ قال لأصحابه - وهم سائرون إلى تبوك - : ألا أبشركم؟ قالوا: بلى يا رسول الله، فقال: إن الله أعطاني الكثرين فارس والروم وأمدني بالملوك ملوك حمير، يجاهدون في سبيل الله ويأكلون فيء الله^(٣).

وهذا من أعلام النبوة، فقد أثبتت الأحداث بعد وفاة النبي ﷺ - وعلى مدى التاريخ المشرق للإسلام - وخاصة في فتح الشام وأفريقيا أن أهل اليمن كانوا قوة فعالة لإعلاء كلمة الله، وكانت الإمدادات منهم عظيمة في عهد الخليفة الصديق عندما اجتازت جيوشه حدود الشام والعراق للجهاد وكان أحد قادة الجيوش الأربعة في الشام يمانيًا وهو شرحبيل بن حسنة، كما كان ذو الكلاع الحميري أحد ملوك حمير أحد قادة الجيوش البارزين في النجدات التي جاءت من اليمن. وفي اليرموك.

(١) المشقق: واد بين المدينة وتبوك كذا جاء في وفاء الوفاء ج ٢ ص ٣٧٤.

(٢) مغازي الواقدي ج ٣ ص ١٠١١.

(٣) مغازي الواقدي ج ٣ ص ١٠١١.

النبي يصلي مأموماً خلف إمام من أصحابه: وأثناء التحرك إلى تبوك، وبين الحجر وتبوك على وجه التحديد، صلى النبي ﷺ خلف عبد الرحمن بن عوف، وكانت تلك أول مرة يصلي فيها النبي ﷺ في حياته خلف غيره من المسلمين، فقد جاء في مصادر التاريخ أن الجيش وقت صلاة الصبح انتظروا الرسول ﷺ فتأخر لبعض شأنه، فخاف الجيش أن تطلع الشمس قبل أن يصلوا الصبح، فطلبوا من عبد الرحمن بن عوف أن يؤمهم ليصلوا، ففعل، غير أنه ما كاد يركع الركعة الأولى حتى جاء النبي ﷺ، فنبه المسلمون عبد الرحمن بن عوف لقدوم الرسول ﷺ وذلك عن طريق التسبيح ليتنحى عن مكان الإمامة للرسول ﷺ ففعل حيث أخذ يتقهقر إلى الصف الأول، فأشار الرسول ﷺ إلى عبد الرحمن بأن يستمر في صلاته «إماماً» فامثل وصلى خلفه الرسول ﷺ مأموماً، فلما سلم عبد الرحمن بن عوف تواب الناس، وقام رسول الله ﷺ يقضي الركعة الباقية.. وفي هذه المناسبة شهد النبي ﷺ بأن عبد الرحمن بن عوف من صالحى أمته، فقد قال - بعد أن فرغ من صلاته - : أحسستم، أنه لم يتوف نبي حتى يؤمه رجل صالح من أمته^(١) .

وقفة تشريعية: وكما هي دائماً أقوال وأفعال النبي ﷺ وأفعاله تشريعات وقوانين يعمل بها المسلمون، فإن قولاً قاله ﷺ وهم سائرون إلى تبوك في نزاع حدث بين رجلين من أصحابه، صار هذا القول تشريعاً عمل به الفقهاء في الجنايات، فقد ذكر أصحاب السير أن يعلى بن منبه^(٢) أتى النبي ﷺ برجل أجير له، قد نازع رجلاً من العسكر، فعضه ذلك الرجل، فانتزع الأجير يده من فمِّ العاض فانتزع ثنيته، فلزمه العاض المجروح، فبلغ به النبي ﷺ لمقاضاته وهو يطمع في التعويض، قال يعلى: وقمت مع أجيري لأنظر ما يصنع، فأتى بهما النبي ﷺ فقال: يعمد أحدكم فيعض أخاه كما يعض الفحل، فأبطل رسول الله ﷺ ما أصاب من ثنيته^(٣)، لأن العاض هو المعتدي وثنيته إنما انتزعت نتيجة اعتدائه.

(١) مغازي الواقدي ج ٣ ص ١٠١٢ .

(٢) لعله يعلى بن أمية الصحابي الشهير والبارز ذكره في قضية مقتل الشهيد عثمان (انظر أسد الغابة ج ٥ ص ١٢٨ .

(٣) مغازي الواقدي ج ٣ ص ١٠١٢ .

الوصول إلى تبوك: وبعد أن قطع الرسول ﷺ ما يقارب الـ ٤٠٠ ميل وصل تبوك، ولم يكن بها من الماء إلا قليل، وقد أكرم الله تعالى رسوله بمعجزة جديدة حيث فجر له هذه العين بالماء الغزير حتى ارتوى الجيش، كما أخبر الرسول ﷺ بعض أصحابه أن تبوك «بعد ذلك الشح في الماء» ستكون ذات بساتين غناء، وقد حدث ذلك بالفعل كما هو مشاهد اليوم، وذلك من أعلام النبوة.

فقد جاء في المغازي أن الرسول ﷺ قال: إنكم ستأتون غداً إن شاء الله عين تبوك، وإنكم لن تنالوها حتى يضحى النهار، فمن جاءها فلا يمس من مائها شيئاً حتى آتى. قال معاذ بن جبل فجننا وقد سبق إليها رجلان، والعين مثل الزلال تبض^(١) بشيء من ماء فسألهما: هل مسستما من مائها شيئاً؟ قالوا: نعم، فقال لهما ما شاء الله أن يقول، ثم غرفوا بأيديهم قليلاً حتى اجتمع في شن^(٢) ثم غسل النبي ﷺ فيه وجهه ويديه، ثم أعاده فيها فجاءت العين بماء كثير فاستقى الناس، ثم قال النبي ﷺ: يوشك يا معاذ إن طالت بك حياة أن ترى ما ههنا قد مليء جنائاً^(٣).

وأخرج البيهقي وأبو نعيم عن عروة أن النبي ﷺ حين نزل تبوك وكان في زمان قلّ ماؤها فيه فاغترف غرفة بيده من ماء فمضمض به فاه، ثم بصقه فيها ففارت عينها حتى امتلأت فهي كذلك حتى الساعة. وأخرج ابن إسحاق نحوه، وفيه: «فانخرق من الماء حتى كان يقول من سمعه: إن له حساً كحس الصواعق - يعني كصوت الرعود - وذلك الماء فورة تبوك اليوم»^(٤).

الحرس النبوي في تبوك : وكان من عادة الرسول ﷺ بصفته القائد الأعلى للجيش، أن يقيم لنفسه حرساً يحرسون مقره طالما أنه في أرض للعدو، وفي حالة حرب. وكان اثنان من الصحابة اشتغرا بتولي حراسة الرسول ﷺ هما عبّاد بن بشر، ومحمد بن مسلمة، وكلاهما من الأنصار.

(١) بض الماء بيضاً بضيضاً: سال قليلاً قليلاً.

(٢) الشن بفتح الشين «القربة الخلقة التي كثر استعمالها.

(٣) الخصائص الكبرى ج ٢ ص ١٠١، تحقيق الدكتور محمد خليل هراس، وأخرجه مسلم عن معاذ بن جبلن والواقدي في المغازي ج ٣ ص ١٠١٣.

(٤) الخصائص الكبرى للسيوطي ج ٢ ص ١٠١.

وفي تبوك استعمل رسول الله ﷺ على حرسه - من يوم قدم إلى تبوك حتى رحل عنها - عباد بن بشر، فكان عباد يقوم مع رجاله بأعمال الدورية، فيطوف على أصحابه في العسكر، فغدا على رسول الله ﷺ يوماً فقال: يا رسول الله ما زلنا نسمع صوت تكبير من ورائنا حتى أصبحنا، أفوليت أحداً يطوف على الحرس؟ قال رسول الله ﷺ: ما فعلت، ولكن عسى أن يكون بعض المسلمين على خيلنا انتدب، فقال سلكان بن سلامة: يا رسول الله خرجت في عشرة من المسلمين على خيلنا، فكنا نحرس الحرس . فقال رسول الله ﷺ: رحم الله حرس الحرس في سبيل الله، فلکم قيراط من الأجر على كل من حرستم من الناس جميعاً أو دابة.

وفي غزوة تبوك أجرى الله على يد رسوله ﷺ معجزة أخرى زاد الله بها المؤمنين إيماناً، فقد ذكر الواقدي ج ٣ ص ١٠٣٤ و ١٠٣٥، أن نفرًا من بني سعد هذيم وفدوا على رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، إنا قدمنا عليك وتركنا أهلنا على بئر لنا قليل ماؤها، وهذا القيظ، ونحن نخاف إن تفرقتنا أن نقتطع؛ لأن الإسلام لم يفش حولنا بعد، فادع الله لنا في ماء بئرننا، وإن روينا به فلا قوم أعز منا، لا يعبر بنا أحد مخالف لديننا. قال رسول الله ﷺ: أبلغوني حصيات، فتناولت ثلاث حصيات فدفعتهن إليه، ففركهن بيده ثم قال: اذهبوا بهذه الحصيات إلى بئركم فاطرحوها واحدة واحدة وسموا، فانصرفوا من عند رسول الله ﷺ ففعلوا ذلك فجاشت بالرواء، ونفوا من قاربهم من المشركين ووطئوهم، فما انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة حتى أوطئوا من حولهم عليه ودانوا بالإسلام.

وقال رافع بن خديج: أقمنا بتبوك المقام فأرملنا من الزاد وقرمنا إلى اللحم ونحن لا نجد، فجئت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، إن اللحم هاهنا، وقد سألت أهل البلد عن الصيد فذكروا لي صيداً قريباً - فأشاروا إلى ناحية المغرب - ، فأذهب فأصيد في نفر من أصحابي؟ قال رسول الله ﷺ: إن ذهبت فاذهب في عدة من أصحابك، وكونوا على خيل، فإنكم تفرقون من العسكر قال: فانطلقت في عشرة من الأنصار فيهم أبو قتادة وكان صاحب طرد بالرمح وكنت رامياً فطلبنا الصيد فأدرکنا صيداً، فقتل أبو قتادة خمسة أحمره بالرمح على فرسه، ورميت قريباً من عشرين ظبياً وأخذ أصحابنا الظبين والثلاثة والأربعة، وأخذنا نعامة طردناها على خيلنا. ثم رجعنا إلى العسكر عشاء ورسول الله ﷺ

يسأل عنا: ما جاءوا بعد؟ فجئنا فألقينا ذلك بين يديه. فقال: فرقوه في أصحابكم، قلت: يا رسول الله، أنت مر به رجلاً، قال فأمر رافع بن خديج. قال: فجعلت أعطى القبيلة بأسرها الحمار والظبي، وأفرق ذلك حتى كان الذي صار لرسول الله ﷺ ظبي واحد مذبوح، فأمر به فطبخ، فلما نضج دعا به - وعنده أضياف - فأكلوا ونهانا بعد أن نعود وقال: لا آمن أو قال: أخاف عليكم.

من هو الشهيد في سبيل الله: وفي غزوة تبوك (وهي أهم حدث عسكري في التاريخ النبوي الحربي) أعلن الرسول ﷺ على ملاء من أصحابه أن الشهيد ليس الذي يقتل بالسيف والرمح والنبل في المعركة فحسب، بل إن مرتبة الشهيد ينالها كل من يفارق الحياة وهو في حالة الغزو في سبيل الله، مهما كان السبب الذي في وفاته.

فقد ذكر المؤرخون أن ذا البجادين المزني «وقد تقدمت قصة إسلامه في هذا البحث» قال: يا رسول الله ادع الله لي بالشهادة، فقال: أبلغني لحاء سمرة. فأبلغه لحاء سمرة، فربطها رسول الله ﷺ على عضده وقال: اللهم إني أحرم دمه على الكفار، فقال: يا رسول الله، ليس أردت هذا. قال النبي ﷺ: إنك إذا خرجت غازياً في سبيل الله فأخذتك الحمى فقتلتك فأنت شهيد، ووقصتك دابتك فأنت شهيد، لا تبال بأية كان. فلما نزلوا تبوكاً فأقاموا بها أياماً توفي عبد الله ذو البجادين. فكان بلال بن الحارث يقول: حضرت رسول الله ﷺ ومع بلال المؤذن شعلة من نار عند القبر واقفاً بها، وإذا رسول الله ﷺ في القبر، وإذا أبو بكر وعمر يدلّيانه على النبي ﷺ وهو يقول: أدنيا إلى أخاكما، فلما هياه لشقه قال: اللهم إني قد أمسيت عنه راضياً فارض عنه. قال: فقال عبد الله بن مسعود: ليتني كنت صاحب اللحد^(١).

قال الواقدي: وكان عبد الله ذو البجادين هذا من مزينة، وكان يتيماً لا مال له، قد مات أبوه فلم يورثه شيئاً، وكان عمه ميلاً^(٢) فأخذه وكفله حتى كان قد أيسر، فكانت له إبل وغنم ورقيق، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة جعلت نفسه تتوق إلى الإسلام، ولا يقدر عليه من عمه، حتى مضت السنون والمشاهد كلها، فانصرف رسول الله ﷺ من فتح مكة، راجعاً إلى المدينة، فقال عبد الله لعمه: يا عم قد انتظرت إسلامك فلا أراك تريد

(١) مغازي الواقدي ج ٣ ص ١٠١٤.

(٢) ميلاً. قال في لسان العرب ج ١٤ ص ١٥٩: أي ذا مال.

محمدًا، فائذن لي في الإسلام، فقال : والله، لئن اتبعت محمدًا لا أترك بيدك شيئًا كنت أعطيتكه إلا نزعته منك حتى ثوبيك. فقال عبد العزى - وهو يومئذ اسمه - : وأنا والله متبع محمدًا ومسلم، وتارك عبادة الحجر والوثن، وهذا ما بيدي فخذ، فأخذ كل ما أعطاه، حتى جرده من إزاره، فأتى أمه فقطعت بجادًا^(١) لها بائنين فائتزر بواحد وارتيدي بالآخر، ثم أقبل إلى المدينة وكان بورقان - جبل من حمى المدينة - فاضطجع في المسجد في السحر، ثم صلى رسول الله ﷺ الصبح، وكان رسول الله ﷺ يتصفح الناس إذا انصرف من الصباح، فنظر إليه فأنكره، فقال: من أنت؟ عبد الله ذو البجادين؟ ثم قال: أنزل مني قريبًا. فكان يكون في أضيافه ويعلمه القرآن، حتى قرأ قرآنًا كثيرًا والناس يتجهزون إلى تبوك، وكان رجلاً صيًّا، فكان يقوم في المسجد فيرفع صوته بالقراءة فقال عمر: يا رسول الله ألا تسمع هذا الأعرابي قد منع الناس القراءة؟ فقال النبي ﷺ: دعه يا عمر فإنه خرج مهاجرًا إلى الله ورسوله.

وأثناء التحرك إلى تبوك، قالوا: أتينا رسول الله ﷺ في مسيره وهو مردف سهيل بن بيضاء^(٢) خلفه، فقال سهيل: ورفع رسول الله ﷺ صوته فقال: يا سهيل، كل ذلك يقول سهيل: يا لبيك، ثلاث مرات، حتى عرف الناس أن رسول الله ﷺ يريدهم، فانشئ عليه من أمامه، ولحقه من خلفه من الناس، ثم قال رسول الله ﷺ: من يشهد أن لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، حرّمه الله على النار^(٣).

قصة الجني الذي تمثل في شكل حية: وأخرج أبو نعيم في الحلية عن الواقدي فقال: كان الناس بغزوة تبوك فعارضهم في مسيرهم حية عظيمة الخلق فانصاع^(٤) الناس عنها فأقبلت على رسول الله ﷺ وهو على راحلته طويلًا والناس ينظرون إليها، ثم التوت حتى اعتزلت الطريق فقامت قائمة فأقبل الناس، فقال رسول الله ﷺ: تدرّون من هذا؟ قالوا الله ورسوله أعلم، قال: هذا أحد الرهط الثمانية من الجن الذين وفدوا إليّ

(١) البجاد - بكسر الباء - الكساء الغليظ الجافي.

(٢) هو سهيل بن بيضاء وهي أمه « واسم أبيه وهب بن ربيعة بن عمرو بن عامر الفهري القرشي، هاجر إلي الحبشة ورجع منها، ثم هاجر إلى المدينة فجمع المهجرتين، فهو من السابقين الأولين الأفاضل. قال ابن الأثير:

شهد بدرًا وغيرها، ومات بالمدينة في حياة النبي ﷺ سنة تسع هـ، وصلى عليه النبي ﷺ.

(٣) مغازي الواقدي ج ٣ ص ١٠١٥.

(٤) أي مالوا.

يستمعون القرآن فرأى عليه من الحق - حين ألم رسول الله ﷺ ببلده - أن يسلم عليهن وها هو يقرئكم السلام. فسلموا عليه، فقال الناس جميعاً: وعليه السلام ورحمة الله، يقول الرسول ﷺ: أجبوا عباد الله من كانوا^(١).

النبي يصلي الصبح بعد طلوع الشمس: ويذكر المؤرخون وأصحاب الحديث أن النبي ﷺ قبل وصوله تبوك بيوم واحد نام ليلته والجيش حتى طلعت الشمس، فصلى بالمسلمين بعد أن امتدت قيد رمح، فقد روى عن عقبه بن عامر أنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك حتى إذا كنا منها على ليلة استرقد رسول الله ﷺ، فلم يستيقظ حتى كانت الشمس قيد رمح، فقال رسول الله ﷺ: يا بلال ألم أقل لك أكلاً لنا^(٢) الليل؟ فقال بلال: ذهب بي النوم، ذهب بي الذي ذهب بك، قال: فارتحل رسول الله ﷺ من ذلك المكان غير بعيد، ثم صلى ركعتين قبل الفجر، ثم صلى الفجر، ثم هذب^(٣) بقية يومه وليته فأصبح بتبوك^(٤).

خطبة أشبه بخطبة حجة الوداع : وفي صبيحة اليوم الذي وصل فيه النبي ﷺ منطقة تبوك جمع عناصر الجيش - وعددهم ثلاثون ألفاً - فألقى فيهم خطبة جامعة - تشبه إلى حد ما - خطبة حجة الوداع المشهورة، حيث تضمنت هذه الخطبة في تبوك الكثير من شرائع الإسلام والتربية الخلقية.

فقد روى عن عقبه بن عامر (وهو ممن حضر بيعة العقبة وبدراً) أن قال: لما أصبح النبي ﷺ، جمع الناس فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: أيها الناس، أما بعد فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأوثق العرى كلمة التقوى، وخير الممل ملة إبراهيم عليه السلام، وخير السنن سنن محمد، وأشرف الحديث ذكر الله، وأحسن القصص هذا القرآن وخير الأمور عواقبها، وشرّ الأمور محدثاتها، وأحسن الهدى هدى الأنبياء، وأشرف القتل

(١) الخصائص الكبرى ج ٢ ص ١١٠ ومغازي الواقدي ج ٣ ص ١٠١٥ وطعن الشيخ محمد خليل هراس في هذه القصة وقال: إنها من الكذب أثناء تعليقه عليها، وأنا شخصياً لا أرى مسوغاً للطعن في القصة من حيث جوهرها، لأن ذلك ممكن وقد وقع مثله في غزوة الخندق كما في صحيح مسلم «حيث قتل رجل حية في سقف منزله، فمات القاتل لساعته، فأخبرهم النبي ﷺ أن الحية المقتولة كانت جنياً.

(٢) أحرس لنا.

(٣) هذب: أي أسرع السير (النهاية ج ٤ ص ٢٤٥).

(٤) مغازي الواقدي ج ٣ ص ١٠١٦.

قتل الشهداء، وأعمى الضلالة الضلالة بعد الهدى، وخير الأعمال ما نفع، وخير الهدى ما اتبع، وشر العمى عمى القلب، واليد العليا خير من اليد السفلى، وما قل وكفى خير مما كثر وأهوى، وشر الأمور المعذرة حين يحضر الموت، وشر الندامة يوم القيامة. ومن الناس من لا يأتي الجمعة إلا نزرًا، ومنهم من لا يذكر الله إلا هجرًا^(١)، ومن أعظم الخطايا اللسان الكذوب، وخير الغنى غنى النفس، وخير الزاد التقوى، ورأس الحكم^(٢) مخافة الله، وخير ما ألقى في القلب اليقين.. والارتياب من الكفر، والنياحة من عمل الجاهلية، والغلول من جهر جهنم، والسكر من النار، والشعر من إبليس، والخمر جماع الإثم، والنساء حباله الشيطان، والشباب شعبة من الجنون، وشر المكاسب كسب الربا، وشر المأكل مال اليتيم. والسعيد من وعظ بغيره، والشقي من شقي في بطن أمه، وإنما يصير أحدكم إلى موضع أربعة أذرع، والأمر إلى آخره، وملاك العمل خواتمه، والربا ربا الكذب، وكل ما هو آت قريب، وسباب المؤمن فسوق، وقتل المؤمن كفر، وأكل لحمه من معصية الله وحرمة ماله كحرمة دمه، ومن يتأل^(٣) على الله يكذبه، ومن يعف يعف عنه، ومن يكظم الغيظ يأجره الله، ومن يصبر على الرزية يعوضه الله، ومن يتبع السمعة يسمع الله به، ومن يصبر يضاعف الله له، ومن يعص الله يعذبه الله، اللهم اغفر لي ولأمتي أستغفر الله لي ولكم^(٤).

وقال الواقدي: وكان رجل من بني عذرة يقال له عدي يقول: جئت رسول الله ﷺ بتبوك فرأيته على ناقة حمراء يطوف على الناس يقول: أيها الناس، يد الله فوق يد المعطي، ويد المعطي الوسطى، ويد المعطي (بفتح الطاء) السفلى. أيها الناس، اقنعوا ولو مجزم الخطب، اللهم، هل بلغت؟ ثلاثًا. فقلت: يا رسول الله، كانت امرأتان اقتتلتا فرميت فأصبت أحدهما، فرمى في رميتي - يعني ماتت - كما تقول العرب: رمى في جنازته. فقال النبي ﷺ: تعقلها ولا ترثها^(٥).

(١) الهجر - بضم أوله وسكون ثانيه - في النهاية في غريب الحديث ج ٤ ص ٢٤٠: هو الخنا والقيح من القول.

(٢) هكذا في الأصل وهو بمعنى الحكمة، كذا قال في النهاية ج ١ ص ٣٤٦.

(٣) نألى على الله قال في النهاية: أي حكم عليه وحلف.

(٤) مغازي الواقدي ج ٣ ص ١٠١٦ - ١٠١٧، وقد وردت مقاطع كثيرة من هذه الخطبة الرائعة في مواضع كتب الحديث الستة مثل البخاري ومسلم وبقية الستة. وهذه الخطبة خطبة جامعة شاملة في التربية وترسيخ قواعد السلوك لبناء حياة تكفل سعادة الدارين فعلى المسلم أن يعي ما جاء في هذه الخطبة الجامعة، بل ويحفظها لأنها بمثابة دستور للأخلاق والسلوك.

(٥) مغازي الواقدي ج ٣ ص ١٠١٦ - ١٠١٧.

الإيمان يمان: قالوا وجلس رسول الله ﷺ في موضع مسجده بتبوك، فنظر نحو اليمين ورفع يديه يشير إلى أهل اليمن فقال: الإيمان يمان، ونظر نحو المشرق (وهو العراق بالنسبة لتبوك) وأشار بيده فقال: إن الجفاء وغلظ القلوب في الفدادين^(١) أهل الوبر من نحو المشرق حيث يطلع الشيطان قرنه^(٢).

الرسول يتحدث عن فضل الخيل: وفي تبوك جيء إلى رسول الله ﷺ بجبنة، فقالوا: يا رسول الله إن هذا طعام تصنعه فارس، وإنا نخشى أن يكون فيه مية. فقال رسول الله ﷺ: ضعوا فيه السكين واذكروا اسم الله.

وأهدى رجل من قضاة إلى النبي ﷺ فرساً، فأعطاه رجلاً من الأنصار وأمره أن يربطه حياله استئناساً بصهيله، فلم يزل كذلك حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة ففقد صهيل الفرس، فسأل عنه صاحبه فقال: خصيته يا رسول الله. قال رسول الله ﷺ: فإن الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، اتخذوا من نسلها وباهوا بصهيلها المشركين، أعرافها أذفاؤها^(٣)، وأذناها مذايها، والذي نفسي بيده، إن الشهداء ليأتون يوم القيامة بأسياهم على عواتقهم، لا يميرون بأحد من الأنبياء إلا تنحى عنهم، حتى أنهم ليمرون بإبراهيم الخليل، خليل الله فيتحنى لهم حتى يجلسوا على منابر من نور، يقول الناس: هؤلاء الذين أهرقوا دماءهم لرب العالمين، فيكونون كذلك حتى يقضي الله عز وجل بين الناس.

وكان لرسول الله ﷺ فرس اسمه الطرب (بفتح الظاء وكسر الراء)، فقام إليه، وهو بتبوك فعلق عليه شعاره^(٤) وجعل يمسخ ظهره بردائه. قيل: يا رسول الله، تمسخ ظهره بردائك؟ قال: نعم، وما يدريك؟ لعل جبريل أمرني بذلك، مع أنني قد بت الليلة، وإن الملائكة لتعاتبني^(٥) في حس الخيل ومسحها وقال: أخبرني خليلي جبريل أنه يكتب لي بكل حسة أو فيتها إياه حسنة، وإن ربي عز وجل يحط عني بها سيئة، وما من امرئ من

(١) الفدادون: الذين تعلقوا أصواتهم في حروثهم ومواشيهم، واحدهم فداد.. كذا جاء في النهاية لابن الأثير.

(٢) مغازي الواقدي ج ٣ ص ١٠١٧.

(٣) الأذفاء: جمع ذفء، وهو ما يستدفاً به من الأوبار والأصواف.

(٤) الشعار: ما ولى الجسد من الثياب.

(٥) الحس: نفث التراب عن الدابة.

المسلمين يربط فرسًا في سبيل الله فيوفيه بعليفه يلتمس به قوته إلا كتب الله له بكل حبة حسنة، وحط عنه بكل حبة سيئة، قيل: يا رسول الله، وأي الخيل خير؟ قال: أدهم^(١)، أفرح، أرثم، محجل الثلث، مطلق اليمين، فإن لم يكن أدهم فكفيت على هذه الصفة. من التربية النبوية: وفي مقامه بتبوك أثنى الرسول ﷺ على المثبتين ونهى عن الخفة والنزق. فقد روى عن ابن عمر أنه قال: فرغ الناس بتبوك ليلة (ويظهر أنهم تسابقوا إلى سلاحهم في شيء من التسرع) قال ابن عمر: فخرجت في سلاحي حتى جلست إلى سالم مولى أبي حذيفة وعليه سلاحه فقلت، لاقتدين بهذا الرجل الصالح من أهل بدر، فجلست إلى جنبه قريبًا من قبة رسول الله ﷺ، فخرج رسول الله ﷺ علينا مغضبًا فقال: أيها الناس ما هذا النزق ما هذه الخفة ما هذا النزق؟ ألا صنعتن ما صنع هذان الرجلان الصالحان؟ يعنيني وسالمًا مولى أبي حذيفة.

ولما انتهى ﷺ إلى تبوك وضع حجرًا قبلة مسجد تبوك بيده وما يلي الحجر، ثم صلى الظهر بالناس، ثم أقبل عليهم فقال: ما ههنا شام، وما ههنا يمن^(٢). وكان ابن عمر يقول: كنا مع رسول الله ﷺ بتبوك فقام يصلي من الليل، وكان يكثر التهجد من الليل، ولا يقوم إلا استاك، وكان إذا قام يصلي صلى بفناء خيمته، فيقوم ناس من المسلمين فيحرسونه. فصلى ليلة من تلك الليالي، فلما فرغ أقبل على من كان عنده فقال: أعطيت خمسًا ما أعطيهن أحد قبلي: بعثت إلى الناس كافة، وإنما كان النبي يبعث إلى قومه، وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، أينما أدركتني الصلاة تيممت وصليت، وأحللت لي الغنائم أكلها، وكان من كان قبلي يجرمونها، والخامسة هي ما هي، هي ما هي، هي ما هي، قالوا: وما هي يا رسول الله ﷺ فقال: قيل لي سل فكل نبي قد سأل، فهي لكم ولمن شهد أن لا إله إلا الله^(٣).

لا اثر للرومان على الحدود: من المتفق عليه بين كتاب المغازي وأصحاب السير أن الرسول ﷺ لم يتحرك من المدينة بذلك الجيش الضخم (ثلاثين ألفًا) وفي ذلك الفصل من

(١) قال في البداية والنهاية: الخيل الأفرح هو ما كان في جبهته قرحة، بالضم، وهي بياض يسير في وجه الفرس دون الغرة، والأرثم الذي أنفه أبيض وشفته العليا، والمججل: هو الذي يرتفع البياض في قوائمه إلى موضع القيد.

(٢) مغازي الواقدي ج ٣ ص ١٠٢١ - ١٠٢٢ تحقيق الدكتور مارسدن جونز.

(٣) مغازي الواقدي ج ٣ ص ١٠٢٢.

الحر الشديد مع العسرة والضائقة المالية الشديدة التي عليها عامة أصحابه، إلا بعد أن تلقى معلومات تفيد أن القيادة الرومانية في الشام تحشد الجيوش وأن طلائع هذه الجيوش (وهي أربعون ألفاً) قد وصلت اللقاء^(١) قريباً من حدود جزيرة العرب. فاهتم لهذه الأنباء اهتماماً شديداً، فجهز ذلك الجيش الإسلامي الضخم، ليلقى على الرومان درساً عملياً ويفهمهم أنه قادر عسكرياً على حماية حدود الجزيرة من أي اعتداء قد يكون الرومان (فعلاً) قد خططوا للقيام به اعتماداً على قواتهم الضاربة الضخمة المدربة المجهزة أحسن تجهيز.

ولكن الرسول ﷺ لما وصل بجيشه تبوك بعث منها بطلائع وفصائل استخباراته العسكرية، فلم يجدوا أي أثر لأية حشود رومانية أو عربية متنصرة موالية لهم على حدود الشام الجنوبية.

وأمام هذا الواقع يبرز سؤال، وهو لماذا لم تكن الحشود الرومانية موجودة على حدود الجزيرة العربية، كما جاء في الإخبارية التي بلغت الرسول ﷺ وهو بالمدينة، فتحرك على أثرها بجيشه في تلك الظروف التي يمكن تسميتها بأنها ظروف استثنائية، نظراً لشدة الحر في ذلك الفصل والضائقة المالية التي عليه عامة المسلمين.

هل نكل الرومان عن الحرب التي كانوا يعدون لها، وهل نتيجة هذا النكول تأكد الرومان من جدية التحركات العسكرية الإسلامية الضخمة، أم أن الإخبارية عن تحشدات الرومان كانت غير صحيحة، وإنما أوعز الرومان إلى وكلاء استخباراتهم من العرب الموالين لهم بإشاعتها لإرهاب المسلمين واختبار مدى قوتهم الحربية ومقدرتهم القتالية فحسب؟.

إلى هذا الرأي الأخير يميل ابن برهان الدين حيث قال في السيرة الحلبية: ولم يكن ذلك (أي الحشد الروماني) حقيقة، وإنما ذلك شيء، قيل لمن يبلغ ذلك المسلمين ليرجف به، وكان ذلك في عسرة في الناس وجذب في البلاد^(٢).

كما يشير الواقدي أيضاً إلى أن مسألة إشاعة التحشدات الرومانية على حدود الجزيرة العربية يوم ذاك، كانت إشاعات غير صحيحة، فقد جاء في مغازيه: وكانت

(١) مغازي الواقدي ج ٣ ص ١٠٢٢.

(٢) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٥٣.

الساقطة - وهم الأنباط - يقدمون المدينة بالدرمك^(١) والزيت في الجاهلية وبعد أن دخل الإسلام، فإنما أخبار الشام عند المسلمين كل يوم، لكثرة من يقدم عليهم من الأنباط، فقدمت قادمة فذكروا أن الروم قد جمعت جمعاً كثيرة، وأن هرقل قد رزق أصحابه لسنة، وأجلبت معه لحم وجماد وغسان وعاملة، وزحفوا وقدموا مقدماتهم إلى البلقاء وعسكروا بها، وتخلف هرقل بمحص، ثم يقول الواقدي: ولم يكن ذلك وإنما شيء قيل ولم يكن شيء أخوف عند المسلمين منهم، وذلك لما عاينوه منهم من العدد والعدة والكرع^(٢).

وعلى أي كان الحال، فسواء كان سبب عدم المواجهة العسكرية بين المسلمين والرومان على الحدود نكول الرومان عن الحرب بعد أن استعدوا لها، أو أنهم لم يستعدوا أصلاً وإنما أشاعوا ذلك للإرجاف والإرهاب، فإن هذه الحملة العسكرية الضخمة التي قادها الرسول ﷺ إلى تبوك قد حققت للإسلام والمسلمين مكاسب عظيمة.

منها (وهي أهمها) أن النبي ﷺ قد تحدى الرومان بمجملته هذه التي أوشكت على اجتياز حدود الشام، وبث الرعب في نفوسهم بحيث زالت من أذهانهم تلك الصورة المغلوطة المرتسمة في أذهانهم عن المسلمين الذين لا ينظر إليهم هؤلاء الرومان إلا على أساس أنهم جماعات ضعيفة متفرقة من البدو الذين لا ضابط لهم ولا انضباط، وإنما هدفهم من وراء الحروب الحصول على شيء من المال والمال فقط.

ولا أدل على أن الرعب قد انتاب القيادة الرومانية في الشام، من أنها (رغم قواتها الضاربة) لم تحرك ساكناً، ولم تبعث بجندي واحد إلى الحدود، عندما بلغها أن الرسول ﷺ قد وصل بجيشه تبوك، وأنه صار فيما يشبه التحدي لهذه القيادة الرومانية المتغترسة يستعرض على حدودها قواته الضاربة البالغة ثلاثين ألفاً.

فكيف أحجمت الإمبراطورية الرومانية في الشام عن مواجهة التحدي بتحد مثله، مع أنها أصبحت - بعد انتصارها على الفرس - تعد أقوى قوة عسكرية في العالم كله، كيف ركنت إلى التزام الهدوء، ولم تفكر في مواجهة الجيش النبوي، رغم أنه أقام على حدودها الجنوبية حوالي عشرين يوماً يشن الغارات على أطرافها، ويخضع حلفاءها والموالين لها من غير الرومان.

لا شك أنه الرعب قد انتاب قلوب قادة الجيش الروماني، لاسيما بعد التجربة

(١) الدرمة دقيق الحواري، قاله في الصحاح ص ١٥٨٣.

(٢) مغازي الواقدي ج ٣ ص ٩٨٩ - ٩٩٠.

القاسية التي مرت بهم على أيدي جيش الإسلام الصغير في معركة مؤتة في السنة الثامنة من الهجرة، حيث واجهوا الأهوال من هذا الجيش الصغير الذي كانت نسبة قواتهم يوم ذاك سبعين لواحد، ولهذا فضلوا عدم مواجهة الجيش النبوي وظلوا يرقبونه في جزع حتى عاد إلى المدينة مرفوع الرأس منتصراً أعظم انتصار، بعد أن قرر عدم اجتياز حدود الشام، والاكْتفاء بتحدي الرومان وإرهابهم، مؤكداً بهذا التحدي قدرته على حماية الجزيرة العربية من عدوان أي عدو يفكر في الاعتداء عليها.

بل لقد ذكر المؤرخون أن الملك هرقل الذي كان يقيم بممص، بعث إلى الرسول ﷺ يتودد إليه، وهو بتبوك، حيث أرسل مبعوثاً خاصاً برسالة يخبر فيها النبي ﷺ أنه مسلم، فقد جاء في كتب السيرة، أن الملك هرقل بعد أن فشل (مرة أخرى) في إقناع أركان دولته وهو بممص، في الدخول في الإسلام لا ينهم حتى سكن غضبهم عليه، ثم بعث إلى النبي ﷺ كتاباً يقول فيه: إنني مسلم ولكنني مغلوب على أمري، فقبل الرسول ﷺ هديته، ولكنه لم يصدقه فيما زعم من أنه مسلم، وقد نقل المؤرخون عن حامل كتاب هرقل من حمص إلى الرسول ﷺ أنه قال: جئت تبوك فإذا هو (أي رسول الله ﷺ) جالس بين ظهراني أصحابي محتبياً فقلت: أين صاحبكم؟ قيل: هو هذا، فأقبلت أمشي حتى جلست بين يديه فناولته كتابي، فوضعه في حجره، ثم قال: من أنت؟ فقلت: أنا أحد تنوخ. قال: هل لك في الإسلام دين الحنيفة ملة إبراهيم. قلت: إني رسول قوم وعلى دين قوم لا أرجع عنه حتى أرجع إليهم، فضحك النبي ﷺ وقال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ ، فلما فرغ من قراءة كتابي قال: إن لك حقاً وإنك رسول، فلو وجدت عندنا جائزة جوزناك بها، إنّا قوم سفر، فقال رجل: أنا أجوزه، فأتى بجملة فوضعها في حجري، فسألت عنه قيل لي: إنه عثمان بن عفان.

ومن المكاسب السياسية والعسكرية الكبرى التي حققتها حملة تبوك العظيمة تصفية جميع الجيوب المعادية للإسلام في شمال الجزيرة العربية عسكرياً، وخاصة العناصر العربية التي تدين بالوثنية، وكانت التصفية العسكرية في شمال الجزيرة العربية تصفية كاملة شاملة بحيث لم يعد الرسول ﷺ من تبوك إلا وقد أصبحت جميع المناطق الشمالية في الجزيرة خاضعة للإدارة الإسلامية وتابعة لها إما بالدخول في الإسلام طواعية وإما بالاعتراف بسلطان هذا الدين والخضوع له عن طريق أداء الجزية للمسلمين ، وهذا خاص بالعرب الذين كانوا على النصرانية مثل ملك دومة الجندل كما سيأتي تفصيله فيما يلي من هذا الكتاب.

الفصل الرابع

سيطرة المسلمين على جنوب الشام.

رؤساء نصارى جنوب الشام يتوافدون على النبي ﷺ في تبوك ويعقدون معه الصلح.

خالد بن الوليد يفتح الجندل.

وقوع ملك دومة الجندل أسيراً ومقتل أخيه.

النبي يفكر في اجتياز حدود الشام بجيشه.

عودة الجيش إلى المدينة ظافراً.

محاولة المنافقين اغتيال النبي ﷺ..

قصة مسجد الضرار وإحراقه.

موت زعيم المنافقين عبد الله بن أبيّ.

قصة الثلاثة الذين تخلفوا عن الغزوة وقصة نزول القرآن بتوبتهم.

القرآن يندد بالمنافقين ويفضحهم.

كذلك من أهم مكاسب حملة تبوك وفوائدها المعنوية العظمى، سريان هيبة الإسلام إلى ما وراء حدود الجزيرة العربية وداخل بلاد الشام نفسها، مما كان له الأثر في تخوف بعض الحكام المحليين ورجال الدين المسيحي في الركن الجنوبي من الشام حيث يقع رأس خليج العقبة، فقد جاء البعض من الحكام المحليين ورجال الدين هؤلاء إلى تبوك باختيارهم، جاءوا إلى النبي ﷺ عندما علموا بوجوده في تبوك، وعقدوا معه صلحاً وطلبوا منه الأمان على أن يكونوا سلماً له، ولا يعينون عدواً عليه، فأعطاهم ذلك كما سيأتي تفصيله إن شاء الله.

ومجيء هؤلاء المسيحيين خاضعين طائعين للنبي ﷺ من الشام يعتبر أول فتح إسلامي في بلاد الشام التي تعتبر يوم ذاك جزءاً من الإمبراطورية الرومانية فأيلات التي جاء منها إلى تبوك هؤلاء النصارى تعتبر جزءاً من فلسطين، وفلسطين جزء من الشام. ولم يكن أهل إيلة (إيلات) النصارى وحدهم الذين جاءوه وأعطوه الجزية وأعلنوا

قبول سلطان الإسلام، بل جاءه أيضاً حكام مناطق أخرى في الشام وهي أذرح^(١) وجرباء^(٢).

فقد جاء في كتب التاريخ المعتمدة أن ملك أيلة (إيلات) وأهل أذرح وجرباء، لما بلغهم وصول النبي ﷺ إلى تبوك خافوا أن يتقدم إليهم بجيشه فسارعوا بالمجيء إليه ليبرموا معه الصلح باذلين له الطاعة والجزية التي يدفعها المعاهدون للمسلمين حسب النظم التي سنها القرآن الكريم.

فقد ذكر الواقدي أن أهل دومة وتيماء^(٣)، قد خافوا النبي ﷺ لما رأوا العرب قد أسلمت، وقدم يحنة بن رؤبة على النبي ﷺ، وكان يحنة ملك أيلة (إيلات)، وأشفقوا أن يبعث إليهم النبي ﷺ بجيش، وأقبل مع يحنة أهل جرباء وأذرح، فأتوه فصالحهم فقطع عليهم الجزية (أي فرضها).

وقال الواقدي في موضع آخر: حدثني يعقوب بن محمد الظفري، عن عاصم بن عمر ابن قتادة، عن عبد الرحمن بن جابر، عن أبيه، قال: رأيت يحنة بن رؤبة يوم أتى النبي ﷺ عليه صليب من ذهب، وهو معقود الناصية، فلما رأى النبي ﷺ كفر^(٤) وأوماً برأسه، فأوماً إليه النبي : ارفع رأسك، وصالحه يومئذ، وكساه رسول الله ﷺ برداً يمينه^(٥)، وأمر له بمنزل عند بلال^(٦).

وكتب رسول الله ﷺ ليحنة وقومه وثيقة الصلح والأمان وهي: (بسم الله الرحمن الرحيم،

(١) قال ياقوت في معجمه ج ١ ص ١٢٩: أذرح - بفتح أوله وسكون ثانيه وضم ثالثه - بلد في أطراف الشام من أعمال الشراة، ثم من نواحي البلقاء وعمان مجاورة لأرض الحجاز، وفي كتاب مسلم بن الحجاج: بين أذرح والجرباء ثلاثة أيام.

(٢) والجرباء منطقة من أعمال عمان بالبلقاء وهي قرب جبال الشراة من ناحية الحجاز، وبين أذرح والجرباء كان مؤتمر التحكيم الذي ترأسه عمرو بن العاص وأبو موسى الأشعري بعد انتهاء معارك صفين المؤسفة.

(٣) تيماء: تقع على ثمانتي مراحل شمال المدينة.

(٤) قال في لسان العرب ج ٦ ص ٤٦٦: التكفير إيماء الذمى برأسه، والتكفير لأهل الكتاب أن يطأه أحدهم رأسه لصاحبه كالتسليم عندنا، والتكفير أن يضع يده أو يديه على صدره.

(٥) اليمينه قال في الصحاح: بردة من برود اليمن.

(٦) مغازي الواقدي ج ٣ ص ١٠٣٢.

هذا أمانة من الله ومحمد النبي رسول الله ليحنة ابن رؤبة وأهل أيلة، لسفنههم وسائرهم في البر والبحر، لهم ذمة الله وذمة محمد رسول الله، ولمن كان معه من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر، ومن أحدث حدثاً فإنه لا يحول ماله دون نفسه وأنه طيب لمن أخذه من الناس وأنه لا يحل أن يمنعوا ماءً يريدونه، ولا طريقاً يريدونه من بر أو بحر) هذا كتاب جهيم بن الصلت وشرحيل بإذن رسول الله ﷺ ووضع رسول الله ﷺ الجزية على أهل أيلة ثلثمائة دينار كل سنة وكانوا ثلثمائة رجل.

كما كتب كذلك لأهل جرباء أذرح هذه الوثيقة: (من محمد رسول الله ﷺ أنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد، وأن عليهم مائة دينار في كل رجب وافية طيبة والله كفيلاً)^(١).

قال الواقدي: نسخت كتاب أذرح وإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد النبي ﷺ لأهل أذرح أنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد، وأن عليهم مائة دينار في كل رجب وافية طيبة، والله كفيلاً عليهم بالنصح والإحسان للمسلمين، ومن لجأ إليهم من المسلمين من المخافة والتغريب إذا خشوا على المسلمين وهم آمنون، حتى يحدث إليهم محمد قبل خروجه.

كذلك عقد الرسول ﷺ معاهدة صلح مع حكام مقنا^(٢) وكتب لهم بهذه المعاهدة وثيقة جاء فيها: (أنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد وأن عليهم ربع غزولهم وربع ثمارهم)^(٣).

وكان عبيد بن ياسر^(٤) أحد بني سعد ورجل من جذام^(٥) أحد بني وائل، قدما على النبي ﷺ بتبوك، فأسلما وأعطاهما النبي ﷺ ربع مقنا مما يخرج من البحر ومن الثمر من نخلها وربع المغزل، وكان عبيد بن ياسر فارساً، وكان الجذامي راجلاً، فأعطى رسول الله ﷺ فرس عبيد بن ياسر مائة ضفيرة - والصفيرة الحلة - فلم يزل يجري ذلك على بني سعد وبني وائل إلى يوم الناس هذا، ثم إن عبيد بن ياسر قدم مقنا وبها يهودية، وكانت اليهودية تقوم على فرسه فأعطاهما ستين ضفائر فرسه، فلم يزل يجري

(١) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ١٦٩ وفتح البلدان ص ٧١ وإمتاع الأسماع ص ٤٦٨ - ٤٦٩ وتاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ٨٢١ ومغازي الواقدي ج ٣ ص ١٠٣١ - ١٠٣٢ والبداية والنهاية ج ٥ ص ١٦ - ١٧ وزاد المعاد ج ٣ ص ١٠.

(٢) مقنا (بفتح الميم وسكون النون) ٩ منطقة قرب إيلات.

(٣) مغازي الواقدي ج ٣ ص ١٠٣٢ - ١٠٣٣.

(٤) ذكره ابن حجر في الإصابة باسم عبيد بن بسر.

(٥) انظر فيما مضى من هذه السلسلة ترجمة قبيلة جذام الكبرى وتحديد مناطق سكنها في سينا والشام وجزيرة العرب.

على اليهودية حتى نزعت آخر زمان بني أمية، فلم تردّ إليها ولا إلى ولد عبيد^(١).
وفي فتوح البلدان للبلاذري: جاء نص وثيقة الصلح لأهالي مقنا: (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى بني حبيبة وأهل مقنا، سلم أنتم فإنه أنزل على أنكم راجعون إلى قريبتكم فإذا جاءكم كتابي هذا، فإنكم آمنون ولكم ذمة الله وذمة رسوله، وإن رسول الله ﷺ قد غفر لكم ذنوبكم (أي ما ارتكبتم من مخالفات ضد المسلمين) وكل دم اتبعتم به، لا شريك لكم في قريبتكم إلا رسول الله أو رسول: رسول الله، وإنه لا ظلم ولا عدوان، وأن رسول الله ﷺ يجيركم مما يجير منه نفسه، فإن لرسول الله ﷺ بزتكم ورقيقكم والكرع والحلقة، إلا ما عفا عنه رسول الله ﷺ، أو رسول رسول الله، وإن عليكم بعد ذلك ربع ما أخرجت نخيلكم وربع ما صادت عرككم، وربع ما اغتزلت نساءكم، وإنكم قد تريتتم بعد ذلك، ورفعكم رسول الله ﷺ عن كل جزية وسخرة، فإن سمعتم وأطعتم، فعلى رسول الله ﷺ أن يكرم كريمكم ويعفو عن مسيئكم، ومن اتتمر في بني حبيبة وأهل مقنا من المسلمين خيراً فهو خير له، ومن أطلعهم بشر فهو شر له، وليس عليكم أمير إلا من أنفسكم أو من أهل بيت رسول الله ﷺ^(٢).
فتح دومة الجندل^(٣): وأهم الحركات العسكرية التي قام بها الجيش النبوي،

(١) مغازي الواقدي ج ٣ ص ١٠٣٢ - ١٠٣٣.

(٢) فتوح البلدان ص ٧١ - ٧٢ وانظر اعتراض محقق الفتوح على ص ٧٢ من الكتاب نفسه.

(٣) دومة الجندل (بفتح الدال وسكون الواو وفتح الجيم وسكون النون وفتح الدال) منطقة تاريخية شهيرة منذ أقدم العصور، وقد كان لها ذكر في حروب ما قبل الميلاد وبعده وقد فرضت الملكة الزباء الحصار على قلعتها في أواخر القرن الثالث الميلادي فاستعصت عليها، ودومة الجندل تقع شرقي تبوك وهي أقرب إلى الحدود العراقية، وقد ظل عياض بن غنم القائد القرشي الفهري المشهور محاصراً لها حوالي سنة كاملة، فاستعصت عليه في عهد الخليفة الصديق، ولم يستطع اقتحامها إلا بمساندة خالد بن الوليد الذي جاء من الحيرة في أواخر سنة ١٢هـ... ويؤكد ياقوت في معجم البلدان العهد السحيق الذي بنيت فيه دومة الجندل، وهو عهد أحد أبناء نبي الله إسماعيل ﷺ، فقد قال ياقوت: سميت (أي دومة الجندل) بدوم بن إسماعيل بن إبراهيم، وقال الزجاجي: دوماً بن إسماعيل، قال: ولما كثر ولد إسماعيل عليه السلام بتهامة خرج دوماً بن إسماعيل حتى نزل موضع دومة، وبني به حصناً، فقبل دوماً ونسب إليه الحصن، وقال أبو سعيد: دومة الجندل في غائط من الأرض خمسة فراسخ، قال: ومن قبل مغربه عين تيج فتسقى ما به من النخل والزرع، وحصنها مارد، وسميت دومة الجندل لأن حصنها مبني بالجندل، وقال أبو عبيد السكوني: دومة الجندل حصن وقرى بين الشام والمدينة قرب جبلي طيء، كانت به بنو كنانة من كلب، قال: ودومة من القرى، من وادي القرى إلى تيماء أربع ليال، والقرى دومة وسكاكة وذو القارة، ثم قال ياقوت: فأما دومة فعليها سور يتحصن به، وفي داخل السور حصن منيع يقال: مارد، وهو حصن أكيدر بن عبد الملك بن عبد الحفي بن أعيان بن الحارث بن معاوية بن خلاوة بن أبامة بن سلمة بن سكامه بن شبيب بن السكون بن أشرس بن ثور بن غفير (وهو كندة) السكوني الكندي.

والرسول ﷺ مقيم في تبوك تلك الحركة التي قادها خالد بن الوليد وأضاف بها منطقة دومة الجندل إلى حظيرة سلطان الإسلام.

فقد كانت دومة الجندل تشكل مملكة صغيرة يحكمها ملك عربي حضرمي من كندة وكان على دين النصرانية، وكان شعب مملكة دومة الجندل أغلبيته الساحقة من قبيلة كلب القحطانية، وهي قبيلة كثيرة العدد، وذات قدرة قتالية ممتازة، وهذا أمر مشهور عن هذه القبيلة في الجاهلية والإسلام.

وكانت مملكة دومة الجندل النصرانية هي الجيب الوحيد الذي بقى في شمال الجزيرة العربية حتى السنة التاسعة للهجرة غير خاضع لسلطان الإسلام، ولما كان من برنامج الرسول ﷺ توحيد الجزيرة العربية كلها تحت لواء الإسلام بحيث لا يبقى في أية بقعة من هذه الجزيرة شبر واحد غير خاضع لسلطان الإسلام، فقد قرر الرسول ﷺ إخضاع نصارى دومة الجندل إما بالسلم والصلح، وإما بالحرب.

وبناءً على هذا القرار استدعى الرسول ﷺ القائد الشهير خالد بن الوليد، وأبلغه أنه قد قرر غزو دومة الجندل، وأنه ﷺ قد عين خالدًا قائدًا على الجيش الذي سيتولى هذه المهمة.

وقد انتخب رسول الله ﷺ أربعمئة وعشرين فارسًا من الجيش النبوي المرابط في تبوك كي يقودهم خالد ليقوموا بتصفية الجيب المعادي المتبقي في دومة الجندل. ولما كان خالد يعرف مبلغ القوات الكثيفة التي توجد للأعداء في دومة الجندل، ومدى قدرة هؤلاء الأعداء القتالية، رأى (حسب مقياس الحروب المجرى) أن هذه الكتيبة من الفرسان التي عليه أن يقتحم بها معاقل دومة الجندل التي من أهمها قلعتها التاريخية الحصينة، رأى أن هذه الكتيبة غير كافية لتحقيق الهدف الذي يريد الرسول ﷺ تحقيقه من وراء هذه الحملة التي كلف خالد القيام بها، فقد قال خالد - وهو يراجع رسول الله ﷺ بهذا الصدد - : يا رسول الله كيف لي به (أي أكيدر ملك دومة الجندل وهو وسط بلاد كلب، وإنما أنا في نفر يسير؟^(١)).

فطمأن الرسول ﷺ القائد خالدًا بأنه (رغم القوة الصغيرة التي سيقودها) سيظفر بالملك أكيدر، حيث سيأتي به أسيرًا، فقد قال الرسول ﷺ لخالد: ستجده يصيد البقر فتأخذه^(٢).

(١) مغازي الواقدي ج ٣ ص ١٠٢٥.

(٢) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ١٦٩ - ١٧٠.

لقد قيم خالد الوضع من وجهة النظر العسكرية المجردة، فبرز أمامه سؤال كبشر عادي بالنسبة للرسول الأعظم ﷺ، وهو هل في إمكان أربعمائة وعشرين فارساً أن يتغلبوا على عدة آلاف يعتصمون بالقلاع والأسوار؟ ولم يكن خالد - من وجهة النظر العسكرية المجردة - مخطئاً في تساؤله، ولكنه كمؤمن عميق الإيمان اطمأن إلى أنه سينتصر على جيوش مملكة كندة في دومة، رغم التفوق العددي الذي تمتاز به هذه الجيوش على كتيبة خالد؛ لأنه واثق من صدق ما أخبر به الرسول ﷺ من أنه سيقبض على ملك دومة الجندل ويأتي به أسيراً.

خالد يتحرك من تبوك: وبعد أن كملت تجهيزات كتيبة الفرسان التي تقرر أن يقودها خالد إلى دومة الجندل، تحرك بها لإنهاء المهمة الموكلة إليه، وما زال خالد يتحرك على تعبئة حتى وصل إلى مكان قريب من قلعة دومة الجندل التي يتحصن بها الملك أكيدر في جمع كثيف من جنده.

قال الواقدي: بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد من تبوك في أربعمائة وعشرين فارساً إلى أكيدر بن عبد الملك بدومة الجندل - وكان أكيدر من كندة قد ملكهم وكان نصرانياً - فقال خالد: يا رسول الله كيف لي به وسط بلاد كلب، وإنما أنا في نفر يسير؟ فقال رسول الله ﷺ: ستجده يصيد البقر فتأخذه. قال: فخرج خالد حتى إذا كان من حصنه بمنظر العين في ليلة مقمرة صائفة، وهو على سطح له ومعه امرأته الرباب بنت تنيف بن عامر من كندة، وصعد على ظهر الحصن من الحر وقينته تغنيه، ثم دعا بشراب فشرب، فأقبلت البقر (الوحشية) تحك بقرونها باب الحصن، فأقبلت امرأته فأشرفت على الحصن فرأت البقر فقالت: ما رأيت كالليلة في اللحم، هل رأيت مثل هذا قط؟ قال: لا، قالت: من يترك هذا؟ قال: لا أحد. قال: يقول أكيدر: والله ما رأيت جاءتنا ليلة بقر غير تلك الليلة، ولقد كنت أضمر لها الخيل إذا أردت أخذها شهراً أو أكثر، ثم أركب ركب بالرجال وبالآلة.. فنزل فأمر بفروسه فأسرج، وأمر بخيل فأسرجت، وركب معه نفر من أهل بيته، معه أخوه حسان ومملوكان، فخرجوا من حصنهم بمطاردهم^(١).

(١) المطارد بفتح الميم وكسر الراء - جمع المطرد، وزن منبر، وهو رمح قصير يطرد به، وقيل يطرد به الوحش

كان خالد يعلم أن الملك أكيدر وحاشيته يعتصمون بقلعة دومة الجندل، وهي قلعة حصينة لها أسوار عالية وأبراج عظيمة وباب من الخشب السميك جداً، وأنه لذلك من الصعب اقتحامها إلا بعد ضربها بآلات الحصار الثقيلة مثل الرماح والقاذفات باللهب مثل المنجنيق والعرادات والدبابات التي يستخدمها الجنود لنقب الأسوار أو تسلقها واقتحامها كي ينفذوا إلى الداخل.

كيف استسلمت القلعة: وخالد ليس لديه شيء من هذه الأدوات الضرورية لمن يريد اقتحام مثل قلعة دومة الجندل، وإنما جاء في قوة صغيرة خفيفة من الفرسان الذين لا يمكنهم بأي حال من الأحوال فتح القلعة عن طريق اقتحامها عنوة. وقد رأينا فيما بعد كيف اشترك في فتحها للمرة الثانية جيشان عام ١٢ هـ بقيادة خالد بن الوليد وعياض بن غنم الفهري الذي ظل سنة يحاصرها ولم يستطع فتحها إلا بمساعدة خالد.

لذلك عندما اقترب خالد برجاله من القلعة، قرر أن يكمن بفرسانه في مكان خفي بحيث لا يعلم بوجوده أحد من الأعداء، وذلك لانتظار فرصة مواتية تمكنه من إنجاز مهمته المتمثلة في فتح دومة الجندل، وحتى الخيل المدربة التي يقودها خالد امتنعت عن الصهيل حسب إشارة أصحابها من المسلمين، وذلك كي لا يسمعها الأعداء فيتنبهوا.

ونجح خالد في كمينه نجاحاً مكنه من السيطرة على دومة الجندل دونما أي قتال يذكر، فقد كان من توفيق الله تعالى أن خرج الملك أكيدر وبعض أفراد أسرته في الليل ومعه أخوه الأمير حسان لمطاردة البقر الوحشي، وهم لا يعلمون بمكان خالد وفرسانهم وعندما ابتعدوا من القلعة - وخالد يترصدهم - أمر فرسانه فطوقوا الملك أكيدر وصحبه فلم يقاوم؛ لأنه في قلة قليلة من رجاله، ولكن أخاه الأمير حسان رفض الاستسلام فقاتل حتى قتل، أما المملوكان، فقد تمكنا من الإفلات ورجعا إلى القلعة ليخبرا قادة الجيش فيها بما حدث للملكم الذي أصبح في أسر خالد بن الوليد. فتنبه المعتصمون بالقلعة واستعدوا للقتال.

ولكن ملكهم أكيدر الأسير أمرهم بإلقاء السلاح وفتح أبواب الحصن للمسلمين، وذلك حسب اتفاق تم بينه وبين القائد خالد بن الوليد، وذلك أن خالد عرض على الملك أكيدر أن يحقن دمه ويأمر المتحصنين في القلعة بإلقاء السلاح وفتح أبوابها للمسلمين فقبل فدخلوها وسيطروا عليها واستولوا على ما فيها من أموال ورقيق، ومنحوا كل جنود أكيدر الأمان على أرواحهم.

قال أصحاب المغازي يصفون وقوع الملك أكيدر في قبضة خالد بن الوليد وفتح قلعة دومة الجندل دوغما قتال: (فلما فصلوا - أي الملك أكيدر وحاشيته - من الحصن، وخيل خالد تنتظرهم لا يسهل منها فرس ولا يتحرك، فساعة فصل أخذته الخيل، فاستأسر أكيدر وامتنع حسان، فقاتل حتى قتل، وهرب المملوكان ومن كان معه من أهل بيته فدخلوا الحصن، وكان على حسان قباء مخوص بالذهب، فاستلبه خالد فبعث به إلى رسول الله ﷺ مع عمرو بن أمية الضمري حتى قدم عليهم فأخبرهم بأخذهم أكيدر. وتشير مصادر التاريخ إلى أن خالدًا لم يتمكن من فتح دومة الجندل إلا بعد أن غادر الرسول ﷺ منطقة تبوك عائداً إلى المدينة، بدليل أن خالدًا قدم المدينة على رسول الله ﷺ ومعه الملك أكيدر^(١)، وكان رسول الله ﷺ قد أصدر أمره إلى القائد خالد - وهو يوليه على كتيبة الفرسان المكلفة بفتح دومة الجندل - أن لا يقتل الملك أكيدر عندما يقبض عليه.

وأعطى بعض أصحاب المغازي مزيداً من التفاصيل عن فتح دومة الجندل - كل حسب علمه فقالوا : وكان رسول الله ﷺ قال لخالد بن الوليد: إن ظفرت بأكيدر فلا تقتله واثت به إلى، فإن أبي فاقتلوه، فطاوعهم. فقال بجير بن جبرة من طيء شعراً يذكر فيه قول النبي ﷺ لخالد (وإنك تجده يصيد البقر) وما صنع البقر تلك الليلة بباب الحصن:

تبارك سائق البقرات أنى رايت الله يهدي كل هاد
ومن يك عاندا عن ذي تبوك فإننا قد أمرنا بالجهاد
وقال خالد بن الوليد لأكيدر: هل لك أن أجيرك من القتل حتى آتي بك رسول الله ﷺ على أن تفتح لي دومة؟ قال: نعم، ذلك لك. فلما صالح خالد أكيدر، وأكيدر في وثاق انطلق به خالد حتى أدناه من باب الحصن، ونادى أكيدر أهله: افتحوا باب الحصن، فرأوا ذلك فأبى عليهم مضاد أخو أكيدر، فقال أكيدر لخالد: تعلم والله لا يفتحون لي ما رأوني في وثاق فخل عني فلك الله والأمانة أن أفتح لك الحصن إن أنت صالحتني على أهله. قال خالد: إني أصالحك. فقال أكيدر: إن شئت حكمتك وإن شئت حكمتني. قال خالد: بل نقبل منك ما أعطيت. فصالحه على ألفي بعير، وثمانمائة فرس وأربعمائة درع، وأربعمائة رمح على أن ينطلق به وأخيه إلى رسول الله ﷺ، فيحكم

(١) مغازي الواقدي ج ٣ ص ١٠٢٧ كما أن البيهقي يذكر - كما في البداية والنهاية - أن خالدًا إنما تحرك من المدينة لا من تبوك لفتح دومة الجندل (البداية والنهاية ج ٥ ص ١٧ - ١٨) فالله أعلم.

فيهما بحكمه.

فلما قاضاه خالد على ذلك خلى سبيله ففتح الحصن، فدخله خالد وأوثق مضاداً
أخا أكيدر، وأخذ ما صالح عليه من الإبل والرفيق والسلاح، ثم خرج قافلاً إلى المدينة،
ومعه أكيدر ومضاد، فلما قدم بأكيدر على رسول الله ﷺ صالحه على الجزية^(١) وحقن
دمه ودم أخيه وخلقى سبيلهما، وكتب لهما رسول الله ﷺ كتاباً فيه أمانهم وصلحهم
وختمه يومئذ بظفره.

وذكر عن أنس بن مالك قال: رأيت قباء أكيدر حين قدم على رسول الله ﷺ فجعل
المسلمين يلمسونه بأيديهم ويتعجبون منه، فقال رسول الله ﷺ: أتعجبون من هذا؟ فو
الذي نفسي بيده لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذا. وذكر بعضهم أن الناس
كانوا يتلمسون قباء مضاد أخي أكيدر، لا قباء أكيدر.

هل أسلم أكيدر: وبعضهم يذكر أن أكيدر الملك أسلم وأن الرسول ﷺ كتب له كتاباً
بعد إسلامه هذا نصه: (بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد رسول الله لأكيدر
حين أجاب إلى الإسلام وخلق الأنداد والأصنام، مع خالد بن الوليد سيف الله، في دومة
الجندل وأكنافها. وإن لنا الضاحية من الضحل^(٢) والبور^(٣) والمعامي^(٤) وأغفال
الأرض^(٥)، والحلقة، والسلاح، والحافر^(٦)، والحصن، ولكم الضامنة من النخل^(٧)،
والمعين من المعمور^(٨) بعد الخمس، لا تعدل سارحتكم، ولا تعد فاردتكم^(٩). ولا يحظر
عليكم النبات، ولا يؤخذ منكم عشر البتات^(١٠)، تقيمون الصلاة لوقتها، وتؤتون الزكاة
لحقها. عليكم بذلك العهد والميثاق، ولكم بذلك الصدق والوفاء، شهد الله ومن حضر

(١) وذكر بعضهم - وهو الأقرب إلى الصواب - أن الجزية إنما فرضت على مضاد أخي أكيدر لأن أكيدر أسلم
ثم ارتد في خلافة الصديق والله أعلم.

(٢) الضحل الذي فيه الماء القليل.

(٣) البور: ما ليس فيه زرع.

(٤) المعامي: ما ليست له حدود معاومة.

(٥) أغفال الأرض: مياه.

(٦) الحافر: الخيل.

(٧) الضامنة من النخل: النبات من النخل التي قد نبتت عروقها في الأرض.

(٨) المعين: الماء الظاهر.

(٩) أي لا يعد ما يبلغ أربعين شاة.

(١٠) البتات: المتاع ليس عليه زكاة.

من المسلمين).

ومما يدل على أن أكيدر قد أسلم أن أهل الفتوح مجمعون على أن خالدًا بن الوليد عام ١٢ هـ انحدر بجيش كثيف من العراق إلى دومة الجندل بعد أن ارتد أكيدر ومنع الزكاة وقاوم جيوش الإسلام التي قادها عياض بن غنم، ففتح خالد وعياض دومة الجندل، وقتل أكيدر كمتنرد خائن مرتد، وأما ما ذكر من أن الخليفة الفاروق أجلى الملك أكيدر عن دومة فخبير لا يصح.

والذي أسلم وثبت إسلامه فهو حريث أخو الملك أكيدر، فأقره المسلمون على ما في يده وحريث هذا هو الذي تزوج ابنته يزيد بن معاوية.

أما الذي بقي على نصرانيته من البيت المالِك في دومة الجندل، فهو مضاد أخو الملك أكيدر فأمنه الرسول ﷺ وكتب له وثيقة وضع فيها عليه الجزية مقابل الحماية والأمان، وهذه الوثيقة هي التي ختمها الرسول ﷺ بظفره حين لم يكن في يده خاتم.

وكان بلال بن الحارث المزني يحدث يقول: أسرنا أكيدر وأخاه فقدمنا بهما على النبي ﷺ، وعزل يومئذ للنبي ﷺ صفى خالص قبل أن يقسم شيء من الفيء ثم خمس الغنائم، فكان للنبي ﷺ الخمس^(١)، وكان عبد الله بن عمر المزني يقول: كنا أربعين رجلاً من مزينة مع خالد بن الوليد، وكانت سهامنا خمس فرائص^(٢)، كل رجل مع سلاح، يقسم علينا درع ورماح، وروى أن أكيدر حين قدم على رسول الله ﷺ مع خالد ابن الوليد، كان عليه صليب من ذهب وعليه الديباج ظاهر.

وذكر عن يونس بن بكير أن أبا بكر الصديق كان على المهاجرين في غزوة دومة الجندل، وخالد بن الوليد على الأعراب فالله أعلم^(٣).

(١) الخمس والصفى الذي يكون للرسول ﷺ إنما ينفقه ﷺ دائماً في المرافق العامة للمسلمين فهو لا يستغله لنفسه كما قد يشغب أعداء الإسلام.

(٢) الفريضة هنا الواحدة من الإبل.

(٣) انظر جوامع السيرة ص ٢٥٣ والبداية والنهاية ج ٥ ص ١٧ - ١٨ وزاد المعاد ج ٣ ص ١١ وسيرة ابن هشام ج ٤ ص ١٦٩ - ١٧٠ ومغازي الواقدي ج ٣ ص ١٠٢٥ وما بعدها ومعجم ياقوت ج ٢ ص ٤٨٧ - ٤٨٨ وفتوح البلدان ص ٧٣ وتاريخ الطبري ج ٣ ص ١٠٨ - ١٠٩ وص ٣٧٨ - ٣٧٩ وإمتاع الأسماع ص ٤٦٣ وما بعدها وتاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ٨٢١ والتنبيه والإشراف ص ٢٧٢.

استشارة الرسول أصحابه في اجتياز الحدود إلى الشام: ويذكر المؤرخون أن الرسول ﷺ بعد أن وصل إلى تبوك، ولم يجد أي أثر للحشود الرومانية على الحدود (كما بلغه) جمع كبار قادة جيشه ومستشاريه وشرح لهم الوضع وشاورهم فيما إذا يرون أن يجتاز حدود الشام بجيشه أو يعود بالجيش إلى المدينة والنبي ﷺ إنما زحف بهذا الجيش على تبوك؛ لأنه بلغه أن عدواناً مبيتاً تدبره الإمبراطورية الرومانية على الجزيرة العربية.

وفي هذا الاجتماع الذي دعا إليه الرسول ﷺ تكلم الفاروق عمر بن الخطاب فاقترح على الرسول ﷺ أن يعود بالجيش إلى المدينة دون أن يتقدم لاختراق حدود الشام، وأيد عمر اقتراحه هذا بأن الحملة قد حددت أهدافها، وهي إرهاب العدو الذي لم تجرؤ أية قوات تابعة له على الظهور أمام المسلمين رغم أن للعدو في الشام من الرومان وحلفائهم العرب المنتصرة ما لا يقل عن ربع مليون محارب، والمسلمون إنما كانوا في تبوك بقيادة نبيهم ثلاثون ألف مقاتل فقط.

فقد قال أصحاب المغازي: وشاور رسول الله ﷺ في التقدم، فقال عمر بن الخطاب: إن كنت أمرت بالمسير فسر. قال رسول الله ﷺ: لو أمرت به ما استشرتكم قال عمر: يا رسول الله، فإن للروم جمعاً كثيرة (يعني بالشام) وليس بها أحد من أهل الإسلام، وقد دنوت منهم حيث ترى، وقد أفزعهم دنوك، فلو رجعت هذه السنة حتى ترى أو يحدث الله عز وجل لك في ذلك أمراً^(١). وقد أخذ النبي ﷺ بمشورة ابن الخطاب، فعاد بالجيش إلى المدينة دون أن يجتاز بجيشه الحدود إلى الشام.

المنافقون يحاولون اغتيال النبي ﷺ: والعجيب الغريب في الأمر أن قوة الإسلام بعد أن أخذت تتعاضم وأخذت جزيرة العرب - بعد نجاح غزوة تبوك وإسقاط مملكة الكنديين بدومة الجندل في الشمال وتحدي الإمبراطورية الرومانية نفسها وإرهابها وإجبارها على التزام الهدوء بعد أن كانت تفكر في غزو الجزيرة - بعد كل هذه الإنجازات والانتصارات التي جعلت الإسلام (بكل معاني الكلمة) صاحب السلطان المطلق في الجزيرة العربية وأجزاء من الشام نفسها مثل أذربايجان وإيلات.. بعد كل هذه الإنجازات والانتصارات أخذ نشاط الباطنيين من الرتل الخامس (المنافقين) يتعاضم ضد الإسلام وضد النبي ﷺ بصفة خاصة، ولعل ذلك مرده الحسد الذي جعلهم يفقدون صوابهم.

(١) مغازي الواقدي ج ٣ ص ١٠١٩.

فقد أخذ هؤلاء المنافقون يضاعفون من تأمرهم ويتحركون على صورة تحد واستفزاز أثناء التحرك إلى تبوك وبعد العودة منها، وبأسلوب لم يسبق له مثيل في نشاطاتهم التخريبية.

ففي غزوة تبوك بذل هؤلاء المنافقون محاولات يائسة فلجئوا (وكحركة مذبوح) إلى أعمال استفزازية ونشاطات تخريبية على كل الأصعدة لعلهم ينالون بها من وحدة الإسلام الشائخة، ولعلهم يوصلون سوس الفرقة إلى صميم الأخوة الإسلامية التي أقامها الإسلام والتي لم تشهد جزيرة العرب لها مثيلاً في تاريخها.

غير أن كل محاولات هؤلاء الباطنيين باءت بالفشل وتحطمت على صخرة الإيمان الذي يتمتع به كل فرد من أتباع محمد ﷺ الصادقين. ورغم انكشاف أمرهم للرسول القائد ﷺ والقادر على إنزال أقسى العقوبات بهم فإنه لم يتخذ ضدهم أي إجراء، بل تركهم للأمة كي تحاسبهم بنفسها. فحاسبتهم فعلاً أقسى حساب، حيث كانت عقوبتهم من الشعب المقت والنبذ والازدراء، حتى تلاشوا - تلقائياً - بأحقادهم وضغائنهم، وشمخ الإسلام رغم أنوفهم حتى امتد رواقه فشمّل ما بين المشرق والمغرب..

فقد رأينا (كما تقدم) في بداية غزوة تبوك كيف حاول رأس النفاق عبد الله ابن أبيّ (وبأسلوب ماكر خبيث) أن يشطر الجيش الإسلامي ويدخل الفوضى والاضطراب داخل وحداته قبل أن يغادر المدينة فخرج ذلك المنافق في عسكر عظيم من أنصاره الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر.. خرج بهم على أنهم جزء من الجيش النبوي الزاحف إلى تبوك، ولكن هذا المنافق لم يكد يصل بعسكره مشارف المدينة حتى انفصل بهم راجعاً وهدفه إغراء بعض الوحدات من الجيش النبوي بالتمرد والسير على نهجه الخبيث كي تفكك وحدة الجيش النبوي.

ولم يكتف ابن أبيّ بالفعل الخبيث الذي فعل، بل لجأ إلى القول الذي يحمل كل معاني الإرجاف وتوهين العزائم، فأعلن أن رجوعه بأصحابه وانفصاله عن الجيش النبوي لأنه بزعمه لا يريد أن يغامر بأصحابه مع محمد في معركة قال عنها (سلفاً): إنها خاسرة لأن المسلمين بزعمه غير قادرين على مواجهة جيوش الإمبراطورية الرومانية. فقد قال عبد الله بن أبي - وهو يعود بأصحابه إلى المدينة - : (أيظن محمد قتال بني الأصفر لعبا كائي بأصحابه غدا مقرنين في الجبال)^(١). وقد بلغ الرسول ﷺ مقالة هذا المنافق وصنيعه فلم يابه له ولم يتخذ ضده أي إجراء، بل واصل التحرك إلى تبوك حتى حققت الحملة كل أهدافها.

(١) مغازي الواقدي ج ٣ ص ٩٩٥ - ٩٩٦.

وبالرغم من أن زعيم المنافقين عبد الله بن أبي قد رجع بأكثر أصحابه إلى المدينة دون أن يشتركوا في غزوة تبوك، فإن فريقاً من هؤلاء المنافقين انخرط في سلك الجيش النبوي وحاول أثناء تحرك الجيش على تبوك أن يكون عامل توهين وتفريق وتشكيك بين وحدات هذا الجيش الضخم، إلا أنه فشل فشلاً ذريعاً، واستمر الجيش في وحدته وتماسكه حتى وصل تبوك وحتى حققت الحملة العظيمة أهدافها وعاد الجيش إلى المدينة رافع الرأس منتصراً قد أربه الروم وأدخل الرهب في نفوسهم وطهر (عسكرياً) جميع الجيوب المناوئة للإسلام في الشريط الشمالي للجزيرة العربية.

وفي العودة من تبوك ارتكب الباطنيون المنافقون المندسون في الجيش النبوي أكبر حماقة في تاريخ المتاعب التي كانوا يثيرونها ضد النبي ﷺ وأصحابه، حيث حاولوا هذه المرة ارتكاب أكبر جريمة في التاريخ وهي اغتيال الرسول ﷺ بأسلوب جبان ماكر خبيث لا يتقنه إلا المنافقون الجبناء.

فقد وضع المنافقون المتآمرون خطة جهنمية للتخلص من الرسول الأعظم ﷺ، وكان هؤلاء المنافقون قد وضعوا خطة الاغتيال على أساس أنها لو نجحت ستبدو وكأنها قضاء وقدر؛ لأن ما قرر هؤلاء المنافقون أن يكون وسيلة قتلة النبي ﷺ له نظائر، فكثيراً ما يحدث لأفراد سبقوه.

فلم يقرر المنافقون (وهم يضعون خطة الاغتيال) أن يقتلوا النبي ﷺ بسيف أو رمح أو سهم، وإنما قرروا زيادة في الكتمان أن يكون قتله عن طريق نفور الناقة التي يركبها وترديها في واد سحيق بحيث لا يكون هناك أمل في سلامته إذا ما تردت به الناقة في الوادي، ولا يكون مجال لاتهام أحد بقتله.

كيف فشلت خطة المنافقين في الاغتيال: كانت خطة المنافقين للاغتيال قابلة للنجاح بسهولة لو أن الجيش كله سلك الطريق الذي كان من المقرر أن يسلكها وهي عقبة تشرف على واد سحيق.

فقد علم المنافقون أنه في هذه العقبة الخطرة سيتزاحم الآلاف من راكبي الخيل والإبل حول الرسول ﷺ، ومن السهل على فئة قليلة من الرجال الازدحام حول الناقة التي يركبها الرسول ﷺ لتنفيذ المؤامرة بحيث يتمكنون في ظلام الليل من العمل بأية وسيلة (في غمرة الازدحام) على إسقاط النبي ﷺ من على ظهر ناقته إلى الوادي للتخلص منه. فيبدو الأمر وكأنه قضاء وقدر. وهذا هو الذي استقر عليه رأي المنافقين

(وهم يضعون خطة الاغتيال) إلا أن النبي ﷺ بلغه خبر المؤامرة في اللحظات الأخيرة، وعندما بلغه ما يدبره المنافقون بالتفصيل عمل على إحباط المؤامرة، فأصدر أمره للجيش كله بأن يغير اتجاه سيره، فيسلك الوادي، بدلاً من أن يسلك العقبة، ثم سلك الرسول ﷺ العقبة وحده ومعه (فقط ثلاثة نفر من أصحابه، وهم : عمار بن ياسر، وحذيفة بن اليمان، وحزمة بن عمرو الأسلمي)^(١).

وهنا بدا وكان محاولة المنافقين قد فشلت نهائياً، لأن هؤلاء المنافقين لا تستطيع العناصر المكلفة منهم بتنفيذ خطة الاغتيال، تنفيذ هذه الخطة؛ لأن انفصال هذه العناصر من الجيش تثير حولهم الشكوك والريب وتجعلهم من المتعمدين مخالفة أوامر الرسول القائد ﷺ. ولكن هؤلاء المنافقين لم يياسوا، فقد مضوا في مخططهم، فاغتنموا فرصة ظلام الليل الذي سيكون مخيماً عندما يمر الرسول ﷺ بالمكان الخطر من العقبة الذي قرروا أن تتم فيه عملية الاغتيال، فوضعوا مخططاً جديداً لاغتيال الرسول ﷺ.

أن يتدب ثلاثة عشر من هؤلاء المنافقين للمهمة.

عليهم أن لا يباشروا المؤامرة إلا إذا خيم الظلام.

عليهم أن يتلثموا عند الشروع في المؤامرة لئلا يتمكن أحد من معرفتهم.

عليهم أن ينصبوا كمينهم في المكان الخطر المحدد من العقبة.

عليهم أن لا يستخدموا أي سلاح من رمح أو سيف أو نبل لتنفيذ الاغتيال.

بل عليهم إذا مر بهم النبي ﷺ في المكان الخطر المحدد من العقبة، أن يزحوا جميعهم ناقته بركابهم ويلجئوها إلى حافة الوادي ثم يقطعون أنساع^(٢) رحلها في الظلام حتى يقع النبي ﷺ عنها إلى الوادي فيموت.

وعلى أساس هذه الخطة شرع المنافقون في المؤامرة الخبيثة الجديدة، إلا أن الرسول ﷺ اكتشفهم عند شروعه في المؤامرة فأحبطها حين أمر حذيفة بن اليمان بمهاجتهم فهاجمهم حذيفة، ولما كانوا لا يريدون أن يعرفهم أحد هربوا ومازالوا يوغلون في الهرب حتى دخلوا في سواد الجيش في الوادي لئلا يعرفهم أحد^(٣).

(١) هو حزمة بن عمرو بن عويمر بن الحارث. وهو من بني أسلم، يكنى أبو صالح، وهو من رواة الحديث فقد روى عنه كثير من الأئمة، منهم يحيى بن سعيد والثوري وشعبة والحمادان. توفي سنة إحدى وستين وهو ابن إحدى وسبعين سنة وقيل ابن ثمانين سنة.

(٢) الأنساع: هي الأحزمة التي يربط ويشد به الرجل على ظهر الناقة أو الجمال.

(٣) انظر إمتاع الأسماع ص ٤٧٧ - ٤٧٨ وزاد المعاد ج ٣ ص ١٦ - ١٧ والبداية والنهاية ج ٥ ص ١٩ و ٢٠ و ٢١.

قال الواقدي يصف هذه المؤامرة الدنيئة: ولما كان رسول الله ﷺ ببعض الطريق مكر به أناس من المنافقين واثتمروا أن يطرحوه من عقبه في الطريق، فلما بلغ رسول الله ﷺ تلك العقبة أرادوا أن يسلكوها معه فأخبر رسول الله ﷺ خبرهم فقال للناس؟ اسلكوا بطن الوادي فإنه أسهل لكم وأوسع، فسلك الناس بطن الوادي وسلك رسول الله ﷺ العقبة، وأمر عمار بن ياسر أن يأخذ بزمام الناقة يقودها، وأمر حذيفة بن اليمان أن يسوق من خلفه. فبينما رسول الله ﷺ يسير في العقبة إذ سمع حس القوم قد غشوه، فغضب رسول الله ﷺ وأمر حذيفة أن يردهم، فرجع حذيفة إليهم وقد رأوا غضب رسول الله ﷺ، فجعل يضرب وجوه رواحلهم بمحجن في يده، وظن القوم أن رسول الله ﷺ قد أطلع على مكرهم، فانخطوا من العقبة مسرعين حتى خالطوا الناس، وأقبل حذيفة حتى أتى رسول الله ﷺ فساق به، فلما خرج رسول الله ﷺ من العقبة نزل الناس، فقال النبي ﷺ: يا حذيفة، هل عرفت أحداً من الركب الذين رددتهم؟ قال: يا رسول الله عرفت فلان وفلان، وكان القوم ملثمين فلم أبصرهم في ظلمة الليل^(١).

وكان هؤلاء المتآمرون قد نجحوا نجاحاً جزئياً عندما شرعوا في مؤامرتهم الخبيثة، حيث تمكنوا من أن يزعجوا ناقة الرسول ﷺ حتى نفرت به فسقط لهذا النفور بعض متاع رحله ولكنه هو ﷺ لم يسقط..

وقال ابن كثير في كتابه (البداية والنهاية): قال ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة بن الزبير قال: لما قفل رسول الله ﷺ من تبوك إلى المدينة، هم جماعة من المنافقين بالفتك بالنبي ﷺ وأن يطرحوه من رأس عقبه في الطريق فأخبر خبرهم، فأمر الناس بالمسير من الوادي وصعد هو العقبة وسلكها، ومعه أولئك نفر قد تلمسوا، وأمر رسول الله ﷺ عمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان أن يمشيا معه، عمار أخذ بزمام الناقة، وحذيفة يسوقها، فبينما هم يسرون إذ سمعوا بالقوم قد غشيوهم، فغضب رسول الله ﷺ وأبصر حذيفة غضبه فرجع إليهم ومعه محجن فاستقبل وجوه رواحلهم بمحجنهن فلما رأوا حذيفة ظنوا أنه قد أظهر على ما أضمره من الأمر العظيم فأسرعوا حتى خالطوا الناس، وأقبل حذيفة حتى أدرك رسول الله ﷺ فأمرهما فأسرعا حتى قطعوا العقبة ووقفوا ينتظرون الناس، ثم قال رسول الله ﷺ لحذيفة هل عرفت هؤلاء القوم؟ قال: ما عرفت إلا

(١) المغازي ج ٣ ص ١٠٤٢ - ١٠٤٣.

رواحلهم في ظلمة الليل حين غشيتهم، ثم قال ﷺ : علمتما من شأن هؤلاء الركب؟ قالوا: لا فأخبرهما بما كانوا تمالثوا عليه وسماهم لهما واستكنتمهما ذلك، فقالوا: يا رسول الله أفلا تأمر بقتلهم؟ فقال: أكره أن يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه.

وقد ذكر ابن إسحاق هذه القصة إلا أنه ذكر أن النبي ﷺ إنما أعلم بأسمائهم حذيفة ابن اليمان وحده، وهذا هو الأشبه والله أعلم، ويشهد له قول أبي الدرداء لعلقمة صاحب ابن مسعود: أليس فيكم - يعني أهل الكوفة - صاحب السواد والوساد - يعني ابن مسعود - أليس فيكم صاحب السر الذي لا يعلمه غيره - يعني حذيفة - أليس فيكم الذي أجازه الله من الشيطان على لسان محمد - يعني عماراً - وروينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أنه قال لحذيفة: أقسمت عليك بالله أنا منهم؟ قال: لا. ولا أبرئ بعدك أحداً - يعني حتى لا يكون مفشياً سر النبي ﷺ -.

وقال ابن كثير: قلت: وقد كانوا أربعة عشر رجلاً وقيل كانوا اثني عشر رجلاً. وذكر ابن إسحاق أن رسول الله ﷺ بعث إليهم حذيفة بن اليمان فجمعهم فأخبرهم رسول الله ﷺ بما كان من أمرهم وبما تمالثوا عليه. ثم سرد ابن إسحاق أسماءهم. قال: وفيهم أنزل الله عز وجل ﴿ وَهُمْ أُولُو أَلْمِ نَآلُوا ﴾^(١).

وروى البيهقي من طريق محمد بن مسلمة عن أبي إسحاق عن الأعمش عن عمرو ان مرة عن أبي البختری عن حذيفة بن اليمان قال: كنت آخذاً بخطام ناقة رسول الله ﷺ أقود به وعمار يسوق الناقة - أو أنا أسوق وعمار يقود - حتى إذا كنا بالعقبة إذا باثني عشر رجلاً قد اعترضوه فيها، قال: فأنبهت رسول الله ﷺ فصرخ بهم فولوا مدبرين. فقال لنا رسول الله : هل عرفتم القوم؟ قلنا: لا يا رسول الله قد كانوا ملثمين ولكننا قد عرفنا الركاب، قال: هؤلاء المنافقون إلى يوم القيامة، وهل تدرون ما أرادوا؟ قلنا: لا. قال: أرادوا أن يزحموا رسول الله في العقبة فيلقوه منها. قلنا: يا رسول الله أو لا تبعث إلى عشائركم حتى يبعث إليك كل قوم برأس صاحبهم؟ قال: (لا) أكره أن يتحدث العرب بينها أن محمداً قاتل بقومه، حتى إذا أظهره الله بهم أقبل عليهم يقتلهم، ثم قال: اللهم ارمهم بالدبيلة. قلنا: يا رسول الله وما الدبيلة؟ قال: هي شهاب من نار تقع على نياط قلب أحدهم فيهلك.

وفي صحيح مسلم من طريق شعبة عن قتادة عن أبي نضرة عن قيس بن عبادة قال قلت لعمار: أرايتم صنيعكم هذا فيما كان من أمر علي، أرايتم رأيتموه أم شيء عهدته إليكم رسول الله ﷺ؟ قال ما عهد إلينا رسول الله ﷺ شيئاً لم يعهده إلى الناس كافة، ولكن حذيفة أخبرني عن رسول الله ﷺ أنه قال: في أصحابي اثنا عشر منافقاً لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط، ثمانية منهم يكفيكمهم الدبيلة سراج من النار يظهر بين أكتفاهم حتى ينجم من صدورهم.

قال الحافظ البيهقي: وروينا عن حذيفة أنهم كانوا أربعة عشر - أو خمسة عشر - ، واشهد بالله أن اثني عشر منهم حرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، وعذر ثلاثة أنهم قالوا: ما سمعنا المنادي ولا علمنا بما أراد.

وهذا الحديث رواه الإمام أحمد في مسنده. قال: حدثنا يزيد - هو ابن هارون - أخبرنا الوليد بن عبد الله بن جميع عن أبي الطفيل. قال: لما أقبل رسول الله ﷺ من غزوة تبوك أمر منادياً فنادى أن رسول الله آخذ بالعقبة فلا يأخذها أحد، فبينما رسول الله ﷺ يقودها حذيفة ويسوقه عمار إذ أقبل رهط متلثمون على الرواحل فغشوا عماراً وهو يسوق برسول الله ﷺ، وأقبل عمار يضرب وجوه الرواحل، فقال رسول الله ﷺ لحذيفة: (قدفد) حتى هبط رسول الله ﷺ فلما هبط ورجع عمار قال: (يا عمار عرفت القوم؟) قال: عرفت عامة الرواحل والقوم متلثمون. قال: (هل تدري ما أرادوا؟) قال: الله ورسوله أعلم، قال: (أرادوا أن ينفروا برسول الله فيطرحوه) قال: فسار عمار رجلاً، من أصحاب النبي ﷺ فقال: نشدتك الله كم كان أصحاب العقبة؟ قال: أربعة عشر رجلاً، فقال: إن كنت فيهم فقد كانوا خمسة عشر، قال فعذر رسول الله ﷺ منهم ثلاثة، قالوا: ما سمعنا منادي رسول الله ﷺ وما علمنا ما أراد القوم. فقال عمار: أشهد أن الاثني عشر الباقيين حرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد^(١).

المطالبة بإعدام المتآمرين: وكان هؤلاء الباطنيون المتآمرون قد نجحوا جزئياً عندما شرعوا في مؤامرة اغتيال الرسول ﷺ تمكنوا من أن يزعجوا ناقة الرسول ﷺ بأساليبهم الخاصة في الظلام حتى نفرت فسقط لهذا النفور من على ظهر الناقة بعض متاع رحله ﷺ، ولكنه هو لم يسقط لأن أمر هؤلاء الخونة اكتشف قبل أن يتمكنوا من تحقيق هدفهم الخبيث، ونجى الله رسوله الحبيب ﷺ من المؤامرة.

قال الواقدي: وكانوا قد أنفروا بالنبى ﷺ فسقط بعض متاع رحله، فكان حمزة بن عمرو الأسلمي يقول: فنور لي في أصابعي الخمس فأضن حتى كنا نجتمع ما سقط من السوط والحبل وأشباههما حتى ما بقى من المتاع شيء إلا جمعناه، وكان لحق النبى ﷺ في العقبة^(١).

وقد بلغ خبر المؤامرة سيد الأوس أسيد بن حضير، فعرض على الرسول ﷺ أن يأمر بإعدام المتآمرين، على أن تتولى كل عشيرة من الأنصار إعدام الرجل المشترك منها في المؤامرة، ولكن الرسول ﷺ آثر الصفح ولم يأخذ باقتراح أسيد بن حضير.

قال أصحاب السير: فلما أصبح رسول الله ﷺ قال له أسيد بن حضير: يا رسول الله ما منعك البارحة من سلوك الوادي، فهو أسهل من العقبة؟ قال: يا أبا يحيى أتدري ما أراد البارحة المنافقون وما اهتموا به؟ قالوا: تتبعه في العقبة، فإذا أظلم الليل عليه قطعوا أنساع راحلتي ونخسوها حتى يطرحوني من راحلتي. فقال أسيد: يا رسول الله، فقد اجتمع الناس ونزلوا، فمر كل بطن أن يقتل الرجل الذي هم بهذا، فيكون الرجل من عشيرته هو الذي يقتله، وإن أحببت، والذي بعثك بالحق، فنبئني بهم، فلا تبرح حتى آتيكم برء وسهم، وإن كانوا في النبيت^(٢) فكفيتكمهم، وأمرت سيد الخزرج فكفأك من في ناحيته، فإن مثل هؤلاء يتركون يا رسول الله؟ حتى متى نداهنهم وقد صاروا اليوم في القلة والدلة، وضرب الإسلام بجرانه، فما يستبقى من هؤلاء؟ قال رسول الله ﷺ لأسيد: إنني أكره أن يقول الناس: إن محمداً لما انقضت الحرب بينه وبين المشركين وضع يده في قتل أصحابه، فقال: يا رسول الله، فهؤلاء ليسوا بأصحاب، قال رسول الله ﷺ: أليس يظهرون شهادة أن لا إله إلا الله؟ فقال: بلى، ولا شهادة لهم قال: أليس يظهرون أنني رسول الله؟ قال: بلى ولا شهادة لهم قال: قد نهيت عن قتل أولئك^(٣).

وقال الواقدي: حدثني معمر بن راشد، عن الزهري، قال: نزل رسول الله ﷺ عن راحلته فأوحى إليه وراحلته باركة، فقامت راحلته تجر زمامها حتى لقيها حذيفة بن اليمان فاخذ بزمامها فاقتادها حين رأى رسول الله ﷺ جالساً، فأناخها ثم جلس عندها

(١) مغازي الواقدي ج ٣ ص ١٠٤٣.

(٢) النبيت هو عمرو بن مالك بن أوس. انظر أنساب الأشراف للبلاذرى ج ١ ص ٢٨٧.

(٣) مغازي الواقدي ج ٣ ص ١٠٤٣ - ١٠٤٤.

حتى قام النبي ﷺ فأناه فقال: من هذا؟ قال أنا حذيفة. فقال النبي ﷺ: فإني مسرّ إليك امرأً فلا تذكره، إني نهيت أن أصلي على فلان، وفلان، وفلان - رهط عدّة من المنافقين - ولا يعلم رسول الله ﷺ لأحد غير حذيفة. فلما توفى رسول الله ﷺ، كان عمر بن الخطاب في خلافته إذا مات رجل يظن أنه من أولئك الرهط، أخذ بيد حذيفة فقادته إلى الصلاة عليه فإن مشى معه حذيفة صلى معه عمر، وإن انتزع يده وأبى أن يمشی انصرف معه.

وقال: حدثني ابن أبي سبرة، عن سليمان بن سحيم عن نافع بن جبير، قال: لم يخبر رسول الله ﷺ أحداً إلا حذيفة وهم اثنا عشر رجلاً - يعني أولئك المنافقين - ليس فيهم قرشي وهذا الأمر مجمع عليه عندنا^(١).

قصة مسجد الضرار وهدمه: فئة المنافقين فئة صارت (منذ تكونت في المدينة) بمثابة غدة السرطان في جسم الأمة الإسلامية، أعيت المسلمين بالأعيها الماكرة، وأتعبت الرسول ﷺ تصرفاتها المشينة التي تلتزم السرية والتكتم في القيام بها، ومصيبة الإسلام والمسلمين بهذه الفئة أنها محسوبة على المسلمين، لأنها (بنطقها بالشهادتين وأدائها الصلوات المفروضة ظاهراً) تحمل الهوية الإسلامية. وبالتزام المنافقين (منذ عرفوا) أسلوب السرية والتكتم في أعمالهم التخريبية وتظاهرهم بالإخلاص للإسلام والمسلمين جعل من الصعب تمييزهم من بين الصحابة الطيبين إلا في النادر. ولهذا لم ينزل الرسول ﷺ أية عقوبة بأيّ واحد منهم. لأنهم في الظاهر مسلمون، ولا يأتون منكرهم إلا سراً.

وصفهم الأستاذ أحمد نار في كتابه «القتال في الإسلام» فقال: هؤلاء هم الذين لا يمكن تبيين نياتهم بسهولة، إذ أن ظاهرهم يدل على حسن نيتهم وباطنهم يدل عليه بعض أعمالهم ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيْطَانِيهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾^(٢)، ويؤدون مهمة القاعدين والمخلفين والمرجفين والمعوقين جميعاً، وهم ألوان شتى يصعب تمييزهم، إلا أنهم يشتركون في صفات عامة، منها أنهم يتهافتون على إظهار حسن نياتهم وعواطفهم الطيبة كذباً وخداعاً بمناسبة وغير مناسبة، وموافقتهم

(١) مغازي الواقدي ج ٣ ص ١٠٤٥.

(٢) البقرة: ١٤.

في المواجهة على كل أمر بغير مناقشة، وهم من وراء ذلك يتلمسون المغامر ويتهزون الفرص فيبتون ويكيدون، وإذا دعوا إلى الإنفاق اعتذروا بلباقة، وإن وعدوا سوفوا وإن دعوا إلى الجهاد قالوا: لو نعلم قتالاً لاتبعناكم، يعرفون في لحن القول والتواء القصد، ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾^(١).

وهم الذين يتخذون من دون الله ورسوله والمؤمنين وليجة، ويقولون: - إن أصاب المسلمين بلاء - ﴿مَا وَعَدْنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾^(٢)، ويتخذون ما ينفقون مغرماً ويتربصون بهم الدوائر، وتراهم يركنون إلى الأعداء ويعملون معهم سراً وعلانية ويتبعون عندهم العزة.

ويختلف خطرهم باختلاف نوع النفاق الذي عندهم وعقابهم واحد إلا من كان ضعيفاً لا صلة له بالعدو مثل الذين قال الله تعالى في حقهم ﴿وَأَخْرُوتَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾^(٣) وآيات التعرف عليهم في القرآن الكريم كثيرة، وعلاجهم بحسب درجتهم من النفاق، فمنهم من يعامل معاملة المرجفين ومنهم من ترك له فرصة التوبة.

ومنهم صنف شديد الخفاء هو أشد خطراً وقد تكفل الله سبحانه وتعالى بالإحاطة بهم كما قال: ﴿وَمِنَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى الْإِنْفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾^(٤). ومن العجيب أن المنافقين يمتازون بكثير من الذكاء ولكن نقصهم الخلقي هو الذي يدفعهم على المواقف المزدلة، ولولا حب الجاه والمال ومتاع الحياة الدنيا والحسد لكان لهم شأن غير ما هم فيه وهم على اختلاف ألوانهم ﴿بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

مسجد الضرار وكر للتأمر: كان المنافقون دائماً أشبه بالجمعيات السرية التي تعمل

(١) البقرة: ١١.

(٢) الأحزاب: ١٢.

(٣) التوبة: ١٠٧.

(٤) التوبة: ١٠٢.

بتكتم شديد ضد العهد القائم، وكان هؤلاء المنافقون شديدي التكتم في نشاطاتهم التخريبية ضد الإسلام لثلا يقعون تحت طائلة القانون الإسلامي إذا أدينوا بعمل ضده يستحق العقوبة، وكانوا زيادة في الرغبة لتحقيق مآربهم الخبيثة للإطاحة بالإسلام صاروا يظهرون له الولاء ولنبهه بينما يعملون في الباطن على كل ما يضر بالجميع.

وفي جوّ الحرية التي يتمتعون بها لانتسابهم إلى الإسلام كانوا فيما بينهم يتفوهون بكل ما يريدون ضد النبي ﷺ وأصحابه ، ولكنهم عندما يكونون بين أصحاب الرسول ﷺ يتضايقون إذ لا يستطيعون أن يحيكوا ويقولوا ويفعلوا ما يريدون ضد الإسلام مثلما يكونون منفردين مع بعضهم البعض. وكان في العهد النبوي المسجد هو المكان الذي مفروض على المسلمين غير المرضى والعاجزين أن يجتمعوا فيه جميعاً خمس مرات خلال الأربع والعشرين الساعة، وذلك لأداء الصلاة المفروضة. وكان المنافقون يجتمعون في المسجد مع المسلمين في هذه الأوقات وذلك باعتبارهم جزءاً من الأسرة الإسلامية، وكان اجتماعهم في المسجد كل المرات الخمس هذه يتيح لهم الفرص ليتناجوا فيما بينهم بالدس والكيد للإسلام والمسلمين، ولكنهم كانوا يتخوفون لأن المسلمين ينظرون إليهم بعين الريبة والشك، فيتضايقون لذلك ولا يستطيعون العمل بحرية، وقد عبّر عن هذه الحقيقة «التي عليها المنافقون من التضايق»، زعيمهم أبو عامر الفاسق المسمى عندهم بالراهب حين قال مفصلاً عن نظرات الشك والريبة التي ينظر بها المسلمون إلى المنافقين عندما يحضرون معهم المسجد للصلوات: «لا أقدر أن أدخل مربدكم^(١) هذا - يعني الخبيث المسجد - وذلك أن أصحاب محمد يلحظوني وينالون مني ما أكره»^(٢).

لذلك قرروا «وبإيحاء من زعيم ناحيتهم بقاء أبي عامر الفاسق» أن يبنوا لهم وكرماً يكون مقرّاً لاجتماعاتهم يعملون فيه بحرية ضد الإسلام والمسلمين. وقد ذهب بهم الإيغال في المكر والخبث إلى أن يجعلوا مركز التآمر واليد هذا على صورة مسجد كي يبعثوا الشبهة عن أنفسهم، لأن أحداً لن يعترض على بناء مسجد الذي لا يبني عادة إلا

(١) المرید: الموضع الذي تحبس فيه الإبل والغنم.

(٢) مغازي الواقدي ج ٣ ص ١٠٤٩.

لعبادة الله تعالى. وكانت الفكرة من اختراع أبي عامر الفاسق الذي حضر مع المشركين معركة أحد ضد المسلمين وركل جثة ابنه الشهيد غسيل الملائكة حنظلة بن أبي عامر، الراهب «الفاسق» من أخبث المنافقين، وابنه حنظلة من أفضل وأصلح شباب الإسلام. وقد خرجت فكرة أبي عامر الراهب الخبيثة إلى حيز الوجود حيث بتشجيع منه وتشجيع أمثاله بني المنافقون لهم مسجداً، واختاروا ضاحية من ضواحي المدينة وهي ضاحية قباء التي تبعد عن المدينة حوالي ميلين، ويظهر أنهم اختاروا هذه الضاحية لما فيها من هدوء ولبعدها عن المدينة التي بها مركز النبي ﷺ ومسجده الشريف . وكان في هذه المنطقة «قباً» بنى أول مسجد في الإسلام، وظل هذا المسجد محلاً لإقامة شعائر الإسلام في ذلك الحى، وهو حي بني عمرو بن عوف الذين كان المسجد مفخرة لهم.

أما مسجد المنافقين الذي بنى في هذه المناطق والذي أطلق عليه فيما بعد مسجد الضرار فقد بنى ليكون وكراً للتأمر والشغب على النبي ﷺ وأصحابه. ونقل عن المنافقين أنهم قالوا: بنى مسجداً فنقيل فيه فلا نحضر خلف محمد، وقيل: إن أبا عامر الفاسق أمر ببناء مسجد الضرار قبل خروجه إلى الشام، وقال لأنصاره: ابنوا لي مسجداً واستعدوا ما استطعتم من قوة وسلاح فإني ذاهب إلى قيصر الروم فأتى بجند من الروم فأخرج محمداً وأصحابه من المدينة.

وروى أن السبب في بناء هذا المسجد أنه لما فرغ الناس من أحد رأى أبو عامر الفاسق أن أمر الرسول في ارتفاع وظهور، فذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبي ﷺ فوعده ومناه وأقام عنده وكتب إلى جماعة من قومه من أهل النفاق والريب يعدهم ويمنيهم انه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله ﷺ، وأمرهم أن يتخذوا له معقلاً يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كتبه ويكون مرصداً له إذا قدم عليه بعد ذلك فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء فبنوه وأحكموه وفرغوا منه قبل خروج رسول الله ﷺ إلى تبوك^(١).

(١) النفاق والمنافقون ص ٢٦٣.

كاد الرسول أن يصلي في مسجد الضرار : ولما درج عليه المنافقون من قدرة على إخفاء نواياهم الشريرة وإظهارهم خلاف ما يبطنون ولكي يكون لوكرهم هذا - مسجد الضرار - صفة الشرعية ولكي يحصلوا له على دعم معنوي طلبوا إلى الرسول ﷺ - بعد الانتهاء من بناء هذا المسجد - أن يؤدي ﷺ فيه الصلاة، فوعدهم الرسول ﷺ أن يفعل ولكن بعد عودته من تبوك، وكاد الرسول ﷺ أن يصلي في مسجد الضرار وفاء بالوعد الذي أعطاه لأولئك المنافقين الذين لا يعلمهم، إلا أن القرآن نزل بهدم هذا المسجد بدلاً من الصلاة فيه، فحرقه الرسول ﷺ بالنار وحرق معه دارين بجواره لكبيرين من كبار المنافقين.

وهكذا وبينما كان هؤلاء المنافقون يفكرون أيديهم فرحاً لأن النبي ﷺ سيصلي في وكر الجاسوسية «مسجد الضرار» إذا بالسنة اللهب تلتهم هذا الوكر وبعضهم بداخله ففرروا مجلدتهم وتركوه طعمة للنيران.

فقد جاء في كتب المغازي والسير أن الرسول ﷺ لما كان بوادي ذي أوان ضواحي المدينة « وهو في طريقه إلى تبوك جاءه أصحاب مسجد الضرار. قال الواقدي: جاءه خمسة نفر منهم: معتب بن قشير وثعلبة بن أبي حاطب، وخدام بن خالد، وأبو حبيبة بن الأزعر، وعبد الله بن نبتل بن الحارث. فقالوا: يا رسول الله إنا رسل من خلفنا من أصحابنا، إنا قد بنينا مسجداً لذي القلعة والحاجة، والليلة المطيرة، والليلة الشتائية، ونحن نحب أن تأتينا فتصلي بنا فيه، ورسول الله ﷺ جهز إلى تبوك. قال رسول الله ﷺ: إني على جناح سفر وحال شغل، ولو قدمنا إن شاء الله أتيناكم فصلينا بكم فيه. فلما نزل رسول الله ﷺ بذي أوان راجعاً من تبوك أتاه خبره وخبر أهله من السماء وكانوا إنما بنوه، فيما قالوا بينهم، يأتينا أبو عامر^(١) فيتحدث عندنا فيه، فإنه يقول: لا أستطيع آتي مسجد بني عمرو بن عوف «يعني مسجد قباء، إنما أصحاب رسول الله ﷺ يلحظوننا بأبصارهم، يقول الله تعالى: ﴿ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ يعني أبا عامر الفاسق.

(١) أبو عامر الراهب هذا الذي أطلق عليه اسم الفاسق « كان يترهب في الجاهلية، فلما جاء الله بالإسلام غص به فالتجأ هو وخمسون من أصحابه الأوس إلى قريش بمكة وحضر معهم ضد المسلمين معركة أحد وقد حاول ابنه حنظلة قتله يوم أحد ولكنه لم يتمكن من ذلك. ولم يذكر المؤرخون كيف عاد أبو عامر هذا إلى المدينة وكيف سمح له الرسول ﷺ بالإقامة فيها. ولكن يظهر أنه تظاهر بالإسلام مثل غيره من المنافقين فتركه الرسول ﷺ وشأنه كما هي سياسته حيال المنافقين.

وعندما نزل القرآن يوضح لرسول الله ﷺ أن ذلك المسجد المشبوه إنما هو مرصد يترصد فيه المنافقون المسلمون ويتخذونه مقرًا لمحاربة الله ورسوله استدعى رجلين من أصحابه - وهما عاصم بن عدي بن العجلان^(١) ومالك ابن الدخشم السلمي^(٢) وأصدر إليهما أمره بأن يتوليا تدمير مسجد المنافقين إياه بالنار، حيث قال لهما: انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه ثم حرقاه، فخرجا سريعين على أقدامهما حتى أتيا مسجد بني سالم. فقال مالك بن الدخشم لعاصم بن عدي: أنظرني حين أخرج إليك بنار من أهلي. فدخل إلى أهله فأخذ سعفا من النخل فأشعل فيه النار. ثم خرجا سريعين يعدوان حتى انتهيا إليه بين المغرب والعشاء وهم «أي المنافقون» فيه، وإمامهم يومئذ مجمع بن جارية^(٣)، فقال عاصم: ما أنسى تشرفهم إلينا كأن آذانهم آذان السرحان، فأحرقناه حتى احترق، وكان الذي ثبت فيه زيد بن جارية بن عامر حتى احترقت إلبتهن فهدمناه حتى وضعناه بالأرض وتفرقوا.

فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة عرض على عاصم بن عدي المسجد يتخذه دارًا - وكان بين دار وديعة بن ثابت ودار أبي عامر «الراهب» إلى جنبهما فأحرقوهما معه - فقال عاصم: ما كنت لأتخذ مسجداً قد نزل فيه ما نزل داراً، وأن بي عنه لغنى يا رسول الله، ولكن أعطه ثابت بن أقرم^(٤) فإنه لا منزل له. فأعطاه ثابتاً.

وكان أبو لبابة بن عبد المنذر^(٥) قد أعانهم فيه بخشب، وكان غير مغموص عليه في النفاق ولكنه كان يفعل أموراً تكره له. فلما هدم المسجد أخذ أبو لبابة خشبه ذلك فبنى به منزلاً، وكان بيته الذي بناه إلى جنبه. قال: فلم يولد له في ذلك البيت مولود قط، ولم يقف فيه حمام قط، ولم تحضن فيه دجاجة قط.

(١) عاصم هذا يعد في البدرين رغم أنه لم يحضر بدر. انظر ترجمته في كتابنا (غزوة بدر).

(٢) انظر ترجمة مالك بن الدخشم في كتابنا (غزوة بدر الكبرى).

(٣) مجمع بن جارية هذا من الأوس وكان أبوه جارية بن عامر من المنافقين الذين اتخذوا مسجد الضرار، ولكن مجعاً كان شاباً صالحاً وكان يصلي بالمنافقين ولكنه لا يعلم خبث نواياهم وسوء طوياهم. وقد جعله عمر ابن الخطاب يصلي بقومه، وقد جمع القرآن إلا سورة أو سورتين. انظر ترجمته مفصلة في «أسد الغابة».

(٤) انظر ترجمته في كتابنا (غزوة مؤتة).

(٥) انظر ترجمة أبي لبابة في كتابنا (غزوة بني قريظة).

وكان الذين بنوا مسجد الضرار اثنا عشر رجلاً، وقال الواقدي: خمسة عشر رجلاً ولكن الواقدي لم يذكر سوى اسم اثني عشر وهم: جارية بن عامر «وهو الملقب بجمار الدار» وابنه مجمع «ولم يكن منافقاً» وهو إمامهم، وابنه زيد بن جارية - وهو الذي احترقت إلبته فأبى أن يخرج - وابنه يزيد بن جارية، ووديعه بن ثابت، وخدام بن خالد - ومن داره أخرج - وعبد الله بن نبتل، ومجاد بن عثمان، وأبو حبيبة بن الأزعر، ومعتب بن قشير، وعباد بن حنيف وثعلبة بن حاطب.

وقد قال رسول الله ﷺ في خدام ومجاد: زمام خير من خدام وسوط خير من مجاد. وكان مخبر هؤلاء المنافقين وجاسوسهم على رسول الله ﷺ هو عبد الله بن نبتل، وكان يأتي رسول الله ﷺ فيسمع حديثه ثم يأتي المنافقين به. فجاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد، إن رجلاً من المنافقين يأتيك فيسمع حديثك، ثم يذهب به إلى المنافقين، قال رسول الله ﷺ: أيهم هو؟ قال: الرجل الأسود ذو الشعر الكثير، الأحمر العينين كأنهما قدران من صفر، كبده كبد حمار فينظر بعيني شيطان.

وكان عاصم بن عدي قد أدرك قبل التحرك إلى تبوك أن هذا المسجد «الوكر» إنما هو من بناء المنافقين المجرمين، فكان يحدث فيقول: كنا نتجهز على تبوك مع النبي ﷺ فرأيت عبد الله بن نبتل، وثعلبة بن حاطب قائمين على مسجد الضرار، وهما يصلحان ميزاباً قد فرغا منه، فقالا: يا عاصم، إن رسول الله ﷺ قد وعدنا أن يصلي فيه إذا رجع. فقلت في نفسي: والله ما بنى هذا المسجد إلا منافق معروف بالنفاق أسسه أبو حبيبة ابن الأزعر، وأخرج من خدام، ووديعه بن ثابت في هؤلاء النفر.. - والمسجد الذي بنى رسول الله ﷺ بيده يؤسس جبريل عليه السلام يؤم به البيت - فو الله ما رجعنا من سفرنا حتى نزل القرآن بدمه وذم أهله الذين جمعوا في بناءه وأعانوا فيه.

وقيل لعاصم بن عدي - وكان خبيراً بالمنافقين - : ولم أرادوا بناءه؟ قال كانوا يجتمعون في مسجدنا، وإنما هم يتناجون فيما بينهم ويلتفت بعضهم إلى بعض فيلحظهم المسلمون، فشق ذلك عليهم وأرادوا مسجداً يكونون فيه لا يغشاهم فيه إلا من يريدون ممن هو على مثل رأيهم، فكان أبو عامر يقول: لا أقدر أن أدخل مريدكم هذا وذاك أن أصحاب محمد يلحظوني وينالون مني ما أكره، قالوا: نحن نبنى مسجداً نتحدث فيه عندنا^(١).

(١) مغازي الواقدي ج ٣ ص ١٠٤٥ - ١٠٤٦، ١٠٤٧، ١٠٤٨، ١٠٤٩ - زاد المعاد ج ٣ ص ١٩ - ٢٠ وسيرة ابن هشام ج ٤ ص ١٧٣ - ١٧٤ والبدية والنهاية ج ٥ ص ٢١ - ٢٢ والسيرة الحلبية ج ٣ وجامع السيرة ص ٢٥٣ - ٢٥٤ وإمتاع الأسماع ص ٤٨٠ - ٤٨١ - ٤٨٢ - ٣٨٣ وطبقات ابن سعد الكبرى ج ٢.

وفي مسجد الضرار أنزل الله تعالى قوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (١) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ مُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ (٢) أَفَمَنْ أُسِّسَ بُنْيَنُهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أُسِّسَ بُنْيَنَهُ عَلَى شَفَا حُجْرٍ مُرَبَّيَةٍ فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٣) وعندما عاد النبي ﷺ من تبوك إلى المدينة جعل النساء والصبيان والولائد يقلن:

طلع البد علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

قال البيهقي: وهذا يذكره علماؤنا عند مقدمه المدينة من مكة، إلا أن انشاءه لما قدم المدينة من ثنيات الوداع عند مقدمه من تبوك والله أعلم (٤) .. قلت من المحتمل جداً أن يكون النساء والصبيان والولائد أنشدن هذا الشعر إعادة، كما يحدث في كثير من المناسبات والله أعلم.

وروى البخاري في صحيحه أن النبي ﷺ حين دنا من المدينة قال: «إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا مَا سَرْتُمْ مَسِيرًا وَلَا قَطَعْتُمْ وادِيًا إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ» فقالوا: يا رسول الله وهم بالمدينة؟ قال: وهم بالمدينة حسبهم العذر، وفي صحيح البخاري عن أبي حميد قال: أقبلنا مع رسول الله ﷺ من غزوة تبوك حتى إذا أشرفنا على المدينة قال: «هذه طابة، وهذا جبل أحد يحبنا ونحبه. وقال البخاري: حدثنا عبد الله بن محمد حدثنا سفيان عن الزهري عن السائب بن يزيد قال: أذكر أنني خرجت مع الصبيان تتلقى رسول الله ﷺ إلى ثنية الوداع مقدمه من غزوة تبوك.

قصة الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك فتاب الله عليهم: الضعف البشري يكاد يكون من الصفات التي لا تفارق الإنسان، بل هي من صفاته الأساسية وحتى في العهد النبوي، عهد الإيمان والصدق والتضحية والفداء والصبر والإيمان ونكران الذات في سبيل نصره العقيدة. حتى في ذلك العهد المثالي المشرق الذي جيله هم المثل الأعلى لمن أتى بعدهم

(١) التوبة : ١١٠ .

(٢) البداية والنهاية ج ٥ ص ١٢٢ .

في السمو والبذل والعطاء إلى حد السخاء بالروح في سبيل دعم العقيدة، حتى في ذلك العهد النبوي - حيث كان الوحي ينزل من السماء على رسول الأمة ﷺ - فعل الضعف البشري فعله الجالب للعقوبة في مجموعة من الصفوة المختارة من أصحاب محمد ﷺ، فأتوا ما نكد عليهم صفو حياتهم وعمل تمزيقاً بخناجر الهم والحزن في قلوبهم الطاهرة التي لم يخالطها شك أو ارتباب في الدين الذي ناصره والنبى الذي أحبوه بكل معاني هذه الكلمة، إذ تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك لا عن ضعف في الإيمان أو جذب في العقيدة أو تذبذب في الإسلام، ولكن كان تخلفهم تحت تأثير الضعف البشري الذي في فترة من هذا الضعف - حب إليهم الراحة والدعة في الظل بين الأهل وطيب الثمار على مشقة الغزو والجهاد في الحر والتكشف وشطف العيش، فاستجابوا - مع التردد - لهذا الضعف البشري، فتخلفوا عن رسول الله ﷺ، فكانت لهم محنة وأية محنة قاسية، لم يخرجهم وينجيهم من برائنها التي أخذت كلاليتها بمخانتهم إلا الصدق.

فترفع بهم إيمانهم الصادق عن أن يسلكوا سبيل المنافقين، فيعتذروا ويكذبوا، مع علمهم أنهم ليس لهم عذر في هذا التخلف إلا الضعف البشري - إن أمكن تسميته عذراً - وذلك هو الذي رشحهم للنجاة من غضب الله تعالى، فتاب الله عليهم بعد أن كادوا أن يهلكوا، تاب الله عليهم؛ لأنهم اعترفوا بذنوبهم، فأقروا لرسول الله ﷺ - بأنهم لم يكن لهم أي عذر حين تخلفوا عن المفروض على كل قادر من المسلمين، فأرجأ الرسول ﷺ البت في أمرهم منتظراً أمر الله تعالى فيهم، وأمر المسلمين بمقاطعتهم، وأمرهم كذلك بأن يعتزلوا نساءهم حتى نزل القرآن بتوبتهم.

إن قصة توبة هؤلاء الصحب الكرام الثلاثة شيقة وشاقة وصعبة، فقد نالهم نتيجة صدقهم الكامل الشيء العظيم من الآلام النفسية المبرحة والتعرض للفتنة القاسية، ولكن إيمانهم الصادق صمد لكل ذلك، رغم ما سبب لهم هذا الصدق من محن شديدة وآلام نفسية كادت أن تأتي على نفوسهم فيموتوا كمدًا.

فقد شاء الله أن لا يتذوقوا حلاوة الصدق وبهجة نتائجه إلا بعد أن تجرعوا كؤوس مرارة الصبر عليه، وفي ذلك عبر ومواعظ ودروس للمؤمنين، فالمؤمن «إذا أخطأ» فلا يتهرب ولا يتبرم من الاعتراف «صادقاً» بالخطأ، حتى وإن كانت نتائج هذا الصدق قاسية. ففي الغالب «وفي مجال الخطأ» تكون نتائج التزام الصدق - دونما لف أو دوران متاعب كبيرة في هذه الدنيا، ولكن يقابلها في النهاية سعادة أخرى، لأن الآلام الناتجة عن

التزام الصدق آلام عابرة رغم شدتها، ولكن لذائد الصدق في النهاية لذائد لا تنتهي. ففي الدنيا يشعر الصادق - بعد تعرضه لموجات آلام الاعتراف بالخطأ - بسعادة نفسية لا تعادلها سعادة، والسعادة الكبرى والأكبر هي سعادته الأبدية في الآخرة جزاء التزامه الصدق.

ولما كان في قصة هؤلاء الصحب الكرام الثلاثة الذين تخلفوا دونما مبرر» عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك لما في هذه القصة من دروس عالية في الصدق ومحاسبة النفس على خطئها وفي الثبات على الإيمان والاستجابة لنداء الضمير بعد استيقاظه إن صح هذا التعبير سنروي لكم قصة هؤلاء الثلاثة الذين أشار القرآن الكريم إلى تخلفهم وكيف تاب الله عليهم، وذلك ليدرك الإنسان أي إنسان كيف أن الصدق وخاصة من الإنسان ضد نفسه إذا أخطأ هو الذي ينجي صاحبه كل النجاة، وكيف أن الله تعالى يقبل التوبة الصادقة من عباده إذا أخلصوا في محاسنهم بالصدق والتوبة مهما كانت معصيتهم حتى ولو كانت الشرك الأكبر ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾^(١).

إن هؤلاء الثلاثة من الصحب الكرام الذين أذنبوا بتخلفهم عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك هم من الأنصار، وهم «كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع» وقصتهم كما رواها عامة أصحاب الحديث والسير والمفسرون كما يلي:

قال كعب بن مالك: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها، غير أنني تخلفت في غزوة بدر ولم يعاتب أحدًا تخلف عنها، إنما خرج رسول الله ﷺ يريد غير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواتقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها.

كان من خبري أنني لم أكن قط أقوى ولا أيسر حين تخلفت عنه في تلك الغزوة، والله ما اجتمعت عندي قبله راحلتان قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة، ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا وري بغيرها حتى كانت تلك الغزوة «يعني غزوة تبوك» غزاها رسول الله ﷺ في حر شديد واستقبل سفرًا بعيدًا ومفازًا وعدوًا كثيرًا، فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا، فأخبرهم بوجهه الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير ولا

يجمعهم كتاب حافظ.. ويستطرد كعب بن مالك فيقول: وغزا رسول الله ﷺ حين طابت الثمار والظلال، وتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه، فطفقت لكي أعدو أتجهز معهم فأرجع ولم أقض شيئاً فأقول في نفسي: أنا قادر عليه، فلم يزل يتمادى بي حتى اشتد بالناس الجهد فأصبح رسول الله ﷺ والمسلمون معه ولم أقض من جهازي شيئاً فقلت: أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم أحققهم، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز ولم أقض شيئاً، ثم غدوت ورجعت ولم أقض شيئاً ثم غدوت ورجعت ولم أقض شيئاً فلم يزل بي حتى أسرعوا وتفارطوا، وهممت أن أرتحل فأدركهم وليتني فعلت فلم يقدر لي ذلك.

فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفت فيهم أحزني، لأنني لا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه في النفاق أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء، ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس، ما فعل كعب بن مالك؟ فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله حبسه برداه ونظر في عطفه. فقال معاذ بن جبل: بئس ما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً فسكت رسول الله ﷺ.

وإذا كان كعب بن مالك قد ذكر في بعض قصة تخلفه الحقيقة في صدق المؤمن وإيمان الصادق بأن لا عذر له في التخلف عن رسول الله ﷺ، فإن صاحبيه هلال بن أمية ومرارة بن الربيع لم يكونا بأقل منه مستوى من حيث الصراحة مع أنفسهما ومع رسول الله ﷺ حين صدقاه الحديث بأنهما لم يكن لهما عذر في التخلف، فعلم الله ما في أنفس الثلاثة فتاب سبحانه وتعالى عليهم جميعاً.

ولترك هلال بن أمية يحدثنا قصته وقصة زميله مرارة بن الربيع. قال هلال بن أمية حين تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك: والله ما تخلفت شكاً ولا ارتياباً، ولكن كنت مقوياً في المال. قلت: أشتري بعيراً، ولقيني مرارة بن الربيع، فقال أنا رجل مقو فابتاع بعيراً وأنطلق به. فقلت: هذا صاحب أرافقه، فجعلنا نقول نغدو فنشتري بعيرين فنلحق بالنبي ﷺ ولا يفوت ذلك نحن قوم مخفون على صدر راحلتين فغدا نسير فلم نزل ندفع ذلك ونؤخر حتى شارف رسول الله ﷺ البلاد. فقلت: ما هذا بحين خروج، وجعلت لا أرى في الدار ولا في غيرها إلا معذوراً أو منافقاً معلناً فأرجع مغتماً بما أنا فيه، وكان أبو خيثمة قد تخلف معنا، وكان لا يتهم في إسلامه ولا يغمص عليه فعزم على ما عزم، وكان أبو خيثمة يسمى عبد الله بن خيثمة السالمي، فرجع بعد أن سار رسول

الله ﷺ حتى دخل على امرأتين له في يوم حار فوجدتهما في عريشين لهما، قد رشت كل واحدة منهما عريشها وبردت له فيه ماءً وهيأت له فيه طعاماً. فقال: سبحان الله، رسول الله ﷺ قد غفر له من ذنبه ما تقدم وما تأخر في الضح (١) والريح والحر يحمل سلاحه على عنقه وأبو خيثمة في ظلال بارد وطعام مهياً وامرأتين حسناوين مقيم في ماله، ما هذا بالنصف، ثم قال: والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى أخرج فألحق برسول الله ﷺ فأناخ ناضحه - يعني بعيره - وشد عليه قبه وتزود وارتحل، فجعلت امرأته تكلمانه ولا يكلمهما حتى أدرك عمير بن وهب الجمحي (٢) بوادي القرى يريد النبي ﷺ فصحبه فترافقا، حتى إذا دنوا من تبوك قال أبو خيثمة: يا عمير إن لي ذنوباً وأنت لا ذنب لك فلا عليك أن تخلف عني حتى آتى رسول الله ﷺ قبلك ففعل عمير، فسار أبو خيثمة حتى إذا دنا من رسول الله ﷺ وهو نازل بتبوك قال الناس: هذا راكب الطريق.

قال رسول الله ﷺ: كن أبا خيثمة. فقال الناس: يا رسول الله هذا أبو خيثمة، فلما أناخ أقبل فسلم على النبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: أولى لك يا أبا خيثمة، ثم أخبر رسول الله ﷺ الخبر، فقال له رسول الله ﷺ: خيراً ودعا له.

هذه القصة رواها - بكل صدق ونزاهة وتجرد وأمانة - أحد الثلاثة الذين تخلفوا، وكاد أبو خيثمة أن يكون منهم لولا أنه تغلب على ضعفه البشري فلحق برسول الله ﷺ وبقي الثلاثة من الصحب الكرام (كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع) يتجرعون هموم تخلفهما عن رسول الله ﷺ؛ لأن حرارة الإيمان الصادق أيقظت ضمائرهما العامرة بالصدق والطهارة والنقاء فتحملوا - نتيجة تغلب الضعف البشري عليهم - الشيء العظيم، وكان لهم الثقل الذي تحملوه وشعروا بثقله يكاد يقطع نياط قلوبهم بعد فوات الأوان دليل عافية في إيمانهم، فلولا هذا الإيمان الصادق ما أشغلوا بالهم، وما تحملوا منه ما تحملوا مما كاد أن يودي بحياتهم، فقد كان بإمكانهم أن ينتحلوا الأعذار ويبرروا تخلفهم أمام الرسول ﷺ بأي مبرر كاذب كما فعل المنافقون الذي قبل منهم الرسول ﷺ عذرهم مع انطوائهم على الغش والكذب والتزوير، ولكن كيف لإيمان كعب بن مالك شاهد بيعة العقبة وصاحبيه المؤمنين أن يسلكوا طريق المنافقين

(١) الضح - بكسر الضاد - : ضوء الشمس إذا استمكن من الأرض.

(٢) انظر ترجمة عمير بن وهب في كتابنا غزوة بدر الكبرى.

الشائن المنحط، وهم الذين لم يجد الشك والريبة الطريق إلى قلوبهم لحظة واحدة في حياتهم، فاعتصموا لذلك بقلعة الصدق، وقالوا لرسول الله ﷺ الحقيقة دونما أي (تغليظ أو طلاء أو رتوش) فدفعوا ثمن هذا الصدق غالياً، كؤوساً مترعة بالكروب والهموم، تجرعوها عشرات الأيام حينما أمر رسول الله ﷺ المسلمين بمقاطعتهم حين لم يقدموا عذراً، بل اعترفوا بتقصيرهم لدى التحقيق الذي أجراه الرسول ﷺ مع كل الذين ينتسبون إلى الإسلام وتحلفوا عن غزوة تبوك.

أما المنافقون وهم كثر» فقد أسعفهم جذب قلوبهم من الإيمان على أن يقدموا لرسول الله ﷺ من المعاذير ما يخالف الحقيقة، فقبل عذرهم واعتذارهم الظاهر ووكّل باطنهم إلى الله الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور؛ لأنه ﷺ بشر لا يعلم من الغيب شيئاً إلا ما أخبره الله تعالى به عن طريق الوحي. أما كعب بن مالك وصاحبه المبرآن من الدخّل والنفاق فقد اعترفوا بذنبهم، فأعلنوا أنهم حين تحلفوا لم يكن لتخلفهم من مبرر فأسلموا أمرهم لله، فأمر الرسول ﷺ بتركهم وشأنهم، بل وبمقاطعتهم حتى بتّ القرآن في قضيتهم، فنزل بتوبتهم.

كعب بن مالك يتحدث عن مأساته: ويحدثنا كعب بن مالك عن مأساته القاسية وكيف أنه لم يكن أمامه وصاحبيه مخرج سوى شيء واحد يقولونه لدى استجواب الرسول ﷺ لهم: لماذا تحلفوا عن واجب الجهاد في سبيل الله تعالى، كما يحدثنا كعب عن فئات المنافقين الذين اختصروا ما يمكن أن يواجهوا من متاعب لتخلفهم، وذلك بلجئهم إلى الكذب والتزوير بإظهارهم خلاف ما يبطنون.

قال كعب بن مالك: لما بلغني أن رسول الله ﷺ قدم قافلاً من تبوك حضرني بتي، فجعلت أتذكر الكذب وأقول: بماذا أخرج من سخط رسول الله ﷺ غداً وأستعين على ذلك كل ذي رأي من أهلي، حتى ربما ذكرته للخادم رجاء أن يأتيني بشيء أستريح إليه، فلما قيل: إن رسول الله ﷺ قد أظلم قادمًا، زاح عني الباطل، وعرفت أنني لا أنجو منه إلا بالصدق فأجمعت أن أصدقه وصبح رسول الله ﷺ المدينة، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاء المخلفون يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم وأيمانهم ووكّل سرائرهم إلى الله تعالى.

ويقال من غير حديث كعب: إن رسول الله ﷺ لما نزل بذي أوان خرج عامة المنافقين الذين تحلفوا عنه: فقال رسول الله ﷺ: لا تكلموا أحداً منهم تحلف عنا ولا

تجالسوه حتى آذن لكم، فلم يكلموهم، فلما قدم المدينة جاءه المعذرون يجلفون له وأعرض المؤمنون عنهم حتى إن الرجل ليعرض عن أبيه وأخيه وعمه، فجعلوا يأتون النبي ﷺ ويعتذرون إليه بالحمى والأسقام، فيرحمهم رسول الله ﷺ ويكلهم وأيمانهم، فحلفوا فصدقهم واستغفر لهم، ويكل سرائرهم إلى الله عز وجل.

قال كعب بن مالك: جئت النبي ﷺ وهو جالس في المسجد، فسلمت عليه، فلما سلمت عليه تبسم تبسم الغضب، ثم قال لي تعال، فجلت أمشي ثم جلست بين يديه فقال لي: ما خلقتك؟ ألم تكن ابتعت ظهرك؟ فقلت: يا رسول الله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر، لقد أعطيت جدلاً، ولكن والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديثاً كاذباً لترض عني ليوشكن الله عز وجل أن يسخط عليّ، ولئن حدثتك اليوم حديثاً صادقاً تجد^(١) عليّ فيه، إني لأرجو عقبى الله فيه. ولا والله ما كان لي عذر، والله ما كنت أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك، فقال رسول الله ﷺ: أما أنت فقد صدقت فقم حتى يقضي الله عز وجل فيك، فقامت وقام معي رجال من بني سلمة، فقالوا لي: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا، وقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المخلفون، فقد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك. فوالله ما زالوا بي يؤنبونني حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله ﷺ فأكذب نفسي، فلقيت معاذ بن جبل وأبا قتادة فقالا لي: لا تطع أصحابك وأقم على الصدق، فإن الله سيجعل لك فرجاً ومخرجاً إن شاء، فأما هؤلاء المعذرون، فإن يكونوا صادقين فسيرضى الله ذلك ويعلمه نبيه، وإن كانوا على غير ذلك يذمهم أقبح الذم ويكذب حديثهم، فقلت لهم: هل لقي هذا غيري؟ قالوا: نعم، رجلان قالوا مثل مقالتك، وقيل لهما مثل ما قيل لك. قلت: من هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع وهلال بن أمية الواقفي. فذكروا لي رجلين صالحين فيهما أسوة وقدوة.

فرض العزل الاجتماعي على الذين حلفوا: ثم يتحدث كعب بن مالك عن الآلام النفسية المبرحة التي عاناها وصاحباها نتيجة العزل الاجتماعي الذي فرضه الرسول ﷺ عليهم فيقول: ونهى رسول الله ﷺ عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا، حتى تنكرت لي نفسي والأرض التي كنت أعرفها، فلبشنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي فاستكانا فقعدا في بيوتهما، وأما أنا فكنت أشد

(١) تجد: أي تغضب «النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ج ٤ ص ١٩٦».

القوم وأجلدهم، وكنت أخرج وأشهد الصلوات مع المسلمين وأطوف بالأسواق، فلا يكلمني أحد، حتى أتى رسول الله ﷺ وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأسلم عليه فأقول في نفسي حرك شفثيه برد السلام على أم لا؟ ، ثم أصلي قريباً منه فأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إلى، وإذا التفت نحوه أعرض عني، حتى إذا طال ذلك على من جفوة المسلمين مشيت حتى تسورت حائط أبي قتادة، - وهو ابن عمي وأحب الناس إلي - فسلمت عليه، فو الله ما رد على السلام، فقلت له: يا أبا قتادة، أنشدك الله، هل تعلمني أحب الله ورسوله؟ فسكت، فعدت قلت له: يا أبا قتادة، أنشدك الله، هل تعلمني أحب الله ورسوله؟ فسكت، فعدت فنشدته الثالثة فقال: الله ورسوله أعلم. ثم فاضت عينا، فوثبت فتسورت الجدار ثم غدوت إلى السوق.

ملك غسان يتصل بكعب بن مالك يغريه بالكفر : ويستطرد كعب بن مالك فيتحدث عن أمر ضاعف من آلامه النفسية، وهو أن ملك الغساسنة النصارى بالشام علم بمأساة كعب بن مالك فأراد استغلالها لعله ينجح في إغراء كعب بترك دينه ومغادرة المدينة والالتحاق بالشام ليكون ضمن أسرة الغساسنة المنتصرين. فقال مالك: فيينا أنا أمشي بالسوق فإذا نبطى من نبط الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالسوق يسأل عني يقول: من يدلني على كعب بن مالك؟ فجعل الناس يشيرون له، فدفعت إلى كتاباً من الحارث بن أبي شمر ملك غسان - أو قال: من جبلة بن الأيهم - في سرقة^(١) من حرير، فإذا في كتابه: أما بعد فقد بلغني أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضبعة، فالحق بنا نواسك. قال كعب: فقلت حين قرأته: وهذا من البلاء أيضاً، قد بلغ مني ما وقعت فيه أن طمع في رجال من أهل الشرك، فذهبت بها على تنور فسجرت^(٢) بها، وأقمنا على ذلك حتى إذا مشت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسول رسول الله ﷺ يأتيني فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك. فقلت: أطلقها أم ماذا؟ قال: بل اعتزلها فلا تقربها، وكان الرسول بعث إلي وإلى هلال بن أمية ومرارة بن الربيع، خزيمه بن ثابت قال كعب: فقلت لامرأتي الحقي بأهلك، فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر ما هو قاض. وأما هلال بن أمية فكان رجلاً صالحاً، فبكى حتى أن كان يرى أنه هالك من البكاء،

(١) السرقة - بفتح أوله وثانيه - : الشقة من الحرير، وقال بعضهم: السرقة أحسن الحرير وأجوده.

(٢) سجره: أي أهب التنور بها، يعني أنه أحرقها «شرح أبي ذر ص ٤٢٦».

وامتنع من الطعام، فكان يواصل اليومين والثلاثة من الصوم ما يذوق طعاماً، إلا أن يشرب الشربة من الماء أو اللبن، ويصلي الليل ويجلس في بيته لا يخرج؛ لأن أحداً لا يكلمه، حتى إن كان الولدان ليهجرونه لطاعة رسول الله ﷺ، فجاءت امرأته إلى رسول الله ﷺ: يا رسول الله إن هلال بن أمية شيخ كبير ضائع، لا خادم له، وأنا أرفق به من غيري، فإن رأيت أن تدعني أن أخدمه فعلت. قال: نعم، ولكن لا تدعيه يصل إليك. فقالت: يا رسول الله ما به من حركة إلى، والله ما زال يبكي منذ يوم كان من أمره ما كان إلى يومه هذا وأن لحيته لتقطر دموعاً الليل والنهار، ولقد ظهر البياض على عينيه حتى تخوفت أن يذهب بصره. قال كعب: فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله ﷺ لامرأتك فقد أذن لامرأة هلال ابن أمية أن تخدمه. فقلت: والله، لا أستأذنه فيها، ما يدريني ما يقول رسول الله ﷺ في ذلك إذ استأذنته، وأنا رجل شاب، فو الله لا أستأذنه. ثم لبثنا بعد ذلك عشر ليالٍ، وكملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا.

انتهاء المحنة بالتوبة: ثم يستطرد كعب بن مالك متحدثاً عن مجيء الفرج من السماء بانكشاف المحنة القاتلة وذلك بنزول القرآن بتوبة الثلاثة المتخلفين من الصحابة الكرام فيقول: ثم صليت الصبح على ظهر بيت من بيوتنا على الحال التي ذكر الله عز وجل، وقد ضاقت على الأرض بما رحبت وضاقت على نفسي وقد كنت ابتنيت خيمة في ظهر سلع، فكنت فيها، إذ سمعت صارخاً أوفى على سلع، يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك، أبشرون قال: فخررت ساجداً، وعرفت أن قد جاء الفرج. فأذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى الصبح.

وكانت التوبة التي تاب الله بها على الصحابة الكرام الثلاثة قد تضمنتها ثلاث آيات

وهي قوله تعالى:

﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٨﴾ يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١٧٩﴾

وكانت أم المؤمنين أم سلمة تروي حديث هذه التوبة فتقول: قال لي رسول الله ﷺ من الليل: يا أم سلمة، قد نزلت توبة كعب بن مالك وصاحبيه. فقلت: يا رسول الله، ألا أرسل إليهم فأبشرهم؟ فقال: رسول الله ﷺ: يمنعوك النوم آخر الليل، ولكن حتى يصبحوا. قال: فلما صلى رسول الله ﷺ الصبح أخبر الناس بما تاب الله على هؤلاء نفر، كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية. فخرج أبو بكر فوافى على سلع فصاح: قد تاب الله على كعب يبشره بذلك.

وخرج الزبير بن العوام على فرسه في بطن الوادي فسمع صوت أبي بكر قبل أن يأتي الزبير، وخرج أبو الأعور سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل إلى هلال يبشره ببني واقف، فلما أخبره سجد، قال سعيد: فظننت أنه لا يرفع رأسه حتى تخرج نفسه، وكان بالسرور أكثر بكاء منه بالحزن حتى خيف عليه، ولقيه الناس يهتئون فما استطاع المشي إلى رسول الله ﷺ لما ناله من الضعف والحزن والبكاء، حتى ركب حماراً، وكان الذي بشر مرارة بن الربيع سلكان بن سلامة أبو نائلة، وسلمة بن سلامة بن وقش، ووافيا الصبح مع النبي ﷺ من بني عبد الأشهل، ثم انطلقا إلى مرارة فاخبراه، فأقبل مرارة حتى توافوا عند النبي ﷺ.

وقال كعب بن مالك: وكان الصوت الذي سمعت من الفارس الذي يركض في الوادي - وهو الزبير بن العوام - والذي صاح على سلع - يقول كعب - : كان رجلاً من أسلم يقال له حمزة بن عمرو، وهو الذي بشرني. قال: فلما سمعت صوته نزعته ثوبي فكسوتهما إياه لبشارته والله ما أملك يومئذ غيرهما، ثم استعرت ثوبين من أبي قتادة فلبستهما، ثم انطلقت أتيتم رسول الله ﷺ، وتلقاني الناس يهتئونني بالتوبة يقولون: ليهنك توبة الله عليك، حتى دخلت المجلس ورسول الله ﷺ جالس حوله الناس، فقام إلى طلحة بن عبيد الله فحياني وهنأني، ما قام إلى أحد من المهاجرين غيره - فكان كعب لا ينساها لطلحة.

قال كعب: فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال لي ووجهه يبرق من السرور: أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك، ويقال قال له: تعال إلى خير يوم ما طلع عليك شرقه قط، قال كعب: أمن عندك يا رسول الله، أو من عند الله؟ فقال: من عند الله عز وجل، قال: وكان رسول الله ﷺ إذا سر يستتير حتى كأن وجهه فلقه قمر، وكان يعرف

ذلك منه. فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله، إن من توبتي إلى الله وإلى رسوله أن انخلع من مالي إلى الله ورسوله، فقال رسول الله ﷺ: أمسك عليك بعض مالك، هو خير لك. قال: قلت: إني ممسك بسهمي الذي بخير، قال رسول الله ﷺ: لا، قلت: النصف، قال: لا، قلت: فالثلث، قال: نعم، قال: إني يا رسول الله أحبس سهمي الذي بخير. قال كعب: قلت: يا رسول الله إن الله عز وجل أنجاني بالصدق، فإن توبتي إلى الله أن لا أحدث إلا صدقاً ما حييت. قال كعب: والله، ما أعلم أحداً من الناس أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت لرسول الله ﷺ أفضل مما أبلاني، والله ما تعمدت من كذبة منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا، وإني لأرجو أن يحفظني الله عز وجل فيما بقي. وقال كعب وكان شاعراً:

سبحان ربي إن لم يعف عن زللي فقد خسرت وتب القول والعمل

ثم قال كعب: فو الله ما أنعم الله على من نعمة قط إذ هداني للإسلام كانت أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ، ألا أكون كذبت يومئذ، فأهلك كما هلك الذين كذبوه. قال الله تعالى في الذين كذبوه حين أنزل عليه الوحي شيراً ما قال: ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتُعَرِّضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَهُمُ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [التحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين] (١).

قال كعب: وكنا خلفنا أيها الثلاثة عن أمر هؤلاء الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا فعذرهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه ما

(١) صحيح البخاري ج ٦ ص ١٩ - ٢٠ - ٢١ - ٢٢ - ٢٣ - ٢٤ - ٢٥ ومغازي الواقدي ج ٣ ص ١٠٤٩ - ١٠٥٠ - ١٠٥١ - ١٠٥٢ - ١٠٥٣ - ١٠٥٤ - ١٠٥٥ - ١٠٥٦ وسيرة ابن هشام ج ٤ ص ١٧٥ - ١٧٦ - ١٧٧ - ١٧٨ - ١٧٩ - ١٨٠ وإمتاع الأسماع ص ٤٨٥ - ٤٨٦ - ٤٨٧ - ٤٨٨ وزاد المعاد ج ٣ ص ٢١ - ٢٢ - ٢٣ - ٢٤ - ٢٥ - ٢٦ والبداية والنهاية ج ٥ ص ٢٣ - ٢٤ - ٢٥ - ٢٦ وجوامع السيرة ص ٢٥٥ وتاريخ الطبري ج ٣ والكامل في التاريخ لابن الأثير ج ٢ ص ١٩٢ - ١٩٣ وتاريخ الطبري ج ٣ ص ١١١ وتاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ٨٢٢ وبهجة المحافل ج ٢ ص ٣٥ - ٣٦ - ٣٧ - ٣٨ - ٣٩ - ٤٠ - ٤١ - ٤٢ - ٤٣ وحياة محمد ص ٤٦٠ - ٤٦١ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٦٨ - ٢٦٩ - ٢٧٠ والطبقات الكبرى لابن سعد ج ٢ ص ١٦٧.

قضى^(١).

تاريخ القدوم من تبوك: وذكر الواقدي فقال: قالوا: وقدم رسول الله المدينة في رمضان سنة تسع. فقال الحمد لله على ما رزقنا في سفرنا هذا من أجر وحسنة ومن بعدنا شركاؤنا فيه. فقالت عائشة: يا رسول الله، أصابكم السفر وشدة السفر ومن بعدكم شركاؤكم فيه؟.

فقال رسول الله ﷺ: إن بالمدينة لأقواماً ما سرنا من مسير ولا هبطنا وادياً إلا كانوا معنا حبسهم المرض، أو ليس الله تعالى يقول في كتابه: ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَآفَّةً ﴾^(٢) فنحن غزاتهم وهم قعدتنا. والذي نفسي بيده لدعاؤهم أنفذ في عدوتنا من سلاحنا.

قالوا: وجعل المسلمون يبيعون سلاحهم ويقولون: انقطع الجهاد، فجعل القوى منهم يشتريها لفضل قوته، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فنهاهم عن ذلك وقال: لا تزال عصابة من أمتي يجاهدون على الحق حتى يخرج الدجال.

وذكر ابن كثير فقال: قال علي بن طلحة الوالي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾^(٣)، قال: كانوا عشرة رهط تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فلما حضروا رجوعه أوثق سبعة منهم أنفسهم بسواري المسجد فلما مر بهم رسول الله ﷺ قال: (من هؤلاء؟) قالوا: أبو لياحة وأصحاب له تخلفوا عنك حتى تطلقهم وتعذرهم قال: وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم حتى يكون الله هو الذي يطلقهم، رغبوا عني وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين، فلما أن بلغهم ذلك، قالوا: ونحن لا نطلق أنفسنا حتى يكون الله هو الذي يطلقنا، فأنزل الله عز وجل: ﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ ﴾ الآية. قال ابن كثير: وعسى من الله واجب، فلما أنزلت أرسل إليهم رسول الله ﷺ فأطلقهم وعذرهم، فجاءوا بأموالهم وقالوا: يا رسول الله هذه أموالنا فتصدق بها عنا واستغفر لنا، فقال: (ما أمرت أن آخذ أموالكم) فأنزل الله: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ

(١) مغازي الواقدي ج ٣ ص ١٠٥٦.

(٢) التوبة: ١٢٢.

(٣) التوبة: ١٠٢.

صَدَقَةٌ تَطْهَرُهُمْ وَتُرْكِبُهُمْ بِهَا وَصَلَّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوَاتِكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٣﴾
 أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ
 التَّوَابُ الرَّحِيمُ ﴿١٣٤﴾ وَقُلِ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ
 إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٣٥﴾ وَعَآخِرُونَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ
 إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٣٦﴾. قال: والمرجون هم الذين لم
 يربطوا أنفسهم بالسواري فأرجئوا حتى نزل قوله تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ
 وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ
 قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ إلى آخرها، وكذا رواه عطية
 ابن سعيد العوفي عن ابن عباس بنحوه.

وذكر سعيد بن المسيب ومجاهد ومحمد بن إسحاق قصة أبي لبابة وما كان من أمره
 يوم بني قريظة وربط نفسه حتى تيب عليه، ثم أنه تخلف عن غزوة تبوك أيضاً حتى تاب
 الله عليه، وأراد أن ينخلع من ماله كله صدقة، فقال له رسول الله ﷺ: «إِنَّ مِنْكُمْ
 منافقين فمن سميت فليقم، قم يا فلان، قم يا فلان، قم يا فلان، حتى عد ستة وثلاثين،
 ثم قال: إن فيكم - أو إن منكم - منافقين سلوا الله العافية»، قال: فمرّ عمر برجل مقنع
 وقد كان بينه وبينه معرفة، فقال: ما شأنك؟ فأخبره بما قال رسول الله ﷺ، فقال: بعداً
 لك سائر اليوم.

قال ابن كثير: قلت: كان المتخلفون عن غزوة تبوك أربعة أقسام: ماجورون كعلي
 ابن أبي طالب ومحمد بن مسلمة وابن أم مكتوم.

ومعذورون، وهم الضعفاء والمرضى، والمقلون وهم البكاءون.

وعصاة مذنبون وهم الثلاثة وأبو لبابة وأصحابه المذكورون.

وآخرون ملومون مذمومون، وهم المنافقون^(٢).

وفاة زعيم المنافقين ابن أبي: وفي شهر شوال عام تبوك مرض زعيم المنافقين عبد الله
 ابن أبي بن سلول، ومات في ذي القعدة في السنة التاسعة هجرية، وكان مرضه عشرين
 ليلة، فكان رسول الله ﷺ يعودها فيها، فلما كان اليوم الذي مات فيه دخل عليه رسول
 الله ﷺ وهو يجود بنفسه، فقال: قد نهيتك عن حب اليهود. فقال عبد الله بن أبي:

(١) التوبة: آيات ١٠٣ - ١٠٤ - ١٠٥ - ١٠٦.

(٢) البداية والنهاية ج ٥ ص ٢٦ - ٢٧.

أبغضهم سعد بن زرارة فما نفعه. ثم قال ابن أبي يا رسول الله، ليس بحين عتاب، فإن مت فاحضر غسلني واعطني قميصك أكفن فيه. فأعطاه الأعلى - وكان عليه قميصان - فقال: الذي يلي جلدك، فنزع قميصه الذي يلي جلده فأعطاه، ثم قال: صل عليّ واستغفر لي، وكان جابر بن عبد الله يقول: جاء رسول الله ﷺ بعد موت ابن أبي إلى قبره، فأمر به فأخرج، فكشف عن وجهه ونفث عليه من ريقه، وأسنده إلى ركبتيه وألبسه قميصه - وكان عليه قميصان - وألبسه الذي يلي جلده. قال الواقدي: والأول أثبت عندنا، أن رسول الله ﷺ حضر غسله وحضر كفنه، ثم حمل إلى موضع الجنائز، فتقدم رسول الله ﷺ ليصلي عليه، فلما قام وثب عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله أتصلي علي ابن أبي وقد قال يوم كذا وكذا ويوم كذا وكذا، فعدّ عليه قوله، فتبسم النبي ﷺ وقال: آخر عني يا عمر، فلما أكثر عليه عمر قال: إني قد خيّرت فاخترت، ولو أعلم أنني لو زدت على السبعين غفر له زدت عليها، وهو قوله عز وجل: ﴿أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾^(١).

فيقال إنه ﷺ قال: سأزيد على السبعين. فصلى رسول الله ﷺ ثم انصرف، فلم يكن إلا يسيراً حتى نزلت هذه الآيات من براءة: ﴿وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَسِقُونَ﴾^(٢) وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ^(٣) وَإِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةَ أَنْ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطُّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْفَاعِلِينَ^(٤) رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ^(٥)﴾^(٦).

ويقال أنه ﷺ لم تزل قدماه بعد دفن ابن أبي حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ الآية، فعرف رسول الله ﷺ في هذه الآية المنافقين، فكان من مات منهم لم يصل عليه. فقال عمر: فعجبت بعد من جرأتي على رسول الله ﷺ يومئذ والله ورسوله أعلم.

وكان مجمع بن جارية يحدث يقول: ما رأيت رسول الله ﷺ أطال على جنازة قط ما أطال عليها - أي جنازة ابن أبي - من الوقت ثم خرجوا حتى انتهوا إلى قبره، وقد حمل على سرير يحمل عليه موتاهم عند آل نبيط، وكان أنس بن مالك يحدث يقول: رأيت ابن أبي على السرير، وإن رجلاه لخارجتان من السرير من طوله.

(١) التوبة : ٨٠.

(٢) التوبة : ٨٤ - ٨٥ - ٨٦ - ٨٧.

وكانت أم عمارة تحدّث قالت: شهدنا مأتّم ابن أبي، فلم تتخلف امرأة من الأوس والخزرج إلا أتت ابنته جميلة بنت عبد الله بن أبي، وهي تقول: واجبله - ما ينهاها احد ولا يعيب عليها أحد - واجبله واركناه، قالوا: ولقد انتهى به إلى قبره.

فكان عمرو بن أمية الضمري يحدث يقول: لقد جهدنا أن ندنوا من سريره، فما نقدر عليه قد غلب عليه هؤلاء المنافقون وكانوا قد أظهروا الإسلام، وهم على النفاق، من بني قينقاع وغيرهم: سعد بن حنيف، وزيد بن الصلت، وسلامة بن الحمام، ونعمان بن أبي عامر، ورافع بن حرملة، ومالك بن أبي نوفل، وداعس، وسويد. وكانوا أخابث المنافقين وكانوا هم الذين يعرضونه وكان ابنه عبد الله ليس شيء أثقل عليه ولا أعظم من رؤيتهم، وكان به بطن، فكان ابنه يغلق دونهم الباب، فكان ابن أبي يقول: لا يليني غيرهم. ويقول: أنتم والله أحب إلى من الماء على الظماء. ويقولون: ليتنا نفديك بالأنفس والأولاد والأموال، فلما وقفوا على حفرتهم، ورسول الله ﷺ واقف يلحظهم، ازدحموا على النزول في حفرتهم وارتفعت الأصوات حتى أصيب أنف داعس وجعل عبادة بن الصامت يذبهم ويقول: اخفضوا أصواتكم عند رسول الله ﷺ، حتى أصيب أنف داعس فسأل الدم، وكان يريد أن ينزل في حفرتهم، فثحى ونزل رجال من قومه، أهل فضل وإسلام، وكان لما رأوا من رسول الله ﷺ من الصلاة عليه وحضوره، ومن القيام عليه. فنزل في حفرتهم ابنه عبد الله (وكان من أفضل شباب الصحابة) وسعد بن عبادة بن الصامت، وأوس بن خولى حتى سوى عليه، وإنّ عليه أصحاب النبي ﷺ والأكابر من الأوس والخزرج يدلونه في اللحد، وهم قيام مع النبي ﷺ.

وزعم مجمع بن جارية أنه رأى رسول الله ﷺ يديه بيديه إليهم، ثم قام على القبر حتى دفن، وعزى ابنه وانصرف. فكان عمرو بن أمية يقول: ما لقي أصحابه هؤلاء المنافقون، إنهم هم الذين كانوا يثبون في القبر التراب ويقولون: يا ليت أنا فديناك بالأنفس وكنا قبلك، وهم يثبون التراب على رؤوسهم. فكان الذي يحسن في أمرهم يقول: قوم أهل فقر، وكان يحسن إليهم^(١).

وقال بعض أهل الحديث والسير: إن الرسول ﷺ إنما صنع بعبد الله ابن أبي ما صنع، إكراماً لولده عبد الله حيث سأله ذلك، وما سئل شيئاً قط فقال: لا، وأما القميص فالبسه إياه مكافأة له لأنه ألبس العباس يوم بدر قميصاً، ولم يكن للعباس يومئذ ثوب، فوجدوا قميص عبد الله بن أبي تقدروا عليه فكساه إياه كما رواه البغوي عن جابر بصيغة،

(١) مغازي الواقدي ١٠٥٧ - ١٠٥٨ - ١٠٥٩ - ١٠٦٠.

وروى قال: قال ابن عيينة كانت له عند رسول الله ﷺ يد فأحب أن يكافئه. قال: وروى أن النبي ﷺ سئل مما فعل بعبد الله بن أبي. فقال النبي ﷺ: ما يغني عنه قميصي وصلاتي من الله، والله إن كنت أرجو أن يسلم به ألف من قومه، وروى أنه أسلم بعد موته ألف من قومه لما رأوه تبرك بقميص النبي ﷺ، وفي هذا - كما قال النووي - بيان عظيم مكارم أخلاق النبي ﷺ، فقد علم ما كان من هذا المنافق من الإيذاء، وقابله بالحسنى، فألبسه قميصه وصلى عليه واستغفر له. قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(١) ..

وقال ابن العربي - تعليقا على استغراب عمر بن الخطاب صلاة الرسول ﷺ على ابن أبي - : وافق عمر ربه تلاوة ومعنى في أحد عشر موضعا، منها هذه القصة، وفي قوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَنَّ﴾، وفي قوله: لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى، وفي الحجاب، وفي أسارى بدر، وكل هذه في الصحيح، وفي آية المؤمنين كما رواه أبو داود الطيالسي من حديث علي بن زيد وافقت ربي لما أنزلت: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ فقلت أنا: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ فنزلت. وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره من حديث أنس، وفي تحريم الخمر كما روى أصحاب السنن والحاكم أن عمر قال اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا، فأنزل الله تعالى تحريمها، وفي قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ﴾ الآية، ذكره البغوي وابن جرير وابن أبي حاتم من حديث عبد الرحمن بن أبي ليلى، ومنها قصة الاستغفار للمنافقين، كما روى الطبراني من حديث ابن عباس. قال: لما أكثر رسول الله ﷺ من الاستغفار لقوم من المنافقين قال عمر: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾.

القرآن والمنافقون: لقد كانت أكثر أعمال المنافقين بروزا في غزوة تبوك، ولهذا فقد فضحهم القرآن الكريم، فأنزل الله تعالى أكثر من ثمانين آية في هؤلاء المنافقين، وذلك في سورة براءة التي من أسمائها (الفاضحة)؛ لأنها فضحت هؤلاء المنافقين.

فمن هذه الآيات قول الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْفِكُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾^(٢).

(١) القلم: آية : ٤.

(٢) التوبة ٣٨.

﴿ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾^(١).

﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾^(٢).

وقال تعالى - مندداً بهؤلاء المنافقين المتخلفين عن رسول الله ﷺ - :
﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ السُّعْيَةُ وَسَيَاخِلِفُونَ بِاللَّهِ لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾^(٣).

وقال تعالى - لأن رسول الله ﷺ أذن لهم وقبل عذرهم - : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنَتْ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴾^(٤). ﴿ لَا يَسْتَعِذُّكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾^(٥). ﴿ إِنَّمَا يَسْتَعِذُّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَآرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَبِّهِمْ يترددون ﴾^(٦). ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾^(٧). ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا وُضْعُوا حِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمْعُونُ هُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾^(٨).

ثم ذكر القرآن الكريم ماضي هؤلاء المنافقين السييء بمحاولتهم تمزيق الصف

(١) التوبة : ٣٩.

(٢) التوبة : ٤٠.

(٣) التوبة : ٤٢.

(٤) التوبة : ٤٣.

(٥) التوبة : ٤٤.

(٦) التوبة : ٤٥.

(٧) التوبة : ٤٦.

(٨) التوبة : ٤٧.

الإسلامي و الإطاحة بالرسول الأعظم ﷺ فقال تعالى: ﴿ لَقَدْ آبَتَعُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَكِرْهُونَ ﴾ (١).

ثم ندد القرآن الكريم بأحد زعمائهم الكبار وهو الجدي بن قيس الذي قال - لما رغبه الرسول ﷺ في الجهاد - : أو تأذن لي ولا تفتني؟ فو الله ، لقد عرف قومي ما أحد أشد عجباً بالنساء مني وإني لأخشى إن رأيت نساء بني الأصفر لا أصبر عنهن: ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَتَذُنْ لِي وَلَا تَفْتِنِي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ (٢).

وفي المنافقين الذين تخلفوا عن الغزوة مع القدرة، ثم جاءوا بعد عودة الرسول ﷺ ظافراً يعتذرون وهم كاذبون. قال تعالى: ﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأْنَا اللَّهَ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٣) ﴿ سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَا وَنَهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (٤).

﴿ يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ (٥). إلى غير ذلك من الآيات التي تضمنتها سورة براءة (الفاضحة).

سيطرة الإسلام على جزيرة العرب: وبعد عودة الرسول ﷺ بجيشه من غزوة تبوك تلك العودة الظاهرة ضرب الإسلام بجرانه على جميع أنحاء الجزيرة العربية من الجنوب حتى الشمال ومن الشرق حتى الغرب، ولم يبق في الجزيرة من يعادي الإسلام سوى جيوب وثنية صغيرة تقع في أقصى الجنوب الغربي من جزيرة العرب.

وهذه الجيوب التي تقع في نجران وبلاد مذحج بأقصى جنوب اليمن، وقد بعث الرسول ﷺ إلى هذه الجيوب بالبطلين علي بن أبي طالب وخالد بن الوليد.. على بعث

(١) التوبة : ٤٨ .

(٢) التوبة : ٤٩ .

(٣) التوبة : ٩٤ .

(٤) التوبة : ٩٥ .

(٥) التوبة : ٩٦ .

به إلى اليمن، وخالد بعث به إلى بني بلحارث بنجران، وذلك في السنة العاشرة من الهجرة، فأخضع كل من القائدين الناحية التي بعث إليها كما سيأتي تفصيله في مكانه من هذا الكتاب إن شاء الله، وبعد هاتين الحملتين العسكريتين انتهت كل الأعمال العسكرية بجزيرة العرب، حيث لم يعد أحد خارجاً على سلطان الإسلام بها اللهم إلا ما حدث في السنة التي توفي فيها رسول الله ﷺ حيث تمردت فيها بعض القبائل بتحريض من مدعى النبوة في اليمن واليمامة وبني أسد وذلك في أخريات أيام الرسول الأعظم ﷺ حيث تمرد في اليمامة وادعى النبوة مسيلمة الكذاب وتمرد وادعى النبوة أيضاً في بني أسد طليحة بن خويلد الأسدي فأمر الرسول ﷺ قطعات من جيشه بإخضاع هؤلاء المرتدين المتمردين، فتم القضاء على فتنة الأسود العنسي قبيل وفاة النبي ﷺ. أما فتنة مسيلمة الكذاب وطليحة بن خويلد فقد تولى علاجها وإخمادها الخليفة الأول أبو بكر الصديق على يد قائده المغوار خالد بن الوليد كما سيأتي تفصيله إن شاء الله في كتابنا القادم والتالي لهذا عن (حروب الردة).

الفصل الخامس

نزول القرآن بفريضة الحج.

أبو بكر الصديق يحج بالمسلمين نيابة عن النبي ﷺ.

علي بن أبي طالب يبلغ المشركين إنذار القرآن لهم بأن لا يحجوا بعد ذلك العام.

عام الوفود وتكامل الإسلام في جزيرة العرب.

مقابلة زعماء نصارى نجران للنبي ﷺ في المسجد وقصة المباهلة.

جمع الزكوات من المسلمين.

النبي يحج حجة الوداع.

تجهيز جيش أسامة إلى الشام.

مرض الرسول الأعظم ﷺ والتحاقه بالرفيق الأعلى.

أما أهم حدث تشريعي بعد غزوة تبوك فهو افتراض الله الحج على المسلمين في أواخر السنة التاسعة من الهجرة، ولم يكن الحج قبل تلك السنة مفروضاً، وكان النبي ﷺ قبل هجرته يحج مع المشركين، أما بعد الهجرة فلم يحج إلا حجة واحدة وهي حجة الإسلام والمسماة بحجة الوداع.

وبعد أن فرض الله الحج على المسلمين في التاسعة الهجرية، لم يحج النبي ﷺ تلك السنة، لأن عناصر من المشركين كانت حتى تلك السنة تحج، لذلك والله أعلم - بعث رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق أميراً على الحج بالمسلمين، فحج معه ثلاثمائة من المسلمين.

وكان بين رسول الله ﷺ وبين بعض المشركين عهد، ولما كان تقرر أن تتطهر جزيرة العرب كلها من دنس الشرك ونزلت سورة براءة بذلك، هذه السورة التي حددت فيها أربعون آية العلاقة بين الإسلام والوثنية، حيث أعلن في هذه الآيات أنه لا مكان بعد المدة حددها القرآن - للشرك في جزيرة العرب.

ولما كان الوفاء بالعهد بالعهود من أخص خصائص الإسلام، فإن القرآن (حين أمهل المشركين الذين لم يكن لهم عهد، أربعة أشهر؛ ليكون لهم فيها مطلق الحرية في أن يختاروا الدخول في الإسلام أو مغادرة الجزيرة العربية) أمر رسول الله ﷺ - فيما يختص بالمشركين الذين لهم عهد إلى مدة - أن يتركوا وشأنهم حتى تنتهي مدتهم ماداموا لم يرتكبوا مخالفة تخل بالعهد الذي كان بينهم وبين المسلمين، ثم يطبق عليهم - بعد انتهاء

المعاهدة - ما تضمنته آيات الإنذار الموجهة إلى المشركين ككل. وقد كان هذا الأمر صريحاً في سورة براءة التي تضمنت الإنذار فقد قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ مُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ۝﴾ .

وكانت سورة براءة قد نزلت بعد أن فصل أمير الحج أبو بكر من المدينة، ولذلك بعث رسول الله ﷺ بآيات الإنذار لتتلى على المشركين، ابن عمه علي بن أبي طالب، وقد أدرك على أمير الحج أبا بكر بمنطقة العرج قرب الطائف.

فقد ذكر أصحاب الحديث والسير أن أبا بكر لما كان بالعرج في السحر سمع رغاء ناقة رسول الله ﷺ القصوى، فقال: هذه القصوى، فنظر فإذا علي بن أبي طالب عليها. فقال له: استعملك رسول الله ﷺ على الحج؟ قال: لا، ولكن بعثني أقرأ براءة على الناس وأنبذ إلى كل ذي عهد عهده، فمضيا الاثنان أبو بكر أمير على الحج وعلى مبعوث خاص للنبي ﷺ لإبلاغ المشركين الإنذار الذي جاءت به سورة براءة.

ولما كانت الحجة التي حج فيها أبو بكر بالمسلمين أميراً هي الحجة الأولى المفروضة في الإسلام فقد أمر الرسول ﷺ الأمير أبا بكر أن يصلح في الحج ما أفسده المشركون فيخالفهم فيما ابتدعوه في أعمال الحج، فأمر أن يكون وقوفه (يوم الوقوف) بعرفة لا بمزدلفة، وكانت قريش لا تقف في الحج بعرفة وإنما تقف بمزدلفة، كما أمره أن لا يدفع من عرفة حتى تغرب الشمس، وأمره كذلك أن يدفع بالحجيج من مزدلفة قبل طلوع الشمس.

فخرج أبو بكر من المدينة حتى قدم مكة - وهو مفرد بالحج - فخطب الناس قبل يوم التروية بيوم بعد الظهر، أي في اليوم السابع من ذي الحجة. ولم نجد فيما بين أيدينا من مصادر نصاً لهذه الخطبة، ولما زاغت الشمس يوم التروية (وهو اليوم الثامن) طاف بالبيت سبعة، ثم ركب راحلته من باب بني شيبه إلى منى، وصلى بها هناك الظهر والعصر والمغرب والعشاء والصبح، ولم يتحرك من عرفات يوم التاسع من ذي الحجة حتى طلعت الشمس على تبير^(١)، وبعد أن ركب من منى انتهى إلى نمرة^(٢) وهناك نزل في

(١) تبير (بفتح أوله وكسر ثانيه): جبل يشرف على منى.

(٢) نمرة (بفتح أوله وكسر ثانيه) قال ياقوت: ناحية بعرفة.

قبة من شعر فقال فيها، فلما زاغت الشمس ركب راحلته حتى وصل بطن عُرنة^(١)، وهناك صلى الظهر والعصر بأذان وإقامتين، ثم ركب راحلته إلى عرفة، وهناك وقف بالهضاب والمصلى سحابة نهاره، حتى إذا ما غربت الشمس دفع أي خرج بالحجيج، وكان يسير العنق حتى انتهى إلى جمع (أي المزدلفة) فنزل قريباً من النار التي على قزح، فلما طلع الفجر صلى الفجر، ثم وقف، فلما أسفر الصبح دفع إلى منى، وكان يقول في وقوفه: أيها الناس أسفروا، أيها الناس أسفروا، فكان يسير العنق حتى انتهى إلى محسر فأوضع راحلته، فلما جاوز وادي محسر عاد إلى مسيره الأول، وعندما وصل منى رمى جمرة العقبة بسبع حصيات، ثم رجع إلى المنحر فنحر ثم حلق، ثم خطب يوم النحر (وهو يوم العيد) على راحلته، وبعد ذلك أكمل مناسك الحج الباقية ثم رجع المدينة.

الإندار الذي تلقاه المشركون: وفي يوم النحر (وهو يوم الحج الأكبر) وقف مبعوث النبي ﷺ الخاص علي بن أبي طالب، عند جمرة العقبة - حيث مكان تجمع للحجيج - فأبلغ المشركين - وكانوا يحجون حتى تلك السنة وهي التاسعة من الهجرة - أبلغهم المقررات التي اتخذها النبي ﷺ حسب أمر الله تعالى والتي تتلخص في:

- ١- منع أي مشرك أن يحج أو يقرب المسجد الحرام بعد ذلك العام.
 - ٢- الحظر حظراً تاماً على أي إنسان أن يطوف بالبيت وهو عريان، وكان من طقوس الوثنيين الشائنة أن يطوفوا بالبيت وهم عُراة تماماً رجالاً ونساءً.
 - ٣- منح المشركين الذين لا عهد لهم مع المسلمين، منحهم مهلة أربعة أشهر يكونون فيها أحراراً في اتخاذ القرار النهائي الذي يروق لهم، فعليهم إما أن يدخلوا في الإسلام أو يغادروا جزيرة العرب إلى أي مكان شاءوا، وإلا فليستعدوا للقتال حيث لم يعد (بعد هذه المدة) مكان للشرك والمشركين في الجزيرة العربية. أما الذين بينهم وبين المسلمين معاهدة فإن لهم حق البقاء في الجزيرة حتى ينتهي أمد المعاهدة، وبعد ذلك يطبق عليهم قانون التخيير بين الدخول في الإسلام أو مغادرة الجزيرة أو القتال.
- وكان هذا الإندار إلى المشركين قد جاء نتيجة نزول أربعين آية من سورة (براءة) نزلت على رسول الله تضمنت هذا الإندار.

(١) عُرنة (بضم أوله وفتح ثانيه): واد مجزاء عرفات على طريق السائر.

قال ابن كثير: لما نزلت براءة على رسول الله ﷺ وكان قد بعث أبا بكر الصديق ليقيم الناس الحج، قيل له: يا رسول الله لو بعثت بها إلى أبي بكر فقال: (لا يؤدي عني إلا رجل من أهل بيتي) ثم دعا علي بن أبي طالب فقال: (أخرج بهذه القصة من صدر براءة وأذن في الناس يوم النحر بمنى ألا إنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يخرج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عهد رسول الله فهو إلى مدته) فخرج على حتى أدرك أبا بكر، حتى إذا كان يوم النحر قام على فأذن في الناس بالذي أمره رسول الله ﷺ وأجل أربعة أشهر من يوم أذن فيهم؛ ليرجع كل قوم إلى ما منهم وبلادهم، ثم لا عهد لمشرك ولا ذمة إلا أحد كان له عند رسول الله ﷺ فهو له إلى مدته، فلم يخرج بعد ذلك العام مشرك، ولم يطف بالبيت عريان^(١).

والآيات المتعلقة من سورة براءة بالمعاهدات والمهلة ومنع المشركين من دخول

المسجد هي قوله تعالى:

﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُحْزِي الْكُفْرِينَ ﴿٢﴾ وَأُذُنٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَنَشِرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابِ الْإِيمِ ﴿٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهَرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخَذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ . ثم قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ .

حملة خالد بن الوليد إلى نجران.. ربيع الآخر عام ١٠هـ: وبعد غزوة تبوك التي حدثت

(١) البداية والنهاية ج ٥ ص ٣٦ - ٣٧ - ٣٨ ومغازي الواقدي ج ٣ ص ١٠٧٧ - ١٠٧٨ وسيرة ابن هشام.

(٢) التوبة: آيات ١ - ٢ - ٣ - ٤ - ٥.

(٣) التوبة ك آية ٢٨.

في رجب من السنة التاسعة للهجرة، والتي كانت خاتمة الأعمال الحربية التي يقودها النبي ﷺ بنفسه، حوى الإسلام الوضاء جميع أقاليم الجزيرة العربية تحت جناحيه، ما عدا منطقتين قصيتين في الركن الجنوبي من جزيرة العرب، وهما منطقة مذحج باليمن ومنطقة بني الحارث بنجران. هؤلاء لم يجيبوا داعي الإسلام، فلم يبعثوا بوفودهم إلى المدينة لإعلان إسلامهم كما فعلت كل العرب خلال السنة التاسعة من الهجرة.

وقد بعث الرسول ﷺ إلى مذحج - الموجودون - في أقصى جنوب اليمن - الإمام علي بن أبي طالب، وإلى بني الحارث في نجران خالد بن الوليد.

ففي شهر ربيع الآخر أصدر الرسول القائد ﷺ أمراً إلى القائد خالد بن الوليد بأن يتحرك إلى بني الحارث بنجران - وكانوا بطن من القحطانية عظيم من مذحج فهم قوة هائلة وتاريخهم العسكري في الجاهلية تاريخ مشهور - وكان الجيش الذي قاده خالد بن الوليد جيشاً كثيفاً.

وقد أمر الرسول ﷺ القائد خالدًا بأن لا يبدأهم القتال حتى يعذر إليهم، بحيث يدعوهم (أولاً) إلى الإسلام ثلاثاً، فإن أجابوا وأسلموا وإلا قاتلهم واجتاح ديارهم كي يمحوا آثار الشرك بينهم؛ لأن الرسول ﷺ قرر أن لا تبقى للشرك والوثنية أية معالم في جزيرة العرب.

قال ابن إسحق: ثم بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد في شهر ربيع الآخر أو جمادى الأولى سنة عشر إلى بني الحارث بن كعب بنجران، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم ثلاثاً، فإن استجابوا قبل منهم، وإن لم يفعلوا فقاتلهم. وقد صدع خالد بأمر رسول الله ﷺ فشنخص بجيشه إلى نجران، ولما وصل هناك نفذ تعليمات الرسول القائد ﷺ فوجه (أولاً) الدعوة إلى بني الحارث بأن يدخلوا في الإسلام كي لا يضطر إلى محاربتهم، ويذكر المؤرخون أن قبيلة بني الحارث قد استجابوا لداعي الإسلام دون أن يبدأوا أية مقاومة عسكرية، وقاموا بإرسال وفد منهم إلى المدينة لتأكيد إسلامهم على يد النبي ﷺ..

قال ابن إسحق: فخرج خالد حتى قدم عليهم، فبعث الركبان يضربون في كل وجه، ويدعون إلى الإسلام، ويقولون. أيها الناس، أسلموا تسلموا، فأسلم الناس، ودخلوا فيما دعوا إليه، فأقام فيهم خالد يعلمهم الإسلام وكتاب الله وسنة نبيه ﷺ، وبذلك أمره رسول الله ﷺ إن هم أسلموا ولم يقاتلوا.

وبعد أن أسلم بنو الحارث على يد خالد بن الوليد أبلغ رسول الله ﷺ كتاباً قال فيه: بسم الله لمحمد رسول الله ﷺ من خالد بن الوليد، السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد، يا رسول الله صلى الله عليك، فإنك بعثتني إلى بني الحارث بن كعب، وأمرتني أن لا أقاتلهم ثلاثة أيام، وأن أدعوهم إلى الإسلام، فإن أسلموا أقمت فيهم، وقبلت منهم وعلمتهم معالم الإسلام وكتاب الله وسنة نبيه، وإن لم يسلموا قاتلتهم، وإني قدمت عليهم فدعوتهم إلى الإسلام ثلاثة أيام كما أمرني رسول الله ﷺ وبعثت فيهم ركباً قالوا: يا بني الحارث أسلموا، فأسلموا ولم يقاتلوا، وأنا مقيم بين أظهرهم، أمرهم بما أمر الله به وأنهاهم عما نهاهم الله عنه، وأعلمهم معالم الإسلام وسنة النبي ﷺ حتى يكتب إلى رسول الله ﷺ، والسلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته.

وبعد أن تسلم الرسول ﷺ كتاب خالد بن الوليد المتضمن إسلام قبائل بني الحارث بنجران دونما قتال، أمره بأن يعود إلى المدينة وأن يصطحب معه وفدًا من ساداتهم وذلك في كتاب بعث به النبي ﷺ إلى خالد قال فيه: «من محمد رسول الله إلى خالد بن الوليد سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد فإن كتابك جاءني مع رسولك، تخبرني أن بني الحارث بن كعب أسلموا قبل أن تقاتلهم، وأجابوا إلى ما دعوتهم إليه من الإسلام، وشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبد الله ورسوله، وأن قد هداهم الله بهداه، فبشرهم وأنذرهم وأقبل وليقبل معك وفدهم والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

وبعد أن تلقى خالد جواب رسول الله ﷺ المتضمن أمره بأن يعود ومعه وفد بني الحارث عاد خالد ومعه الوفد ومن الجدير بالذكر أن بني عبد المدان المشهورون بالشرف كانوا من بني الحارث وفيهم يقول الشاعر:

خزولته بنو عبد المدان ولو أني بليت بهاشمي
هان على ما ألقى ولكن تعالوا فانظروا بمن ابتلاني

قال ابن إسحق^(١): فأقبل خالد وأقبل معه وفد بني الحارث بن كعب، منهم قيس ابن الحسين ذي الغصة، ويزيد بن عبد المدان^(٢)، ويزيد بن المحجل، وعبد الله بن قراد الزياتي، وشداد بن عبد الله القناني، وعمرو بن عبد الله الضباب.

(١) هو قيس بن الحصين بن يزيد بن شداد بن قتادة بن سلمة بن وهب بن عبد الله بن ربيعة بن الحارث بن كعب المذحجي الحارثي كان رئيساً على قومه مائة سنة، وسمى ذا الغصة لغصة كانت في حلقة.

(٢) لم يزد في (أسد الغابة) - عن ترجمة يزيد - على أن يذكر بعض قصته مع الوفد عندما وفدوا على رسول الله ﷺ.

فلما قدموا على رسول الله ﷺ فرأهم قال: من هؤلاء القوم الذين كأنهم رجال الهند، قيل يا رسول الله: هؤلاء رجال بني الحارث بن كعب، فلما وقفوا على رسول الله ﷺ سلموا عليه وقالوا: نشهد أنك رسول الله، وأنه لا إله إلا الله، قال رسول الله ﷺ: وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، ثم قال رسول الله ﷺ: أنتم الذين إذا زجروا استقدموا، فسكتوا، فلم يراجعهم منهم أحد، ثم أعادها الثانية، فلم يراجعهم منهم أحد، ثم أعادها الثالثة فلم يراجعهم منهم أحد ثم أعادها الرابعة. فقال يزيد بن عبد المدان: نعم يا رسول الله، نحن الذين إذا زجروا استقدموا، قالها أربع مرار، فقال رسول الله ﷺ: لو أن خالدًا لم يكتب إلى أنكم أسلمتم ولم تقاتلوا لألقيت رءوسكم تحت أقدامكم.

وهنا أجابه يزيد بن عبد المدان بما يؤكد أن النبي ﷺ يمنح الناس حرية القول المطلقة، وهو ما يسمونه اليوم (بالديمقراطية) فقد قال له يزيد بن عبد المدان: أما والله ما حمدناك ولا حميدنا خالدًا. قال: فمن حمدتم؟ قالوا حمدنا الله عز وجل الذي هدانا بك يا رسول الله، قال: صدقتم.

وكان بنو الحارث قوة ضاربة مرهوبة في الجاهلية مشهورة بكثرة انتصاراتها في المعارك التي نخوضها؛ لأنهم مجتمعون على كلمة واحدة، ولديهم من العقل ما يمنعهم من الاعتداء على الناس ولكن إذا أجبروا على الحرب خاضوها وكسبوها. ولذلك سألهم رسول الله ﷺ: بم كنتم تغلبون من قاتلكم في الجاهلية؟ قالوا لم نكن نغلب أحدًا. قال: بلى قد كنتم تغلبون من قاتلكم. قالوا كنا نغلب من قاتلنا يا رسول الله أنا كنا نجتمع ولا نفرق، ولا نبدأ أحدًا بظلم. قال صدقتم، وأمر رسول الله ﷺ على بني الحارث بن كعب قيس ابن الحصين.

قال ابن إسحق: فرجع وفد بني الحارث إلى قومهم في بقية من شوال وفي صدر ذي القعدة، فلم يمكثوا بعد أن رجعوا إلى قومهم إلا أربعة أشهر، حتى توفي رسول الله ﷺ. ويذكر رواية الحديث وأصحاب السير، أن الرسول ﷺ بعث إلى بني الحارث - بعد أن غادر المدينة وفدهم - عمرو بن حزم ليفقههم في الدين ويعلمهم السنة ومعالم الإسلام ويأخذ منهم صدقاتهم. وقد كتب الرسول ﷺ لعمرو بن حزم كتاباً ضمنه نواحي هامة من أوامر الإسلام ونواحيه وآدابه، وقد كان لهذا الكتاب منزلة كبيرة بين

كثير من رجال التشريع المسلمين لما احتوى على كثير من أصول التشريع الإسلامي، ويطلق علماء الحديث على هذا الكتاب اسم صحيفة عمرو بن حزم،^(١) وبعضهم لا يحتج بها لضعف في سند روايتها، والأكثر يحتجون بها، ولأهمية ما جاء في هذه الصحيفة من تعاليم وتوجيهات وآداب فإننا سنوردها هنا كاملة بإذن الله تعالى، فهي:

بسم الله الرحمن الرحيم، هذا بيان من الله ورسوله، يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود، عهد من محمد النبي رسول الله لعمر بن حزم، حين بعثه إلى اليمن، أمره بتقوى الله في أمره كله، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، وأمره أن يأخذ بالحق كما أمره الله، وأن يبشر بالخير ويأمرهم به، ويعلم الناس القرآن ويفقههم فيه، وينهي الناس، فلا يمس القرآن إلا طاهر، ويحجر الناس بالذي لهم، والذي عليهم، ويلين للناس في الحق، ويشتد عليهم في الظلم، فإن الله كره الظلم ونهى عنه فقال: (ألا لعنة الله على الظالمين)، ويبشر الناس بالجنة ويعملها، وينذر الناس النار وعملها ويستأنف الناس حتى يفقهوا في الدين، ويعلم الناس معالم الحج وسنته وفريضته، وما أمر الله به، والحج الأكبر: (الحج الأكبر والحج الأصغر هو العمرة)، وينهي الناس أن يصلي أحد في ثوب واحد صغير، إلا أن يكون ثوباً يثنى طرفيه على عاتقيه، وينهي الناس أن يحتبى أحد في ثوب واحد يفضي بفرجه إلى السماء وينهي أن يعقص أحد شعر رأسه في قفاه، وينهي إذا كان بين الناس هيج عن الدعاء إلى القبائل والعشائر، وليكن دعواهم إلى الله عز وجل وحده لا شريك له، فمن لم يدع إلى الله ودعا إلى القبائل والعشائر فليقطفوا بالسيف، حتى يكون دعواهم إلى الله وحده لا شريك له، ويأمر الناس بإسباغ الوضوء وجوههم وأيديهم إلى المرافق وأرجلهم إلى الكعبين، ويمسحون برؤوسهم كما أمرهم الله، وأمر بالصلاة لوقتها، وإتمام الركوع والسجود والخشوع، ويغسل بالصبح، ويهجر بالهاجرة حين تميل الشمس، وصلاة العصر والشمس في الأرض مدبرة، والمغرب حين يقبل الليل، لا يؤخر حتى تبدو النجوم في السماء، والعشاء أول الليل، وأمر بالسعي إلى الجمعة إذا نودي لها، والغسل عند الرواح إليها، وأمره أن يأخذ من المغامخ خمس الله، وما كتب على المؤمنين في الصدقة من العقار، وأن يأخذهم منهم عشر ما سقت العين وسقت السماء، وعلى ما سقى

(١) هو عمرو بن حزم بن يزيد بن لوذان النجاري الخزرجي، يكنى أبو الضحاك، من شباب الصحابة، أول مشاهدة مع رسول الله ﷺ الخندق. استعمله رسول الله ﷺ على أهل نجران وهو ابن سبع عشرة سنة. توفي بالمدينة سنة إحدى وخمسين هجرية، وروى عنه ابنه محمد والنضر بن عبد الله السلمي وزبيد بن نعيم

الغرب نصف العشر، وفي كل عشر من الإبل شاتان، وفي كل عشرين أربع شياه، وفي كل أربعين بقرة، وفي كل ثلاثين من البقر تبع، جذع أو جذعة، وفي كل أربعين من الغنم سائمة وحدها شاة، فإنها فريضة الله التي افترض على المؤمنين في الصدقة، فمن زاد خيراً فهو خير له، وأنه من أسلم من يهودي أو نصراني إسلاماً خالصاً من نفسه، ودان بالإسلام، فإنه من المؤمنين، له مثل ما لهم، وعليه مثل ما عليهم، ومن كان على نصرانيته أو يهوديته فإنه لا يرد عنها، وعلى كل حالم ذكر أو أنثى حر أو عبد، دينار واف أو عوضه ثياباً.

فمن أدى ذلك فإن له ذمة الله ورسوله، ومن منع ذلك فإنه عدو لله ولرسوله وللمؤمنين جميعاً، صلوات الله على محمد والسلام عليه ورحمة الله وبركاته^(١).

سرية علي بن أبي طالب إلى اليمن... رمضان عام ١٠ هجرية: وفي بلاد مذحج من جنوب اليمن بلغ النبي ﷺ أنهم قد ركبهم العناد فلم يدخلوا فيما دخل فيه أهل الجزيرة من الإسلام، فجرد عليهم حملة عسكرية أخضعتهم وبذلك تم تطهير تلك البقعة النائية في جزيرة العرب من الشرك.

وقد اختار الرسول ﷺ قائداً لهذه الحملة علي بن أبي طالب، فعقد له لواء علي ثلاثمائة كلهم من الفرسان، وقد أمر الرسول ﷺ علياً أن يبلغ أولئك المشركين المذحجين دعوة الإسلام ويدعوهم إلى الدخول فيه والاهتداء بهديه قبل أن يبدأهم القتال.

فقد ذكر الواقدي وابن إسحاق وموسى بن عقبة أن رسول الله ﷺ بعث علياً في رمضان سنة عشر هجرية وأمره أن يعسكر بقباء، فعسكر بها حتى تتأَم أصحابه، فعقد له رسول الله ﷺ يومئذ لواءً، أخذ عمامة فلفها مثنية مربعة فجعلها في رأس رمح ثم دفعها إليه. وقال: هكذا اللواء، وعممه عمامة ثلاثة أكوار، وجعل ذراعاً بين يديه وشبراً من ورائه، ثم قال: هكذا العمة.

قال الواقدي: فحدثني أسامة بن زيد عن أبيه، عن عطاء بن يسار عن أبي رافع، قال لما وجهه رسول الله ﷺ قال: امض ولا تلتفت، فقال علي: يا رسول الله، كيف أصنع؟ قال: إذا نزلت بساحتهم فلا تقاتلهم حتى يقاتلوك، فإن قاتلوك فلا تقاتلهم حتى يقتلوا

(١) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٢٣٩ - ٢٤٠ - ٢٤١ - ٢٤٢ - ٢٤٣، والبداية والنهاية ج ٥ ص ٩٨ - ٩٩، وإمتاع الأسماع ص ٥٠١ - ٥٠٢.

منكم قتيلاً، فإن قتلوا منكم قتيلاً فلا تقاتلهم حتى تلومهم ترهم أناة^(١)، ثم تقول لهم: هل لكم أن تقولوا لا إله إلا الله؟ فإن قالوا: نعم فقل: هل لكم أن تصلوا؟ فإن قالوا نعم فقل: هل تخرجوا من أموالكم صدقة تردونها على فقرائكم فإن قالوا نعم، فلا تبغ منهم غير ذلك والله لأن يهدي الله على يدك رجلاً واحداً خير لك مما طلعت عليه الشمس أو غربت.

قال: فخرج في ثلاثمائة فارس، فكانت خيلهم أول خيل دخلت تلك البلاد، فلما انتهى إلى الناحية التي يريد - وهي أرض مذحج -^(٢) فرق أصحابه، فأتوا بنهب وغنائم وسبى نساء وأطفال^(٣) ونعم وشاء وغير ذلك. فجعل علي على الغنائم بريدة بن الحصيبي، فجمع إليه ما أصابوا قبل أن يلقاهم جمع، ثم لقي جمعاً فدعاهم إلى الإسلام وحرص بهم، فأبوا ورموا في أصحابه، ودفع لواءه إلى مسعود بن سنان السلمي^(٤) فتقدم به، فبرز رجل من مذحج يدعو إلى البراز، فبرز إليه الأسود بن الخزاعي السلمي^(٥)، فجاولا ساعة وهما فارسان، فقتله الأسود وأخذ سلبه، ثم حمل عليهم علي بأصحابه فقتل منهم عشرين رجلاً، ففرقوا وانهمزوا وتركوا لواءهم قائماً، فكف عن طلبهم ودعاهم إلى الإسلام، فسارعوا وأجابوا، وتقدم نفر من رؤسائهم فبايعوه على الإسلام، وقالوا: نحن على من ورائنا من قومنا، وهذه صدقاتنا فخذ منها حق الله.

فجمع علي ما أصابوا من تلك الغنائم فجزأها خمسة أجزاء فأقرع عليها، فكتب في سهم منها (لله)، فخرج أول السهام سهم الخمس، ولم يُنفل أحدٌ من الناس شيئاً. فكان من قبله يعطون أصحابهم - الحاضر دون غيرهم - من الخمس، ثم يخبر بذلك رسول الله ﷺ فلا يردّه عليهم، فطلبوا ذلك من علي فأبى وقال: الخمس أحمله إلى رسول الله ﷺ فيرى فيه رأيه، وهذا رسول الله ﷺ يوافق الموسم (أي الحج) ونلقاه ويصنع فيها ما أراه الله، فانصرف راجعاً، تعجل وخلف علي أصحابه أبا رافع^(٦).

ولما انتصر علي على مشركي مذحج بجنوب اليمن، ودخلوا في الإسلام، كتب إلى

(١) التلوم: الانتظار والتمكث.

(٢) قلت: هي الآن أرض ما بين مأرب وحريب والبيضاء - وهي أرض بني مراد.

(٣) انظر موقف الإسلام من السبي والرق في كتابنا (غزوة بني قريظة) ففيه الرد على أعداء الإسلام بشأن الرق.

(٤) قال في أسد الغابة مسعود بن سنان الأنصاري السلمي قتل يوم اليمامة.

(٥) هو الأسود بن خزاعي الأسلمي من حلفاء بني سلمة من الأنصار، أحد الذين اشتركوا في قتل ابن أبي

الحقيق اليهودي في خيبر.

(٦) أبو رافع من السابقين الأولين. انظر ترجمته في كتابنا الأول (غزوة بدر الكبرى).

رسول الله ﷺ كتاباً مع عبد الله بن عمرو بن عوف المزني^(١) يخبره أنه لقي جمعاً من زبيد (وزيد من مذحج)، وأنه دعاهم إلى الإسلام وأعلمهم أنهم إن أسلموا كف عنهم، فأبوا ذلك وقتلهم. فقد قال علي في كتابه هذا: فرزقني الله الظفر عليهم حتى قتل منهم من قتل. ثم أجابوا إلى ما كان عرض عليهم، فدخلوا في الإسلام وأطاعوا بالصدقة (أي الزكاة)، وأتى بشر منهم للدين وعلمتهم قراءة القرآن، ولما تسلم رسول الله ﷺ كتاب على أمره أن يوافيه في الموسم (أي الحج) فانصرف عبد الله بن عوف إلى علي بذلك.

إسلام كعب الأحبار: وجاء في كتب الحديث والتاريخ والتراجم أن علي بن أبي طالب لما قدم اليمن غازياً في تلك السنة سمع به كعب الأحبار (ومعه حبر من أحبار اليهود).. وكان كعب أيضاً حبراً من أحبارهم.. فخطب علي وكعب والحبر اليهودي يستمعان إليه.

وُقيل عن كعب الأحبار أنه قال: لما قدم علي اليمن لقيته فقلت: أخبرني عن صفة محمد. فجعل يخبرني عنه، وجعلت أتبسم فقال: مم تبسم فقلت: مما يوافق ما عندنا من صفة فقال: ما يحل وما يجرم، فقلت: فهو عندنا كما وصفت، وصدقت برسول الله ﷺ وأمنت به، ودعوت من قبلنا من أحبارنا، وأخرجت إليهم سفراً فقلت: هذا كان أبي يختمه على ويقول: لا تفتحه حتى تسمع بني يئرج يئرب. قال: فأقمت باليمن على إسلامي حتى توفي رسول الله ﷺ، وتوفي أبو بكر، فقدمت في خلافة عمر، ويا ليت أني تقدمت في الهجرة^(٢).

عام الوفود وتكامل الإسلام في جزيرة العرب: ثلاثة أحداث خطيرة هامة متلاحقة جعلت اليأس الكامل - بين الوثنيين في جزيرة العرب - يحل محل أي أمل لمبادئ الشرك والوثنية أن تبقى قائمة في جزيرة العرب.

وهذه الأحداث الهامة المتلاحقة باطراد هي:

١ - فتح مكة وسيطرة المسلمين على هذه العاصمة المقدسة عند العرب على

(١) هو عبد الله بن عمرو بن عوف بن زيد بن مليحة المزني. كان قديم الإسلام وكان أحد البكائين في غزوة تبوك لأنه لم يستطع - لفقره - الغزو مع رسول الله ﷺ. كان ممن صلى مع رسول الله ﷺ نحو بيت المقدس قبل أن تحول القبلة إلى الكعبة. توفي بالمدينة آخر أيام معاوية.

(٢) مغازي الواقدي ج ٣ ص ١٠٧٩ و ١٠٨٠ و ١٠٨١ و ١٠٨٢.

اختلاف اتجاهاتهم الوثنية وميولهم القبلية.

٢- انتصار المسلمين في معركة حنين على أقوى قوة وثنية ضاربة (قوة هوازن) التي كانت أمل المتبقين على الوثنية في أن يعيد انتصارها على المسلمين الأمل بعودة سلطان الوثنية كما كان.

٣- الانتصار العظيم الذي حققه المسلمون في غزوة تبوك التي هي (من حيث ضخامة الجيش) أكبر حملة عسكرية في تاريخ الإسلام في العهد النبوي، حيث أرهبت هذه الحملة أعظم إمبراطورية كانت سيدة العالم بلا منازع وهي الإمبراطورية البيزنطية التي جربت وأحجمت عن التصدي للمسلمين الذين وصلوا تبوك وتحذوا هذه الإمبراطورية بيت الدوريات المسلحة في أطراف الشام وأخضعوا كثيراً من العرب المنتصرة الموالين للرومان مثل نصارى دومة الجندل وحكام أذرح وجرباء وإيلات داخل الشام نفسها ففرضوا عليهم الجزية، رغم أنهم ضمن ممتلكات الإمبراطورية البيزنطية. يضاف إلى ذلك قيام قطعات من الجيش النبوي هنا وهناك بتطهير جيوب وثنية صغيرة كانت واهمة بأنها قادرة على مقاومة الإسلام والبقاء على وثنتها مثل أهل نجران ومذحج باليمن.

بعد كل هذه الأحداث التي بعدها أصبح الإسلام المسيطر بلا منازع على كل أقطار الجزيرة، نظر المتربصون في أنحاء الجزيرة العربية في الوضع وقاموا بمعادلة دقيقة، توصلوا بعدها على أن لا فائدة من إبداء أية مقاومة ضد تيار الإسلام الجارف، فقرروا - عن رغبة أو رهبة - أن يبعثوا بوفودهم إلى المدينة لتعلن دخول الجميع في الدين الجديد. فأخذت وفود العرب - منذ السنة التاسعة الهجرية حتى أوائل الحادية عشرة منها - تتبارى في التسابق إلى المدينة للدخول في الإسلام فازدحمت المدينة بهذه الوفود. فكان ذلك نصراً من الله العزيز القدير سجله القرآن في سورة كاملة وهي سورة النصر : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾ ﴾ .

وقد سجل أحد أئمة المغازي هذه الحقيقة وهو محمد بن إسحاق في كتاب سيرة ابن هشام فقال: لما فتح رسول الله ﷺ مكة وفرغ من تبوك وأسلمت ثقيف (١) وبايعت ضربت إليه وفود العرب من كل وجه. قال ابن هشام: حدثني أبو عبيدة: أن ذلك في سنة تسع، وإنها كانت تسمى سنة الوفود.

(١) انظر تفصيل إسلام ثقيف في كتابنا غزوة حنين.

قال ابن إسحاق: وإنما كانت العرب تربص بالإسلام أمر هذا الحي من قريش، وأمر رسول الله ﷺ، وذلك أن قريشاً كانوا إمام الناس وهاديهم، وأهل البيت الحرام، وضريح ولد إسماعيل بن إبراهيم (عليه السلام)، وقادة العرب لا ينكرون ذلك، وكانت قريش هي التي نصبت الحرب لرسول الله ﷺ تحت مكة، ودانت له قريش ودوخها الإسلام، وعرفت العرب أنه لا طاقة لهم بمحاربة رسول الله ﷺ ولا عداوته، فدخلوا في دين الله، كما قال عز وجل، أفواجاً يضربون إليه من كل وجه، يقول الله تعالى لنبية ﷺ: ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١٠٠﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿١٠١﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿١٠٢﴾ ﴾ أي: فاحمد الله على ما أظهر من دينك واستغفره إنه كان تواباً. أ هـ.

ونحن سنذكر هنا (بشيء من الاختصار) أسماء جميع الوفود ونبداً من أخبارهم إن شاء الله تكملة للفائدة وتويراً للقارئ وثقيفاً. وعامة الوفود وفدوا على رسول الله ﷺ فيما بين السنة التاسعة هجرية وأوائل السنة الحادية عشر. وقلة منهم وفد في السنة الثامنة.

- ١ -

وفد مزينة^(١)

ويذكر المؤرخون أن أول وفد في الإسلام وفد على رسول الله ﷺ هم وفد مزينة. وفد منهم على رسول الله ﷺ أربعمائة فارس يرأسهم الصحابي الصالح التقى الفاتح بطل معركة فتح الفتوح (نهاوند بفارس) النعمان بن مقرن. وكان لمزينة شأن عظيم في نصره الإسلام وخاصة أيام الردة حيث صارت قبيلة مزينة العمود الفقري للجيش الذي صد به الخليفة الأول هجوم المرتدين عن المدينة بعد وفاة الرسول ﷺ، وكان الذي بايع رسول الله ﷺ على مزينة خزاعي بن عبد نهم^(٢). وكان خزاعي رجلاً شريفاً فظن بقومه الخير فبايع عنهم جميعاً على الإسلام، ولكنه - أول الأمر - لم يجدهم كما يظن، وكان حسان بن ثابت قد أمره الرسول ﷺ أن يقول

(١) هو خزاعي بن عبد نهم بن عفيف بن ربيعة المزني، كان يجنب صنماً لمزينة اسمه نهم، فكسر الصنم ولحق برسول الله ﷺ فأسلم وهو يقول:

ذهبت إلى نهم لأذبح عنده عترة نسك كالذي كنت العمل
فقلت لنفسي حين راجعت حزمها أهذا إله أبكم ليس يعقل
أتيت أبي اليوم دين محمد إله السماء الماجد المتفضل

فأسلمت مزينة كلها وكانوا ألف رجل في عهد خزاعي ثم تكاثروا فكانوا قوة عظيمة للإسلام.

شعراً فيذكر فيه خزاعياً ولا يهجوهُ. فقال حسان:

ألا أبلغ خزاعياً رسولاً بأن الذمَّ يغسله الوفاء
وأنت خير عثمان بن عمرو وأسناها إذا ذكر السناء
وباعيت الرسول وكان خيراً إلى خير وأذاك الشراء
فما يعجزك أو مالا تطقه من الأشياء لا تعجز عدا

فقال خزاعي لقومه: يا قوم قد خصكم شاعر الرجل فأنشدكم الله، فأجابوه جميعهم إلى الإسلام قائلين: فإننا لا ننبا عليك، فأسلموا ووفدوا على النبي ﷺ، فدفع رسول الله ﷺ لواء مزينة يوم الفتح إلى خزاعي هذا وكانوا يومئذ ألف رجل، ومزينة هي القبيلة الباسلة الوحيدة التي جعلها الرسول ﷺ ضمن المهاجرين رغم أنها كانت مقيمة بباديتها حسب رغبة الرسول ﷺ الذي قال لهم: أنتم مهاجرون حيث كنتم فارجعوا إلى أموالكم، فرجعوا إلى بلادهم ومن الجدير بالذكر أن وفد مزينة جاء المدينة سنة خمس هجرية^(١). وهو الوفد الوحيد الذي وفد قبل السنة التاسعة.

٢ - وفد بني أسد

ثم وفد على رسول الله ﷺ وفد بني أسد بن خزيمه في السنة التاسعة، وكانوا عشرة رهط على رأسهم الصحابي الجليل البطل، ضرار بن الأزور^(٢) وكان من بينهم فارس بني أسد طليحة بن خويلد الذي ادعى النبوة فيما بعد، وحارب جيوش الخلافة حرباً طاحنة فهزمه خالد بن الوليد حتى فر إلى الشام، وفي وفد بني أسد أنزل الله تعالى قوله: ﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ الآية، لأنهم قالوا للرسول ﷺ: أتيناك نتردع الليل البهيم، في سنة شهباء، ولم تبعث إلينا بعثاً.

٣ - وفد تميم

كذلك وفد على رسول الله ﷺ وفد تميم من نجد، وكانوا تسعين رجلاً، بينهم عدة

(١) طبقات ابن سعد الكرى ج ١ ص ٢٩١.

(٢) هو ضرار بن الأزور، واسم الأزور مالك بن أوس من بني أسد بن خزيمه، كان فارساً شجاعاً، ولما قدم على رسول الله ﷺ كان له ألف بعير برعايتها، وضرار البطل هو الذي قال له رسول الله ﷺ: ما غبنت صفقتك يا ضرار، كان ضرار من هيئة أركان حرب خالد بن الوليد في حروب الردة، وضرار هو الذي قتل مالك بن نويرة سيد بني يربوع من تميم بأمر خالد بن الوليد، وشهد ضرار معركة اليمامة، فأبلى فيها بلاءً عظيماً، وقد استشهد بأجنادين بالشام.

من ساداتهم، فيهم عطارد بن حاجب^(١)، والزبرقان بن بدر^(٢)، وقيس بن عاصم^(٣)، والأقرع بن حابس.

وفي وفد بني تميم هذا أنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُتَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾^(٤). لأنهم نادوا (وهم في المسجد) رسول الله ﷺ: أن أخرج إلينا يا محمد، فأذى ذلك رسول الله ﷺ من صياحهم فخرج إليهم وقصتهم وقصة مفاخرة شعرائهم وخطبائهم في المسجد مطولة، انظرها في سيرة ابن هشام وطبقات بن سعد والبداية والنهاية، وكان خطيبهم عطارد بن حاجب، فرد عليه ثابت بن قيس ابن

(١) هو عطارد بن حاجب بن زرارة بن عدس من بني دارم. كان سيداً في قومه، أغوته سجاح المتنبية فتبعها، ثم تاب وحسن إسلامه.

(٢) هو الزبرقان بن بدر بن امرئ القيس التميمي، وإنما قيل له: الزبرقان لحسنه وجماله، والزبرقان القمر، ولاء الرسول ﷺ صدقات قومه. وقد ثبت على الإسلام عندما ارتد بعض قومه، كان سيداً في الجاهلية عظيم الشأن في الإسلام، وقد نزل البصرة في عهد عمر بن الخطاب.

(٣) هو قيس بن عاصم بن سنان بن خالد المنقري، وله قال النبي ﷺ: هذا سيد أهل الوبر، كان عاقلاً حليماً مشهوراً بالحلم. سئل الأحنف بن قيس: ممن تعلمت الحلم؟ فقال: من قيس بن عاصم، رأيت يوماً قاعداً بفناء داره محتبياً بحمائل سيفه، يحدث قومه، إذ أتى برجل مكتوف وآخر مقتول، فقيل: هذا ابن أخيك قتل ابنك. قال: فو الله ما حل جبوته ولا قطع كلامه، فلما أتمه التفت إلى ابن أخيه، فقال: يا ابن أخي بشما فعلت، أئمت بريك، وقطعت رحمك وقتلت ابن عمك، ورميت نفسك بسهمك، وقللت عددك، ثم قال لابن له آخر: قم يا بني إلى ابن عمك فحل كتافه، وسق إلى أمك مائة من الإبل دية ابنها، فإنها غريبة، وكان قيس قد حرم على نفسه الخمر في الجاهلية، وكان سبب ذلك أنه غمز عكنة ابنته وهو سكران وسب أبويها. وقال شعراً يذم فيه الخمر، منه:

فإن الخمر تفضح شاربها وتجنهم بها الأمر العظيما

أسلم قيس وحسن إسلامه. وقال الحسن البصري: لما حضرت قيساً الوفاة دعا بنيه، فأوصاهم قائلاً: يا بني احفظوا عني، فلا أحد أنصح لكم مني، إذا أنا مت فسودوا كباركم ولا تسودوا صغاركم فتسفه الناس كباركم وتهونوا عليهم، وعليكم بإصلاح المال فإنه منبهة للكريم، ويستغنى به عن اللئيم، وإياكم ومسألة الناس فإنها آخر كسب المرء، ولا تقيموا على نائحة فإني سمعت رسول الله ﷺ نهى عن النائحة. كان قيس من رواة الحديث عن رسول الله ﷺ، روى عنه الحسن والأحنف، وابنه حكيم، مات وله من الولد اثنان وثلاثون ذكراً.

(٤) الحجرات: آية ٤.

الشماس^(١) بأمر رسول الله ﷺ، أما شاعرهم، فكان الزبيرقان بن بدر، ورد عليه حسان ابن ثابت بأمر من رسول الله ﷺ، وقد اعترفت تميم أن خطيب النبي أخطب من خطيبهم وشاعره اشعر من شاعرهم (أنظر سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٢٠٦ إلى ٢١٣).

- ٤ - وفد عبس

كذلك وفد على الرسول ﷺ وفد بني عبس من نجد، وفد تسعة رهط منهم، فيهم ميسرة بن مسروق وبشر بن الحارث بن عبادة، فأسلموا، فدعا لهم رسول الله ﷺ بخير، وقال: أبغوني رجلاً يعسركم أعقد لكم لواءاً، فدخل طلحة بن عبيد الله، فعقد لهم لواءاً وجعل شعارهم يا عشرة.

وبعد أن أسلموا قدم ثلاثة منهم على رسول الله ﷺ، فقالوا: إنه قدم علينا قراؤنا فأخبرونا أنه لا إسلام لمن لا هجرة له، ولنا أموال ومواش هي معاشنا، فإن كان لا إسلام لمن لا هجرة له بعناها وهاجرنا فقال رسول الله ﷺ: اتقوا الله حيث كنتم فلن يلتكم من أعمالكم شيئاً ولو كنتم بصمد وجزان، وسأهم عن (حكيمهم) خالد بن سنان العبسي، فقالوا: لا عقب له، فقال: نبي ضيعه قومه، ثم أنشا يحدث أصحابه حديث خالد ابن سنان (طبقات ابن سعد ج ١ ص ٢٩٦).

- ٥ - وفد فزارة

وفزارة من أعظم قبائل غطفان، وسيدها كان عيينة بن حصن الملقب بالأحمق المطاع، قدم وفد فزارة المدينة سنة تسع. قال ابن سعد: لما رجع رسول الله ﷺ من تبوك، وكانت سنة تسع، قدم عليه وفد فزارة بضعة عشر رجلاً فيهم خارجة بن حسن والحر بن قيس، وهو أصغرهم، على ركاب عجاف، فجاءوا مقرين بالإسلام، وسأهم رسول الله ﷺ عن

(١) هو ثابت بن قيس بن الشماس بن زهير بن مالك الخزرجي الأنصاري، كانت أول مشاهدته الحربية معركة أحد، كان رسول الله ﷺ بشره بأنه من أهل الجنة «أسد الغابة ج ١ ص ٢٢٩» كان من أبطال معركة اليمامة، أبلى فيها بلاء عظيمًا فقاتل قتال الأبطال، عندما كانت الهزيمة أول الأمر في المسلمين، واستشهد يوم اليمامة.. قال أنس بن مالك، لما انكشف الناس يوم اليمامة قلت لثابت ابن قيس بن شماس: ألا ترى يا عم، ووجدته يحنط. فقال: ما هكذا كنا نقاتل مع رسول الله ﷺ، بس ما عودتم أقرانكم وبس ما عودتم أنفسكم، اللهم إني أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء يعني الكفار المرتدين، وأبرأ إليك مما يصنع هؤلاء يعني المسلمين، ثم قاتل حتى قتل.

بلادهم قالوا: يا رسول الله استنت بلادنا، وهلكت مواشينا، وأجدب جنابنا، وغرت عيالتنا، فادع لنا ربك، فصعد رسول الله ﷺ المنبر ودعا فقال: اللهم اسق بلادك وبهائمك وانشر رحمتك وأحي بلدك الميت، اللهم اسقنا غيثًا مغيثًا مرثيًا مرطبًا واسعًا عاجلاً غير آجل نافعًا غير ضار، اللهم اسقنا سقيا رحمة لا سقيا عذاب ولا هدم ولا غرق ولا محق، اللهم اسقنا الغيث وانصرنا على الأعداء فمطرت، فما رأوا السماء ستًا، فصعد الرسول ﷺ المنبر فدعا فقال: اللهم حوالينا ولا علينا، على الآكام والظراب وبطون الأودية ومنابت الشجر، قال: فانجابت السماء عن المدينة انجياب الثوب. (طبقات ابن سعد ج ١ ص ٢٩٧).

- ٦ - وفد بني مرة

مرة اسم يطلق على عدة قبائل قحطانية وعدنانية، ويظهر أن هذا الوفد هو من مرة بطن عظيم من غطفان العدنانية، بدليل أن رئيسهم كان الحارث ابن عوف الذي كان قائد أحد الأجنحة في جيوش الأحزاب التي حاصرت المدينة بالتواطؤ مع اليهود. وفد بنو مرة على رسول الله ﷺ مرجعه من تبوك، وكانوا ثلاثة عشر رجلاً، رأسهم الحارث بن عوف^(١)، فأجازهم رسول الله ﷺ بعشر أواق فضة، وفضل الحارث بن عوف أعطاه اثنتي عشرة أوقية، وكان الحارث بن عوف أخبر الرسول ﷺ أن الجفاف قد أصاب أرضهم، وطلب منه أن يدعو الله لهم. فقال الرسول ﷺ: اللهم اسقهم الغيث، فرجعوا إلى بلادهم فوجدوها قد مطرت في اليوم الذي دعا فيه رسول الله ﷺ.

- ٧ - وفد ثعلبة

بنو ثعلبة اسم يطلق على عدة قبائل قحطانية وعدنانية تبلغ العشرين قبيلة، وهؤلاء الذين وفدوا على رسول الله ﷺ بإسلامهم، ليس فيما بين يدي من مصادر، يحدد أية قبيلة هم، قحطانية أم عدنانية، مضرية أم قيسية. وكل ما وجدته هو ما رواه ابن سعد في طبقاته ج ١ ص ٢٩٨ فقال: لما قدم رسول الله ﷺ من الجعرانة سنة ثمان، قدم على رسول الله ﷺ أربعة نفر من ثعلبة وقالوا: نحن رسل من خلفنا من قومنا، ونحن وهم

(١) هو الحارث بن عوف بن أبي حارثة بن مرة الغطفاني ثم الذبياني، كان أحد مشاهير الجاهلية وهو صاحب المواقف المشهورة في حرب داحس والغبراء، حين سعى في الصلح وتحمل الديات من ماله فمدحه الشعراء لصنيعه هذا ولاة الرسول ﷺ على بني مرة. وكان عاقلاً حكيماً، رفض الاشتراك مع غطفان في مناصرة اليهود ضد الرسول ﷺ في حرب خيبر، وقال: إن محمداً سيغلب أعداءه.

مقرون بالإسلام، فأمر لهم بضيافة وأقاموا أياماً ثم جاؤوا يودعوه، فقال لبلال أجزهم كما تجيز الوفد، فجاء بنقر من فضة وأعطى كل رجل خمس أواق، قال: ليس عندنا دراهم، فانصرفوا إلى بلادهم.

٨ - وفد محارب

محارب اسم يطلق على سبع قبائل كلها من العدنانية، ولكن هؤلاء الذين وفدوا على رسول الله ﷺ هم بطن من قيس عيلان من العدنانية، وكانوا من أغلظ الناس وأفظهم على رسول الله ﷺ وكان وفداهم برئاسة طارق بن عبد الله، وقد جاؤوا إلى المدينة سنة عشر هجرية في حجة الوداع، فأسلموا وقالوا: نحن على من وراءنا. وكان في الوفد رجل منهم، فعرفه النبي ﷺ فقال الرجل: الحمد لله الذي أبقاني حتى صدقت بك. فقال رسول الله ﷺ: إن هذه القلوب بيد الله، ومسح وجه رجل منهم اسمه خزيمه بن سواء، فصارت له غرة بيضاء، وأجازهم كما يجيز الوفد، وانصرفوا إلى أهلهم.

٩ - وفد سعد بن بكر

هؤلاء بطن من هوازن وهم الذين أرضعوا النبي ﷺ، كان وفداهم قد جاء في رجب عام خمس وقال ابن إسحاق عام تسع، وكان وفد سعد هؤلاء من رجل واحد هو ضمام بن ثعلبة. فعن ابن إسحاق قال: بعث بنو سعد بن بكر ضمام بن ثعلبة وافتدوا إلى رسول الله ﷺ فقدم عليه فأناخ بعيره ثم عقله على باب المسجد، وكان رجلاً جلدًا ذا غديرتين، وهو الذي في القصة المشهورة - قال للنبي ﷺ: أنشدك بالله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك بالله بعثك إلينا رسولاً؟ قال: اللهم نعم، قال: فأنشدك بالله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك بالله أمرك أن نعبد وحده لا نشرك به شيئاً، وأن نخلع هذه الأوثان التي كانوا يعبدون؟ قال: اللهم نعم ثم جعل يذكر فرائض الإسلام فريضة فريضة، الصلاة والزكاة والصيام والحج وشرائع الإسلام، ينشده عند كل فريضة كما نشده في التي قبلها حتى فرغ فقال: إني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، وسأؤدي هذه الفرائض واجتنب ما نهيتني عنه لا أزيد ولا أنقص ثم انصرف راجعاً. فقال رسول الله ﷺ حين ولى: إن يصدق ذو العقيصتين يدخل الجنة.

ثم أتى ضمام قومه فاجتمعوا إليه، فكان أول ما تكلم به أن قال: بثت اللات والعزى، فقالوا له يا ضمام، اتق البرص اتق الجذام اتق الجنون: فقال: ويلكم إنهما والله ما يضران وما ينفعان، وإن الله قد بعث رسولاً وأنزل عليه كتاباً استتدكم به مما كنتم فيه

وقد جئتمكم من عنده بما أمركم به وأنهاكم عنه. قال: فو الله ما أمسى في ذلك اليوم في حضرته من رجل ولا امرأة إلا مسلمًا، وبنوا المساجد وأذنوا بالصلوات. قال ابن عباس: فما سمعنا بوافد قط كان أفضل من ضمام (أسد الغابة ج ٣ ص ٤٢ - ٤٣ وطبقات ابن سعد ج ١ ص ٢٩٩).

١٠ - وفد كلاب

كلاب اسم يطلق على عدة قبائل عدنانية، وهؤلاء هم أبناء كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة من هوازن. وفد وفداهم على رسول الله ﷺ سنة تسع، وهم ثلاثة عشر رجلاً فيهم لبيد بن ربيعة^(١) الشاعر، وجبار بن سلمى^(٢)، دخلوا على رسول الله ﷺ فسلموا عليه بسلام الإسلام، وقالوا: إن الضحاك بن سفيان^(٣) سار فينا بكتاب الله وبستك التي أمرته، وإنه دعانا إلى الله فاستجبنا لله ولرسول، وإنه أخذ الصدقة من أغنيائنا فردها على فقرائنا.

(١) هو لبيد بن ربيعة بن عامر بن مالك بن جعفر بن كلاب، كان شاعرًا من فحول الشعراء، وكان شريفًا في الجاهلية والإسلام، وكانت الحكمة تنضح من شعره، فصار يضرب بكثير من أبياته المثل. فمن ذلك قوله:

والمرء يصلح القمين الصالح
ما عاتب المرء الكرم كنفسه
وروى عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: أصدق كلمة قالها شاعر كلمة «ألا كل شيء ما خلا الله باطل». وهذا صدر بيت للبيد يقول فيه:

(ألا كل شيء ما خلا الله باطل
وقال لبيد لما أسلم:

الحمد لله إذا لم يأتني أحلى
ومن أبيات لبيد السائرة:

وكل امرئ يومًا سيعلم سعيه
وإذا كشفت عند الإله المحامد
وأكثر أهل الأخبار على أن لبيد لم يقل بيتًا من الشعر بعد أن هداه الله للإسلام، سوى البيت الوحيد:

الحمد لله إذ لم يأتني أحلى
حتى كساني من الإسلام سربالا

وقال عمر بن الخطاب - وكان خليفة - للبيد أنشدني شيئًا من شعرك، فقال: ما كنت لأقول شعراً بعد أن علمني الله البقرة وآل عمران، فزاده عمر في عطائه خمسمائة وكان ألفين. عاش لبيد مائة وأربعين سنة. وتوفى في خلافة عثمان بالكوفة في إمارة الوليد بن عقبة.

(٢) هو جبار بن سلمى بن مالك بن جعفر بن كلاب بن ربيعة. كان ممن حضر عامر بن الطفيل بالمدينة لما أراد أن يغتال النبي ﷺ ثم أسلم، وهو الذي قتل عامر بن فهيرة في جريمة بثر معونة، وكان يقول: مما دعاني إلى الإسلام أني طعنت رجلاً منهم فسمعتهم يقول: فزت والله. قال: فقلت في نفسي: ما فاز، أليس قد قتلته؟ حتى سألت بعد ذلك عن قوله فقالوا: الشهادة، فقلت: فاز لعمرو الله.

(٣) هو الضحاك بن سفيان بن عوف العامري الهوازني، صحب النبي ﷺ، ولاه الرسول ﷺ على من أسلم من قومه، كان من الشجعان الأبطال يعد بمائة فارس، روى عنه الحديث ابن المسيب والحسن البصري.

- ١١ - وفد بني عامر بن صعصعة .. وقصة محاولة اغتيال النبي ﷺ

قالوا: وقدم على رسول الله ﷺ وفد بني عامر بن صعصعة - وهم من هوازن - ،
فيهم عامر بن الطفيل وأربد بن قيس بن جزء وجبار بن سلمى. وكان هؤلاء شياطين
القوم ورؤسائهم.

وكان عامر بن الطفيل الخبيث متكبراً، يرى أنه أولى أن تتبعه العرب من محمد ﷺ،
فقد قال له قومه: يا عامر إن الناس قد أسلموا فأسلم.

قال: والله لقد كنت آليت أن لا أنتهي حتى تتبع العرب عقبي، أفأنا أتبع هذا الفتى
من قريش؟ وكان قد قرر اغتيال النبي ﷺ بمشاركة أربد بن قيس فقال له: إذا قدمنا على
الرجل فإني سأشغل عنك وجهه، فإذا فعلت ذلك فاعله بالسيف، فوافق أربد على هذه
الخطة الغادرة، غير أن الله أفضل المؤامرة. فقد ذكر المؤرخون أن عامراً طلب من
الرسول ﷺ أن يختلي به، فقال ﷺ لا حتى تؤمن بالله وحده لا شريك له، وجعل عامر
المجرم يكلم النبي ﷺ ويشاغله، ويتنظر من صاحبه أربد أن يفتك به فلم يستطع. فبيس
عامر، ثم خرج من مجلس النبي ﷺ ووجه اللوم إلى شريكه في الإجرام (أربد) قائلاً:
ويلك أين ما كنت أمرتك به؟ والله ما كان على ظهر الأرض رجل أخوف عندي على
نفسي منك، وأيم الله لا أخافك بعد اليوم أبداً. فقال أربد: لا أبالك، لا تعجل علي،
والله ما هممت بالذي أمرتني به من أمره إلا دخلت (أنت) بيني وبين الرجل، حتى ما
أرى غيرك، أفأضربك بالسيف؟ وروى أن الرسول ﷺ قال: اللهم اكفني عامر بن
الطفيل، وكان عامر قد وجه تهديداً إلى النبي ﷺ قائلاً: والله لأملأنها عليك خيلاً
ورجالاً. فخرج عامر ووفده راجعين إلى بلادهم، حتى إذا كانوا ببعض الطريق بعث الله
على عامر الطاعون في عنقه، فقتله الله في بيت امرأة من بني سلول، أما زميله المجرم الثاني
أربد، فقد سلط الله عليه صاعقه فأحرقته، والرجل الوحيد من الثلاثة الذي نجاه الله
فهده للإسلام، هو جبار بن سلمى^(١).

- ١٢ - وفد عبد القيس

عبد القيس ، بطن عظيم من ربيعة من العدنانية «انظر معجم قبائل العرب» كانت
مواطنهم تهامة ثم استقروا في النهاية بالبحرين.

(١) «انظر تفاصيل قصة عامر بن الطفيل مطولة في سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٢١٣ - ٢١٤ - ٢١٥ - ٢١٦ -

٢١٧ - ٢١٨ - ٢١٩ - وطبقات ابن سعد ج ١ ص ٣١٠-٣١١».

وَفَدَّ وَفَدَّهِمْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ سَنَةَ تِسْعِ بَرْنِاسَةِ الْجَارُودِ بْنِ عَمْرٍو ^(١)، وَكَانَ نَصْرَانِيًّا، فَعَرَضَ عَلَيْهِ الْإِسْلَامَ وَدَعَاهُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي قَدْ كُنْتُ عَلَى دِينٍ، وَإِنِّي تَارِكُ دِينِي لِذِينِكَ، أَقْتَضِمُنْ لِي دِينِي؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: نَعَمْ أَنَا ضَامِنٌ أَنْ قَدْ هَدَاكَ اللَّهُ عَلَى مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ. قَالُوا: فَأَسْلَمَ وَأَسْلَمَ أَصْحَابُهُ، وَرَوَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَحِبَ بُوْفِدَ عَبْدِ الْقَيْسِ قَائِلًا: مَرْحَبًا بِالْقَوْمِ غَيْرِ خَزَايَا، وَلَا نِدَامِي، فَقَالَ رِجَالُ الْوَفْدِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ مَضْرٍ، وَإِنَّا لَا نَصِلُ إِلَيْكَ إِلَّا فِي الْأَشْهُرِ الْحَرَمِ، حَدَّثَنَا بِجُمْلٍ مِنَ الْأَمْرِ، إِنْ عَمَلْنَا بِهِ دَخَلْنَا الْجَنَّةَ، وَنَدَعُوا بِهِ مِنْ وَرَاءِنَا.

قَالَ ﷺ: أَمْرِكُمْ بِأَرْبَعٍ وَأَنْهَاكُمْ عَنْ أَرْبَعٍ: الْإِيمَانُ بِاللَّهِ، هَلْ تَدْرُونَ مَا الْإِيمَانُ بِاللَّهِ؟ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ وَصَوْمُ رَمَضَانَ وَأَنْ تَعْطُوا مِنَ الْمَغْنَمِ الْخُمْسَ، وَأَنْهَاكُمْ عَنْ أَرْبَعٍ، مَا انْتَبَذَ فِي الدَّبَاءِ وَالنَّقِيرِ وَالْحَنْتَمِ وَالْمَزْفَتِ، وَعِنْدَمَا ارْتَدَتْ الْعَرَبُ ثَبِتَ بَنُو عَبْدِ الْقَيْسِ وَكَانُوا مَدَدًا لِلْمُسْلِمِينَ (انظر مزيداً من التفاصيل عن أخبار وفد عبد القيس في سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٢٢١ - ٢٢٢ وطبقات ابن سعد الكبرى ج ١ ص ٣١٤ - ٣١٥).

١٣ - وفد رؤاس

ورؤاس بطن من عامر بن صعصعة من هوازن، وقد وفد منهم رجل يقال له: عمرو بن مالك بن قيس فأسلم على يد رسول الله ﷺ ثم أتى قومه فدعاهم إلى الإسلام، فقالوا حتى نصيب من بني عقيل بن كعب (وهم أيضاً بطن من عامر بن صعصعة) مثل ما أصابوا منا.

قال ابن سعد: فخرجوا يريدونهم، وخرج معهم عمرو بن مالك المذكور، وحدث قتال بين الفريقين، فقتل عمرو بن مالك المسلم رجلاً من بني عقيل. قال عمرو فأسقط في يدي، وقلت: قتلت رجلاً وقد أسلمت وبايعت النبي ﷺ، فشدت يدي في غل إلى عنقي ثم خرجت أريد النبي ﷺ، وقد بلغه ذلك، فقال: لئن أتاني لأضربن ما فوق الغل من يده، قال فأطلقت يدي ثم أتيت فسلمت عليه فأعرض عني، فأنتيت من قبل وجهه فقلت: يا رسول الله إن الرب ليرضى فيرضى فأرض عني، رضي الله عنك، قال: قد رضيت عنك.

(١) هو الجارود بن عمرو، وقيل ابن المعلى، وإنما سمي الجارود؛ لأنه أغار في الجاهلية على بكر ابن وائل فأصابهم وجردهم، كان من رواة الحديث عن رسول الله ﷺ، روى عنه من الصحابة عبد الله بن عمرو بن العاص، ومن التابعين أبو مسلم الجذمي ومطرف بن عبد الله بن الشخير وابن سيرين، وغيرهم. استشهد الجارود في معركة نهاوند مع النعمان بن مقرن المزني بأرض فارس.

- ١٤ - وفد عقيل بن كعب

بنو عقيل أيضاً بطن من هوازن من بني عامر بن صعصعة، وقد وفد منهم ثلاثة على رسول الله ﷺ فبايعوا وأسلموا وبايعوه على من وراءهم من قومهم. فأعطاهم النبي ﷺ، العقيق. عقيق بني عقيل، وهي أرض فيها عيون ونخل، وكتب لهم بذلك كتاباً في أديم أحمر جاء فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى رسول الله ﷺ ربيعاً ومطرفاً وأنساً، أعطاهم العقيق ما أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وسمعوا وأطاعوا ولم يعطهم حقاً لمسلم» فكان الكتاب في يد مطرف.

- ١٥ - وفد جعدة

جعدة أو الجعدة، اسم يطلق على عدة قبائل قحطانية وعدنانية. والجعدة بطن من القحطانية يسكنون وادي حضرموت، والجعدة أيضاً، قبيلة تسكن إلى الغرب من بلاد يافع، وبلادهم جبلية. أما هؤلاء الوافد مندوبهم على رسول الله ﷺ، فهم بنو جعدة بن كعب بن ربيعة من هوازن. قال ابن سعد وفد منهم إلى رسول الله ﷺ الرقاد بن عمرو بن ربيعة ابن جعدة بن كعب وأعطاه رسول الله ﷺ بالفلج^(١) ضيعة وكتب له كتاباً وهو عندهم.

- ١٦ - وفد قشير

وقشير بطن من هوازن، وهم بنو قشير بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة. جاء في طبقات ابن سعد الكبرى أن نفراً من قشير، فيهم قره بن هبيرة، وفدوا على رسول الله ﷺ، فأسلموا فأعطى رسول الله ﷺ قره ابن هبيرة (وكان سيدياً من ساداتهم) وكساه برداً وأمره أن يلي صدقات قومه. وقال قره حين رجع.

حباها رسول الله إذ نزلت به وأمكنها من نائل غير مننفد
فأضحت بروض الخضر وهي حنيثة وقد أنجحت حاجتها من محمد
عليها فتى لا يردف الذم رحله تروك لأمر العاجز المتردد..

وقال ابن الأثير: إن النبي ﷺ لما كان في حجة الوداع نظر إلى قره وهو على ناقة قصيرة، فقال له رسول الله ﷺ: كيف قلت حين أتيتني (يعني يوم وفد عليه). قال: قلت يا رسول الله: كان لنا أرباب وربات من دون الله تعالى ندعوهم فلم يجيبونا ونسألهم فلم يعطونا، فلما بعثك الله أتيناك، وتركتناهم، وأحبيناك، فلما أدير قال رسول الله ﷺ أفلح من رزق لُباً.

(١) الفلج «بفتح أوله وسكون ثانيه» هو فلج الأفلاج قال في مراصد الاطلاع: وهو ما بين العارض ومطلع الشمس وراء المجازة، يصب فيه أودية العارض، به نخل ومزارع وعيون جارية.

وقد وقع قرّة أسيراً في يد قوات خالد بن الوليد في حروب الردة بنجد، حيث اتهم بأنه منع الزكاة وكانت هوازن أثناء حرب خالد وطليحة بن خويلد تربص بالمسلمين ولم تشترك مع طليحة. غير أن الخليفة الأول أطلق سراح قرّة وعفا عنه.

١٧ - وفد بني البكاء

والبكاء هؤلاء هم أيضاً من بني عامر بن صعصعة من هوازن وفد منهم على رسول الله ﷺ ثلاثة نفر سنة تسع منهم معاوية بن ثور بن عبادة بن البكاء، وهو يومئذ ابن مائة سنة، فأسلموا جميعاً، فأضافهم النبي ﷺ وأجازهم، وقال معاوية هذا للنبي ﷺ: إني أتبرك بمسك، وقد كبرت وابني هذا بُرّبي فامسح وجهه، فمسح رسول الله ﷺ وجهه بشراب معاوية وأعطاه أعزرا عفراء، وبرك عليهن. قال الجعد بن عبد الله بن عامر البكائي^(١): فالسنة^(٢) ربما أصابت بني البكاء ولا تصيبهم.

وكان ضمن الوفد رجل يقال له، الفجيع بن عبد الله فكتب له رسول الله ﷺ كتاباً: (من محمد النبي للفجيع ومن تبعه وأسلم وأقام الصلاة، وآتى الزكاة، وأعطى الله ورسوله وأعطى من المغام خمس الله، ونصر النبي وأصحابه، وأشهد على إسلامه وفارق المشركين، فإنه آمن بأمان الله وأمان محمد. قال هشام: وسمى رسول الله ﷺ عبد عمرو الأصبم عبد الرحمن وكتب له بمائه الذي أسلم عليه - ذي القصة - وكان عبد الرحمن أصحاب الظلة، يعني الصفة صفة المسجد^(٣)).

١٨ - وفد بني عبد بن عدي

هؤلاء لم أجد في المعاجم تحديداً لهويتهم، ولكن يظهر أنهم من كنانة جيران الحرم، قال ابن سعد: وقدم على رسول الله ﷺ وفد بني عبد بن عدي، وفيهم الحارث بن أهبان، وعويمر بن الأخرم وحبيب وربيعة ابنا ملة،^(٤) ومعهم رهط من قومهم، فقالوا يا محمد نحن أهل الحرم وساكنته وأعز من به، ونحن لا نريد قتالك، ولو قاتلت غير قريش قاتلنا معك، ولكننا لا نقاتل قريشاً، وإنما لنحبك ومن أنت منه، فإن أصبت منا أحداً خطأ فعليك ديتة، وإن أصبنا أحداً من أصحابك فعليتنا ديتة، فقال: نعم، فأسلموا^(٥).

(١) قال في أسد الغابة: هو عبد الله بن عامر بن أنيس، وفد على رسول الله ﷺ بإسلام قومه فصافحه النبي ﷺ وحياه وقال: أنت الوافد المبارك، فلما أصبح صبحته بنو عامر فأسلموا، فقال رسول الله ﷺ: يأبى الله لبني عامر إلا خيراً.

(٢) السنة هنا تعبير عن الجفاف طوال السنة.

(٣) طبقات ابن سعد ج ١ ص ٣٠٥.

(٤) لم أجد لهما ترجمة أكثر من قصة إسلامهما.

(٥) طبقات ابن سعد ج ١ ص ٣٠٦.

- ١٩ - فد أشجع

أشجع اسم قبيلة عظيمة من غطفان، وكانت أشجع أحد الأجنحة الأربعة التي قاتلت المسلمين في جيش الأحزاب، وكان نعيم بن مسعود صاحب القصة المشهورة في غزوة الخندق منهم وكان في جيش الأحزاب، ثم أسلم سرًا ونفع الله به المسلمين في تمزيق كلمة المشركين واليهود (انظر قصة نعيم الشيقة في كتابنا الثالث غزوة الأحزاب). ويقال إن أشجع وفدت على رسول الله ﷺ بعد أن فرغ من بني قريظة، وكانوا سبعمائة، فوادعهم، ثم أسلموا بعد ذلك، وكان منهم كتيبة ضمن الجيش النبوي عند فتح مكة. وكان قائدهم في جيش الشرك عام الأحزاب، مسعود بن رخيلة، إلا أنه أسلم فيما بعد وَحَسُنَ إِسْلَامُهُ.

- ٢٠ - وفد باهلة

باهلة قبيلة عظيمة من قيس عيلان من العدنانية، كانوا يقطنون اليمامة، ومنهم أحد قادة الفتح الإسلامي العظام (قتيبة بن مسلم الباهلي). وفد وافدهم على رسول الله ﷺ، وهو مطرف بن الكاهن^(١) الباهلي نيابة عن قومه فأسلم وأخذ لقومه أمانًا، وكتب له رسول الله ﷺ كتابًا فيه فرائض الصدقات، ثم قدم نهشل بن مالك^(٢) الوائلي من باهلة على رسول الله ﷺ وافدًا لقومه فأسلم أيضًا، وكتب له رسول الله ﷺ، ولمن أسلم من قومه كتابًا فيه شرائع الإسلام، وكتبه عثمان بن عفان.

- ٢١ - وفد بني سليم

وسليم (بضم أوله وفتح ثانيه) قبيلة عظيمة، وهم من قيس عيلان بن مضر بن نزار ابن معد بن عدنان، تتفرع سليم عشائر وبطون كثيرة. منتشرون في مساحة كبيرة من جزيرة العرب، وكانوا قوة ضاربة لهم وزنههم العسكري في الجاهلية والإسلام، وهم أبناء عمومة هوازن، وفي فتح مكة كان منهم (ضمن الجيش النبوي) ألف فارس، قادهم خالد بن الوليد.

(١) لم يزد المترجمون له على أن ذكروا قصة وفوده على الرسول ﷺ.

(٢) لم يزد أصحاب التراجم عند ترجمتهم لنهشل على ذكر قصة وفوده على النبي ﷺ.

وفد وافدهم على رسول الله ﷺ وهو رجل اسمه قيس بن نسيبة^(١) فسمع كلام النبي ﷺ وسأله عن أشياء فأجابته ووعى ذلك كله، ولما دعاه الرسول ﷺ إلى الإسلام أسلم، ثم رجع إلى قومه بنى سليم، فأخبرهم بما لا يدع مجالاً للشك في أن محمداً ﷺ نبي مرسل، حيث قال لهم: قد سمعت ترجمة الروم وهيمنة فارس وأشعار العرب، وكهانة الكاهن، وكلام مقالوم حمير، فما يشبه كلام محمد شيئاً من كلامهم، فأطيعوني وخذوا نصيبكم منه، فأسلم قومه، فلما كان عام الفتح خرجوا وهم ألف فلقوا رسول الله ﷺ بقديد قرب ساحل البحر وفيهم العباس بن مرداس.

وبنو سليم منهم ذلك الرجل الذي استعاد إنسانيته عندما رأى ثعلبان يبولان على إله لهم (صنم) فهان الصنم في نفسه، فكفر به وشد عليه فحطمه وهو يقول:

أرب يبول الثعلبان برأسه؟ لقد هان من بالت عليه الثعالب

ثم أتى النبي ﷺ، فقال: ما اسمك؟ قال غاوي بن ظالم، قال: أنت راشد^(٢) بن عبد الله، فأسلم وحسن إسلامه، وقد زكى النبي ﷺ راشدًا هذا، فقال: خير قرى عربية خير، وخير بني سليم راشد وعقد له على قومه، أي جعله أميراً عليهم. كانت منازل بني سليم بعالية نجد بالقرب من خيبر، ومن منازلهم وادي القرى المشهور بالبساتين وكان لهم شأن عظيم في الفتوحات الإسلامية، وخاصة بأفريقية، حيث كانت هناك منهم عشائر كثيرة وخاصة في شمال ليبيا ومصر وكان نزولهم مصر سنة تسع ومائة هجرية^(٣).

(١) قال في أسد الغابة: هو قيس بن نسيبة السلمى.. روى أبو معشر بإسناده لما كان من أهل بدر ما كان، اشتد على العرب لاسيما أهل نجد، فلما كان يوم الخندق ورجع المشركون إلى بلادهم، جاء قيس بن نسيبة إلى النبي ﷺ فسأله عن السماوات، فذكر له النبي ﷺ السماوات السبع والملائكة وعبادتهم وذكر الأرض وما فيها، فأسلم ورجع إلى قومه. فقال: قد سمعت ترجمة الروم وفارس وأشعار العرب والكهان ومقالوم حمير، وما كلام محمد يشبه شيئاً من كلامهم فأطيعوني في محمد فإنكم أخواله فإن ظفر تنتفعوا به وتعدوا، وإن تكن الأخرى لم تقدم العرب عليكم فأسلم بنو سليم جميعهم وكانوا قوة حربية عظيمة.

(٢) كان اسمه غاوي بن ظالم، فسماه النبي ﷺ راشد بن عبد الله، وكان سادن صنم لبني سليم يدعى سواعاً، وأسلم وحسن إسلامه، ولما فتح رسول الله ﷺ مكة أشار إلى الأصنام فسقطت لوجوها فقال راشد شعراً قالت هلم إلى الحديث فقلت لا لو ما شهدت محمداً وقبيله لرأيت نور الله أضحى ساطعاً يسأبى عليك الله والإسلام بالفتح حين تكسر الأصنام والشرك يغشى وجهه الأظلام

(٣) انظر معجم قبائل العرب، ج ٢ ص ٥٤٣ إلى ٥٤٦ وطبقات ابن سعد الكبرى ج ١ ص ٣٠٧ - ٣٠٨ والقاموس المحيط ج ١ - ١٣٦، ٣٥٢.

- ٢٢ - وفد بني هلال

بنو هلال قبيلة من عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن، تقع منازلهم في نجد والحجاز، ومن أراضيهم في جزيرة العرب، بيضة وتربة في بسائط الطائف، وعند الفتح الإسلامي انتشروا في مصر والمغرب واستوطنوا هناك.

وفد منهم على رسول الله ﷺ وفد فيهم عبد عوف بن أصرم، فسأله الرسول عن اسمه فأخبره فقال: أنت عبد الله، فأسلم، فقال رجل من ولده.

جدِّي الذي اختارت هوازن كلها على النبي عبد عوف وافداً
ومن أعضاء الوفد، قبيصة بن المخارق، قال: يا رسول الله إني حملت عن قومي حمالة فأعنى فيها، قال: هي لك في الصدقات إذا جاءت.

قالوا: ووفد على رسول الله ﷺ زياد بن عبد الله بن مالك بن بجير الهلالي، فلما دخل المدينة توجه إلى منزل ميمونة بنت الحارث زوج النبي ﷺ، وكانت خالة زياد المذكور. كانت أمه غرة بنت الحارث، وهو يومئذ شاب فدخل النبي ﷺ وهو عندها، فغضب الرسول ﷺ، فقالت ميمونة: يا رسول الله هذا ابن أختي فدخل إليها، ثم خرج إلى المسجد، ومعه زياد فصلى الظهر، ثم أدنى زياداً فدعا له ووضع يده على رأسه، ثم حذرهما على طرف أنفه، فكانت بنو هلال تقول: مازلنا نتعرف البركة في وجه زياد.

- ٢٣ - وفد بكر بن وائل

بكر بن وائل، هؤلاء قبيلة عظيمة من بني أسد بن نزار بن معد بن عدنان، وتتفرع عن بكر بن وائل بطون كثيرة منها بنو حنيفة وبنو عجل وبنو شيبان، تحتل بكر بن وائل مساحات شاسعة من جزيرة العرب، تمتد من اليمامة حتى البحرين، وكان لبكر بن وائل شأن عظيم في الجاهلية والإسلام، وقد أنشأوا لهم قبل الإسلام دولة في العراق على نهر دجلة وهي البلاد المسماة حتى اليوم بديار بكر، وقد كانوا يجاربون الإمبراطورية الفارسية قبل الإسلام ولكنهم كانوا حلفاء للفرس عندما دخل جيش خالد بن الوليد العراق، فقد كانوا من النصارى.

وقد قدم وفدهم على رسول الله ﷺ، فقال رجل منهم لرسول الله ﷺ: هل تعرف قس بن ساعدة؟ فقال رسول الله ﷺ: ليس هذا منكم، هذا رجل من أياد تحنّف في الجاهلية فوافى عكاظ، والناس مجتمعون فيكلمهم بكلامه الذي حفظ عنه، وكان في الوفد بشير الخصاصية^(١).

(١) كان اسمه، زحماً، فسماه الرسول ﷺ بشيراً، وهو من بني شيبان، أسلم وحسن إسلامه وسكن البصرة، وكان من رواة الحديث، روى عنه أبو المثني العبدي.

- ٢٤ - وفد تغلب

تغلب - بكسر اللام - قبيلة عظيمة من العدنانية، جدهم الأعلى ربيعة بن مضر، ومن تغلب تتفرع بطون كثيرة، وتغلب من القبائل الحربية ذات التاريخ الشهير، سكنت تغلب العراق قبل الإسلام في جهة سنجار ونصيبين، وتعرف بلادهم في العراق بديار ربيعة، قاتلت تغلب المسلمين إلى جانب الرومان عام ١٢ هجرية، لأن فيهم نصارى.. غير أنهم قاتلوا الفرس إلى جانب المسلمين سنة ١٣ هجرية.

وقد وفد منهم على رسول الله ﷺ وفد مختلط فيهم بعض النصارى، فكانوا ستة عشر رجلاً، فأسلم غير النصارى، وبقي النصارى على نصرانيتهم. فأجاز النبي ﷺ المسلمين، وصالح النصارى وأقرهم على دينهم.

- ٢٥ - وفد حنيفة

بنو حنيفة قبيلة عظيمة، من العدنانية من ربيعة بن نزار، تنحدر من بكر بن وائل، تقع منازلهم في اليمامة، وتعد بنو حنيفة من القبائل العربية المحاربة الشرسة في القتال، وقد ارتدت عن الإسلام، ودارت في بلادها أعنف معارك الردة التي خاضها المسلمون على الإطلاق.

وفد وفدهم على رسول الله ﷺ عام عشر هجرية وفيهم مسيلمة بن حبيب الذي أطلق عليه فيما بعد لقب (الكذاب) لأنه ادعى النبوة، والرحال بن عنقوة، الذي تعلم القرآن، ثم ارتد وكان بمثابة الموجه والداعية لمسيلمة الكذاب، وقد قتل الاثنان في معركة اليمامة.

وقد شهد كل أعضاء الوفد شهادة الحق عند رسول الله ﷺ، ثم حدثت الردة فيما بعد بينهم، وكان مسيلمة قد خلفوه في رحلهم عندما قابلوا النبي ﷺ، فأجازهم النبي ﷺ كل واحد خمس أواق فضة، فقالوا: يا رسول الله خلفنا صاحباً لنا في رحالنا يبرصها لنا، وفي ركابنا يحفظها علينا، فأمر له ﷺ بمثل ما أمرهم من الجائزة، وقال: ليس بشركم مكاناً لحفظه ركابكم ورحالكم، فذكر ذلك لمسيلمة، فقال الخبيث: عرف أن الأمر إلي من بعده، فرجعوا إلى بلادهم وكان عندهم راهب في كنيسة، فلما سمع مؤذنين يؤذن بالتوحيد، قال: كلمة حق، ثم ادعى مسيلمة النبوة، وشهد له الرحال بن عنقوة أن الرسول ﷺ أشركه في الأمر، فافتن الناس به، مما أدى إلى حروب طاحنة بين بني حنيفة وبين جيوش الإسلام.

- ٢٦ - وفد بني شيبان

شيبان قبيلة قحطانية عظيمة تتفرع من بكر بن وائل، وقد كان منهم قادة حربيون بارزون في الجاهلية والإسلام، ففي الجاهلية، منهم هانئ بن مسعود قاد العرب في معركة ذي قار وهزم فيها الفرس، ومنهم القائد المظفر المثنى بن حارثة، صاحب المعارك البطولية في العراق، وكثيرون آخرون، وهم من القبائل النجدية، وفي صدر الإسلام استوطنوا شرقي دجلة في العراق، وكان وفد بني شيبان إلى رسول الله ﷺ حريث بن حسان^(١) الشيباني.

فقد حدثت قبيلة بنت مخزومة^(٢) - في حديث طويل ذكره ابن سعد في طبقاته ج ١ ص ٣١٧ - ٣١٨ - فقالت: خرجت مع حريث - وكان صاحب صدق - حتى قدمنا على رسول الله ﷺ وهو يصلي بالناس صلاة الغداة، وقد أقيمت حين انشق الفجر والنجوم شابكة في السماء والرجال لا تكاد تعارف مع ظلمة الليل، فصففت مع الرجال وكنت امرأة حديثة عهد بجاهلية. فقال لي الرجل الذي يليني من الصف امرأة أنت أم رجل؟ فقلت: لا بل امرأة، فقال: إنك قد كدت تفتنيني، فصلي مع النساء وراءك، وإذا صف من النساء قد حدث عند الحجرات لم أكن رأيتك حين دخلت فكنت فيهن حتى إذا طلعت الشمس دنوت فجعلت إذا رأيت رجلاً ذا رواء وذا قش طمح إليه بصري لأرى رسول الله ﷺ فوق الناس، حتى جاء رجل - وقد ارتفعت الشمس - فقال: السلام عليك يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، وعليه - تعنى النبي ﷺ - أسما ملبيتين كانتا بزعفران فقد نفضا، ومعه عسيب نخلة مقشور غير خوصتين من أعلاه، وهو قاعد القرفصاء، فلما رأيت رسول الله ﷺ خشعاً في الجلسة أرعدت من الفرق^(٣)، فقال جليسه: يا رسول الله، أرعدت المسكينة، فقال رسول الله ﷺ، ولم ينظر إليّ وأنا عند ظهره: يا مسكينة عليك السكينة، فلما قالها رسول الله ﷺ أذهب الله ما كان أدخل في قلبي من الرعب.

(١) قال في أسد الغابة: الأصح أن اسمه الحارث، ثم ذكر قصته مع قبيلة والحارث هذا من بني ذهل بن شيبان، وروى عن الحارث أنه قال: وفدت والرسول على المنبر يقول: جهزوا جيشاً إلى بكر بن وائل. فقلت: يا رسول الله أعوذ بالله أن أكون كوافد عاد.

(٢) هي قبيلة بنت مخزومة الغنوية التميمية، لم يزد ابن الأثير في ترجمتها على أن ذكر قصة وفادتها على النبي ﷺ.

(٣) الفرق - بفتح أوله وثانيه - الخوف.

وقد تقدم حريث بن حسان، فبايع رسول الله ﷺ على الإسلام، عليه وعلى قومه، وذكر ابن سعد في طبقاته أن حرملة بن عبد الله^(١) خرج حتى أتى رسول الله ﷺ، فأسلم ثم ارتحل، ثم رجع وقال: يا رسول الله ما تأمرني أن أعمل؟ فقال: يا حرملة ائت المعروف واجتنب المنكر، ثم انصرف حتى أتى راحلته، ثم رجع وقال: يا رسول الله ما تأمرني أعمل؟ فقال يا حرملة (أئت المعروف واجتنب المنكر وانظر الذي تحب أذنك إذا قمت من عند القوم أن يقولوه فيك لك فائته والذي تكره أن يقولوه لك إذا قمت من عندهم فاجتنبه)^(٢).

- ٢٧ - وفد طيئ

طيئ قبيلة قحطانية عظيمة، وهم من كهلان، بنو طيئ بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان، تتفرع منهم بطون عديدة، كانت منازلهم باليمن، ثم خرجوا منها على إثر خروج الأزدي منه، ونزلوا بنجد في جوار بني أسد، ثم غلبوهم على جبلي أجأ وسلمى واستقروا بهما، وطيئ قوة حربية هائلة في الجاهلية والإسلام، عندما حدثت فتن الردة بعد وفاة الرسول ﷺ همت طيئ بالارتداد، ولكن سيدهم الميمون عدى بن حاتم صرفهم عن فكرة الردة فتحولوا إلى قوة جبارة في جانب خالد بن الوليد الذي بهم قاتل المرتدين من بني أسد، وفي حرب العراق عام ١٤ هـ كان لطيئ مع المثنى بن حارثة دور مشرف في محاربة الجوس الفرس.

جاء وفدهم على المدينة مؤلفاً من خمسة عشر رجلاً، برئاسة الفارس الشهير زيد الخيل^(٣)، فلما دخلوا على رسول الله ﷺ عرض عليهم الإسلام، وأجاز كل رجل منهم بخمس أواق فضة، وأعطى زيد الخيل اثنتي عشرة أوقية ونشأ بصفته رئيسهم.

(١) هو حرملة بن عبد الله بن أبياس التميمي العنبري. ذكر ابن الأثير قصته التي أوردناها، وقال: إنه يعد في البصريين.

(٢) طبقات ابن سعد الكبرى ج ١ ص ٣٢٠ - ٣٢١.

(٣) اسمه زيد بن مهلهل بن منهب الطائي. كان حسن الإسلام، لما وفد على الرسول ﷺ قال له: ما اسمك؟ قال: زيد الخيل، قال: بل أنت زيد الخير، فسل، قال: أسأل عن علامة الله فيمن لا يريد، فقال له رسول الله ﷺ: كيف أصبحت؟ فقال: أصبحت أحب الخير وأهله ومن يعمل به، فإن عملت به أثبت بثوابه، وإن فاتني منه شيء حزنت عليه. فقال له رسول الله ﷺ: هذه علامة الله فيمن يريد وعلامة الله فيمن لا يريد ولو أرادك بالأخرى لهيأك لها ثم لا يبالي الله في أي واد هلكت.

وقد أثنى رسول الله ﷺ عليه فقال ما ذكر لي رجل من العرب إلا رأيتَه دون ما ذكر لي إلا ما كان من زيد فإنه لم يبلغ كل ما فيه، وسماه رسول الله ﷺ زيد الخير وقطع له فيد وأرضين معه، وكتب له بذلك، فخرج من عند رسول الله ﷺ راجعاً إلى قومه، فلما انتهى زيد من بلد نجد إلى ماء من مياهه أصابته الحمى بها فمات، وقد ذكرنا فيما مضى من هذا الكتاب قصة الرجل عدي بن حاتم وقصة إسلامه مفصلة.

٢٨ - وفد تجيب

تُجيب - بضم أوله وفتح ثانيه - بطن من كندة، كانوا يسكنون الكسر في وسط حضرموت، وكانوا في عهد الهمداني ألف وخمسمائة، بينهم أربعمائة فارس. وفدوا على رسول الله ﷺ سنة تسع، وكان وفدهم مؤلفاً من ثلاثة عشر رجلاً، وساقوا معهم زكوات أموالهم، فسرّ رسول الله ﷺ بهم، وقال: مرحباً بكم وأكرم منزلهم وجباهم، وأمر بلالاً أن يحسن ضيافتهم وجوائزهم، فأعطاهم أكثر مما كان يجيز به الوفود. وقال رسول الله ﷺ لهم: هل بقي منكم أحد؟ قالوا: غلام خلفناه على رحالنا، وهو أحدثنا سنّاً، قال: أرسلوه إلينا، فأقبل الغلام إلى رسول الله ﷺ، فقال: إني امرؤ من بني أبناء الرهط الذين أتوك آنفاً فقضيت حوائجهم فاقض حاجتي. فقال: وما حاجتك؟ قال: تسأل الله أن يغفر لي ويرحمي ويجعل غنائي في قلبي، فقال: اللهم اغفر له وارحمه واجعل غناه في قلبه، ثم أمر له بمثل ما أمر به لرجل من أصحابه، فرجعوا إلى بلادهم، فلما وافوا رسول الله ﷺ في موسم الحج عام عشرة بمني، فسألهم عن الغلام. فقالوا: ما رأينا مثله أفنع منه بما رزقه الله، فقال رسول الله ﷺ: إني لأرجو أن نموت جميعاً.

٢٩ - وفد خولان

خولان من قبائل اليمن القحطانية، وهم من كهلان، وهم بنو خولان بن عمرو بن مالك بن الحارث بن مرة بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ. وخولان هؤلاء تقع ديارهم شرقي صنعاء، وهناك قبيلة أخرى يقال لها: خولان بن عامر اليوم، وهؤلاء تقع منازلهم شمال صعدة وهم على الأرجح من قضاة. وخولان هؤلاء الذين نحن بصدد ذكرهم، كان لهم شأن في الفتوحات الإسلامية وقد كان منهم قادة عسكريون مظفرون، منهم: السمح بن مال الخولاني أمير الأندلس الذي اجتاح في أوائل القرن الثاني الهجري جنوب فرنسا واحتل مدينة (طولوز)، ولا يزال حتى عهد قريب شارع فيها يسمى باسم السمح هذا فهو بالفرنسية (بيا الزاما) Wia Azzamma أي شارع السمح، ذكر ذلك الأمير شكيب أرسلان رحمه الله في

كتابه (فتوحات العرب في أوروبا وجزائر البحر الأبيض المتوسط).
 قدم وفد خولان (وهم عشرة نفر) على رسول الله ﷺ في شعبان سنة عشر هجرية.
 فقالوا: يا رسول الله، نحن مؤمنون بالله مصدقون برسوله، وقد ضربنا إليك آباط الإبل،
 وركبنا حزون الأرض وسهولها، والمئة لله ولرسوله، وقدمنا زائرين لك، فقال عليه
 السلام: أما ذكرتم من مسيركم إليّ فإن لكم بكل خطوة خطاها بغير أحدكم حسنة، وأما
 قولكم زائرين فإنه من زارني في المدينة كان جوارى يوم القيامة.

ثم سأله عن صنمهم الذي كانوا يعبدون واسمه (عمّ أنس) فقالوا: بشر وعر أبدلنا
 الله ما جئت به، إلا أن عجوزاً أو شيخاً كبيراً يتمسكان به، وإن قدمنا عليه هدمناه إن
 شاء الله، ثم علمهم ﷺ شرائع الإسلام وأمرهم بالوفاء والعهد وأداء الأمانة وحسن
 الجوار، وأن لا يظلموا أحداً، ثم ودعوه وخرجوا إلى بلادهم بعد أن أجاز كل واحد
 منهم اثني عشرة أوقية فضة ونشا، فلما رجعوا إلى بلادهم، لم يجلوا عقدة حتى هدموا
 صنمهم (عمّ أنس) وحرّموا ما حرّم عليهم رسول الله ﷺ، وأحلوا ما أحل لهم^(١).

- ٣٠ - وفد جعفي

جعفي (بضم الجيم وسكون العين) قبيلة قحطانية يمانية، ينحدرون من سعد العشيرة
 بن مالك من الكهلانية من مذحج. بين منازلهم وبين صنعاء اثنان وأربعون فرسخاً.
 وفد منهم رجلان، وهما قيس بن سلمة بن شراحيل، وسلمة بن يزيد بن مشجعة،
 وهما أخوان لأّم، فأسلما، فقال لهما رسول الله ﷺ: بلغني أنكم لا تأكلون القلب؟ قالوا:
 نعم، قال: فإنه لا يكمل إسلامكم إلا بأكله، ودعا لهما بقلب فشوى، ثم ناوله سلمة بن
 يزيد فلما أخذه أردعت يده، فقال له رسول الله ﷺ: كله فأكله.

قال ابن سعد: وكتب رسول الله ﷺ لقيس بن سلمة كتاباً نسخته: كتاب من محمد
 رسول الله ﷺ لقيس بن سلمة بن شراحيل، إني استعملتك على مرّان^(٢) ومواليها وحرّيم
 ومواليها والكلاب (بضم الكاف) ومواليها من أقام الصلاة وآتى الزكاة وصدّق ماله
 وصفاه، ثم قالوا: يا رسول الله: إن أمنا مليكة بنت الحلو كانت تفك العاني وتطعم

(١) نهاية الأرب للنويري، وتاج العروس للزبيدي ج ٦ ص ١٥٢ ج ٧ ص ٣١٢، وصفة جزيرة العرب
 للهمداني ص ٥٣ - ٥٤، وطبقات ابن سعد الكبرى ج ١ ص ٤٢٤.

(٢) يوجد اليوم بلد شمال شرقي صنعاء يقال له: بيت مران وهو من بلاد أرحب.

البائس وترحم المسكين، وإنها ماتت وقد وأدت بنية لها صغيرة فما حالها؟ قال: الوائدة والموءودة في النار. فقاما مغضبين، فقال ﷺ: إلى فارجعا فقال: وأمي مع أمكما (أي في النار)، فأبيا ومضيا يقولان: والله إن رجلاً أطمعنا القلب وزعم أن أماناً في النار لأهل أن لا يتبع، وذهبها، فلما كانا ببعض الطريق لقياً رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ، معه إبل من إبل الصدقة فأوثقاه واستوليا على الإبل، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فلعنهما فيمن كان يلعن.

غير أن رجلاً آخر من جعفى وفد على رسول الله ﷺ ومعه ابناه فأسلموا، وهو عمرو بن ذهل بن مرار بن جعفى وابناه سبرة وعزيز. فقال رسول الله ﷺ لعزير: ما اسمك؟ قال: عزيز، قال: لا عزيز إلا الله، أنت عبد الرحمن، فأسلموا، وأقطع رسول الله ﷺ عمرو بن ذهل واد باليمن يقال له حردان (بضم الحاء).

- ٣١ - وفد صداء

صداء (بضم الصاد) بطن من كهلان من القحطانية، وهم من أهل اليمن (معجم قبائل العرب ج ٢ ص ٦٣٦).

كان النبي ﷺ عقب انصرافه من حنين سنة ثمان هجرية شكل قوة حربية قوامها أربعمائة، وأعطى قيادتهم لسعد بن عباد وأمره بأن يغير بهم على بلاد صداء، فعسكروا في وادي قناة شمال المدينة، فبلغ ذلك الحشد رجلاً من قبيلة صداء، فجاء سريعاً إلى النبي ﷺ طالباً منه تجميد الحملة بقيادة سعد بن عباد قائلاً: جئتك وافداً على من ورائي، فاردد الجيش وأنا لك بقومي، فردهم الرسول ﷺ، وقد صدق الرجل، فوفد من صداء على النبي ﷺ خمسة عشر رجلاً فأسلموا وبايعوه على من وراءهم من قومهم، ففشا فيهم الإسلام، فلما كانت حجة الوداع عام عشر، وافى النبي ﷺ منهم مائة رجل، وكان الرجل الذي ضمن للرسول ﷺ إسلام قومه، فردّ النبي ﷺ الجيش، هو زياد بن الحارث الصدائي. فلما قدم بهم قال له الرسول ﷺ: يا أخا صداء إنك لمطاع في قومك.

- ٣٢ - وفد مراد

مراد قبيلة فحطانية مذحجية يمانية من كهلان، وهم بنو مراد بن مذحج وهو مالك ابن أدد، كانت بلادهم إلى جانب زبيد من اليمن، أما اليوم فقبيلة مراد تسكن جنوب شرقي اليمن وعاصمتهم (الجوبة) وهم في المثلث الواقع بين مأرب ورداع وحريب.

كان وافد مراد على رسول الله ﷺ هو فروة بن مسيك، فأسلم وحسن إسلامه وولاه رسول الله ﷺ على قومه مراد وزيد ومذحج كلها، وبعث معه خالد بن سعيد بن العاص الأموي على الصدقة، فكان معه حتى توفي رسول الله ﷺ، ولما حدثت الردة في اليمن، ثبت فروة بن مسيك على إسلامه وساند المسلمين ضد الأسود العنسي وأنصاره المرتدين.

- ٣٣ - وفد زبيد

زُبيد اسم يطلق على عدة قبائل، وزُبيد هنا، هم من مذحج بن صعيب ابن سعد العشيرة من بني زيد بن كهلان، وهم قوم الفارس الشهير عمرو بن معدى كرب الزبيدي، وكان وافدهم على رسول الله ﷺ عمرو بن معدى كرب، قدم عليه فأسلم وصدّقه وآمن به ورجع عمرو إلى قومه وعليهم رئيس فروة بن مسيك المرادي؛ لأن الجميع من مذحج.

غير أن عمرو بن معدى كرب، لما توفي رسول الله ﷺ إرتد عن الإسلام، وانضم إلى قوم الأسود العنسي المتنبئ الكذاب. وقد وقع عمرو في أسر بعض وحدات جيش الخلافة، فقاده أسيراً في المدينة، فعفا عنه الخليفة الأول، فأسلم وحسن إسلامه، وقد شارك المسلمين في معارك اليرموك والقادسية ونهاوند (فتح الفتوح)، وقد استشهد في معركة فتح الفتوح هو وطليحة بن خويلد الأسدي الذي كان قد ادعى النبوة ثم تاب.

- ٣٤ - وفد كندة

كندة قبيلة قحطانية حضرمية عظيمة، كان منها ملوك كثيرون قبل الإسلام، وقد امتد ملكهم على نجد واليمن والحجاز^(١).

وكنده هم بنو كندة، واسمه ثور بن عفير بن عدي بن الحارث بن مرة ابن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان، وسمّى ثور (كندة) لأنه كند أباه أي كفر نعمته. تقع منازلهم في الكسر بحضرموت وتمتد إلى مسافات واسعة ناحية شمال حضرموت، وقد تفرقت في حضرموت منهم بطون كثيرة، وفي أيام سلطان الإسلام في

(١) (معجم قبائل العرب ج ٣ ص ٩٩٨).

الصدر الأول كان لكندة - من الناحية الحربية - شأن عظيم، وبعد وفاة الرسول ﷺ ارتدت كندة عن الإسلام، فأخضعهم المهاجر بن أبي أمية وعكرمة بن أبي جهل، وقد وقع ملكهم الأشعث بن قيس في الأسر فعفا عنه الخليفة الأول فأسلم وحسن إسلامه.

وفدوا على رسول الله ﷺ عام تسع هجرية في ثمانين راكباً، ورئيسهم الأشعث بن قيس، فدخلوا على النبي ﷺ مسجده قد رجلوا جمهم واكتحلوا، وعليهم جباب الحبرة قد كففوها بالحرير، وعليهم الديباج مخصّ بالذهب، فقال لهم الرسول ﷺ: ألمّ تسلموا، قالوا: بلى، قال: فما بال هذا عليكم (يعني الحرير والذهب) فألقوه. وقد قال الأشعث: نحن بنو آكل المرار. وآكل هو الحارث بن عمرو بن حجر بن عمرو بن معاوية ابن الحارث بن معاوية بن ثور بن مرتع بن معاوية بن كندي، وإنما سمى آكل المرار، لأن عمرو بن الهبولة الغساني أغار عليهم، وكان الحارث غائباً فغنم وسبى، وكان فيمن سبى أم أناس بنت عوف بن محلم الشيباني، امرأة الحارث بن عمرو، فقالت لعمرو بن الهبولة: - في مسيرة - لكأني برجل أدلم أسود، كأن مشافره مشافر بعير آكل مرار قد أخذ برقبتك، تعنى زوجها الحارث فمن يومئذ سمى الحارث، آكل المرار، وقد تبع الحارث عمرو بن الهبولة وقومه فلحقه، فقتله، واستنقذ امرأته، وما كان أصاب من غنائم.

- ٣٥ - وفد الأزد

- الأزد (بفتح الهمزة وسكون الزاي) جيل من أعظم أجيال العرب وأشهرها. تنتسب إلى الأزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن كهلان من القحطانية.
- وتتفرع الأزد إلى فروع عظيمة أربعة:
- ١- أزد شنوءة، ونسبتهم على كعب بن عبد الله بن مالك بن نصر بن الأزد. وتقع منازلهم بالسراة وهي أودية بثلاث وتربة وبيشة.
 - ٢- أزد غسان. كانت منازلهم في شبه جزيرة العرب، ثم استوطنوا الشام وأسسوا لهم بها ملكاً.
 - ٣- أزد السراة. كانت منازلهم في الجبال المعروفة حتى الآن بهذا الاسم (جبال السراة).
 - ٤- أزد عمان. كانت منازلهم هناك بعمان حيث أسسوا لهم قبل الإسلام فيها ملكاً عظيماً.

موطنهم الأصلي مأرب باليمن من أرض سبأ، ولما تصدّع السد وأشرف على الانهيار، هاجروا وتفرقوا في البلاد، وكان منهم الأوس والخزرج الذين استوطنوا يثرب، ولحقت خزاعة بمكة، ولحقت وادعة ومحمد وخزام وعتيك وغيرهم بعمان، ولحقت غامد ويشكر وبارق وميدعان وغيرهم بالشرارة، ولحقت جفنة وآل محرّق بن عمرو بن عامر (مزيقيا) وقضاة بالشام.

وقد كان لهم شأن عظيم بعد هجرتهم من مأرب، فكانوا ملوكاً بالشام والعراق ويثرب وعمان، ومن الجدير بالذكر أن قبيلة طيء العظيمة تنحدر من قبيلة الأزدي. وقد وفد وفدهم على رسول الله ﷺ برئاسة سرد بن عبد الله^(١) سنة تسع هجرية، ولما دخلوا على رسول الله ﷺ كلموه، فأعجبه ما رأى من سمتهم وزينهم فقال: من أنتم؟ قالوا: مؤمنون، فتبسم ﷺ وقال: إن لكل قول حقيقة فما حقيقة قولكم وإيمانكم؟ قالوا خمس عشرة خصلة، خمس منها أمرتنا رسولك أن نؤمن بها، وخمس أمرتنا أن نعمل بها، وخمس تخلّقنا بها في الجاهلية، فنحن عليها إلا أن تكره منها شيئاً، فقال النبي ﷺ: ما الخمس التي أمرتكم بها رسلي؟ قالوا: أن نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت. قال: وما الخمس التي أمرتكم أن تعملوا بها؟ قالوا: أمرتنا أن نقول: لا إله إلا الله ونقيم الصلاة، ونؤتي الزكاة، ونصوم رمضان، ونحج البيت إن استطعنا إليه سبيلاً. قال: وما الخمس التي تخلّقتم بها في الجاهلية؟ قالوا: الشكر عند الرخاء، والصبر عند البلاء، والرضا بمر القضاء، والصدق في موطن اللقاء، وترك الشماتة بالأعداء. فقال: ﷺ: حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء، ثم قال: وأنا أزيدكم، فتم لكم عشرون خصلة إن كنتم كما تقولون، فلا تجمعوا ما لا تأكلون، ولا تبنوا ما لا تسكنون، ولا تنافسوا في شيء أنتم عنه غداً زائلون، واتقوا الله الذي إليه ترجعون وعليه تعرضون، وارغبوا فيما أنتم عليه تقدمون وفيه تخلّدون. فانصرفوا وقد حفظوا وصيته ﷺ وعملوا بها^(٢).

(١) هو سرد بن عبد الله الأزدي. ذكره ابن حجر في الإصابة وابن الأثير في أسد الغابة، وذكر قصة وفوده مع قومه. توفي رسول الله ﷺ وصرد أمير له ﷺ على جرش، ووجدت في وثيقة مخطوطة في خزانة الكتب بدار آل مقبول «الباشميل» أن الباشميل الذين رحلوا عن العبر بشمال حضرموت إلى العرسة بوادي ليسر، يتسبون إلى سرد بن عبد الله الأزدي، وكانوا قد جاؤوا إلى العرسة بأواسط حضرموت منذ حوالي ثلثمائة سنة.

(٢) معجم قبائل العرب ج ١ ص ١٦ - ١٧ .

ويذكر المؤرخون وأصحاب الحديث والتراجم أن النبي ﷺ جعل صرد ابن عبد الله أميراً على من أسلم من قومه، وأمره بأن يجاهد بمن أسلم من قومه، من كان يليه ممن بقى على الشرك في بعض الجيوب باليمن.

وكانت جرش (هي مدينة محصنة مغلقة) وبها قبائل فلول بقيت على الشرك، فتوجه إليهم الأمير صرد وضرب الحصار على مدينتهم، قريباً من شهر فاستعصت عليه، فلجأ صرد إلى مكيدة حربية أوقع فيها بالمشركين، فقد انسحب من أمام أسوار مدينة جرش متظاهراً بالهزيمة، حتى وصل جبل يقال له شكر، فخرج أهل جرش لمطاردته حتى أدركوه وهو بالجبل ظناً منهم أنه إنما ولى منهزماً، فعطف عليهم برجاله فقتلوهم قتلاً شديداً، ثم توقف القتال وثاب أهل جرش إلى رشدهم، فبعثوا بوفد منهم إلى الرسول ﷺ، فأسلموا وحسن إسلامهم وكانوا من خثعم وغيرهم.

٣٦ - وفد الصدف

الصدف (بفتح الصاد وكسر الدال) اسم يطلق على ثلاث قبائل قحطانية، قبيلتين حضرمية وقبيلة يمانية حميرية (انظر معجم قبائل العرب ج ٢ ص ٦٣٧) وهؤلاء الذين وفدوا على رسول الله ﷺ لا أدري أي من القبائل الثلاث. فقد قال ابن سعد في طبقاته ج ١ ص ٣٢٩: عن شرحبيل بن عبد العزيز الصديقي عن آبائه قالوا: قدم وفدنا على رسول الله ﷺ، وهم بضعة عشر رجلاً على قلائص لهم في أزر وأردية: فصادفوا رسول الله ﷺ فيما بينه وبين المنبر، فجلسوا ولم يسلموا، فقال: مسلمون أنتم؟ قالوا: نعم، قال: فهلاً سلمتم؟ فقاموا قياماً فقالوا: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله، قال: وعليكم السلام، اجلسوا، فجلسوا وسألوا رسول الله ﷺ عن أوقات الصلاة فأخبرهم.

٣٧ - وفد خشين

خشين - بضم الخاء وفتح الشين - اسم يطلق على قبيلتين أحدهما قضاعية قحطانية والأخرى طائية، ولا نعلم أيهما الذي وفد وفدهم على رسول الله ﷺ. فكل ما ذكره المؤرخون قولهم: قدم أبو ثعلبة الخشني على رسول الله ﷺ، وهو يتجهز إلى خيبر فأسلم وخرج معه فشهد خيبر، ثم قدم بعد ذلك سبعة نفر من خشين فنزلوا على أبي ثعلبة فأسلموا وبايعوا ورجعوا إلى قومهم^(١).

(١) طبقات ابن سعد ج ١ ص ٣٢٩.

- ٣٩ - وفد سعد هذيم

سعد هذيم بطن من ليث بن سعد من قضاة من القحطانية، روى عن رئيس وفدهم أنه قال: قدمت على رسول الله ﷺ وافداً في نفر من قومي، فنزلنا ناحية من المدينة ثم خرجنا نؤمّ المسجد فنجد رسول الله ﷺ يصلي على جنازة في المسجد، فانصرف رسول الله ﷺ فقال: من أنتم؟ قلنا: من بني سعد هذيم، فأسلمنا وبايعنا ثم انصرفنا إلى رحالنا، فأمر بنا فأنزلنا وضيّفنا، فأقمنا ثلاثاً، ثم جئناه نودّعه فقال: أمروا عليكم أحدكم، وأمر بلالاً فأجازنا بأواق من فضة، ورجعنا إلى قومنا فرزقهم الله الإسلام.

- ٤٠ - وفد بلى

بلى - بفتح أوله وكسر ثانيه - قبيلة عظيمة من قضاة من القحطانية، وهم بنو بلى بن عمرو بن الحافي بن قضاة، تحتل منازلها مساحات واسعة من شمال الجزيرة العربية وجنوب الشام، وقد كان منهم ولاة للرومان على بادية الشام وفي معركة مؤتة التي دارت بين المسلمين والرومان بجنوب الشام، كانت بلى إحدى القبائل المرتزقة في جيش الرومان.

وقد قدم وفدهم المدينة على رسول الله ﷺ عام تسع هجرية فأسلموا، وتعلموا أشياء من أمر دينهم، وروى أن النبي ﷺ قال لهم: الحمد لله الذي هداكم للإسلام، فكل من مات على غير الإسلام فهو في النار، ثم جاؤوا يودعون النبي ﷺ فأمر لهم بجوائز كما كان يجيز من كان قبلهم. وكان اسم رئيس وفدهم الذي قدم بهم المدينة أبا الضباب. روى أن رويغ بن ثابت البلوي^(١) قال: قدم وفد قومي في شهر ربيع الأول سنة تسع فأنزلتهم في منزلي ببني جديلة، ثم خرجتهم حتى انتهينا إلى رسول الله ﷺ وهو جالس مع أصحابه في بيته الغداة، فقدم شيخ الوفد أبو الضباب فجلس بين يدي رسول الله ، فتكلم، وأسلم القوم^(٢).

(١) لم أجد في التراجم من اسمه رويغ بن ثابت البلوي، ولكنني وجدت اسم رويغ بن ثابت بن سكن من بني النجار الأنصار، ولا يستبعد أنه هو الذي أنزلهم على أساس أنهم حلفاء قومه «انظر أسد الغابة ج ٢ ص

- ٤١ - وفد بهراء

بهراء - بفتح أوله وسكون ثانيه - قبيلة من قضاة، وهي أخت قبيلة (بلى) فبلى هم بنو بلى بن عمرو بن الحافي بن قضاة، وبهراء هم بنو بهراء بن عمرو بن الحافي بن قضاة.

تقع منازل بهراء في جزيرة العرب شمالي منازل أبناء عمومتهم (بلى)، وبهراء قبيلة عظيمة، ويتفرع منها بطون كثيرة، وتمتد منازلهم حتى العقبة وإيلات (إيلة)، وقد كانوا مثل بلى أنصاراً للرومان ضد المسلمين في معركة مؤتة عام ثمانية هجرية، وقد عبر منهم خلق كثير البحر الأحمر (بحر القلزم) إلى ساحله الغربي فانتشرت قبائل منهم كثيرة ما بين الحبشة وصعيد مصر.

ويذكر ابن سعد: أن وفداهم وفد من اليمن، وأنهم كانوا ثلاثة عشر رجلاً، وفدوا سنة تسع هجرية، وقد أسلموا وتعلموا فرائض الإسلام، وبعد أن أقاموا بالمدينة أياماً، استأذنوا الرسول ﷺ في الانصراف، فودعوه، وأعطاهم جوائز كما يعطى سائر الوفود.

- ٤٢ - وفد عذرة

عذرة - بضم العين وسكون الذال - بطن عظيم من قضاة، من القحطانية أيضاً، وهم ينتسبون إلى سعد هذيم، الذين تقدمت ترجمتهم في هذا الكتاب ويتفرع من عذرة هؤلاء أفخاذ كثيرة، وبنو عذرة هؤلاء، مشهورون بشدة العشق مع العفة. روى أن سعيد بن عقبة قال لأعرابي: ممن الرجل؟ قال: من قوم إذا عشقوا ماتوا. قال: عذرة ورب الكعبة. قال سعيد: فقلت للأعرابي: ومم ذاك؟ قال في نساتنا صباحة وفي رجالنا عفة.

وكان وفد عذرة جاء في صفر سنة تسع هجرية وكان وفداهم مكوّناً من اثني عشر رجلاً ولما دخلوا على رسول الله ﷺ سلموا بسلام أهل الجاهلية وقالوا: نحن أخوة قصي لأمه، ونحن الذين أزاخوا خزاعة وبنو بكر عن مكة، ولنا قرابات وأرحام، فقال رسول الله ﷺ: مرحباً بكم وأهلاً، ما أعرفني بكم، ما منعكم من تحية الإسلام؟ قالوا: قدمنا مرتادين لقومنا، وسألوا النبي ﷺ عن أشياء من أمر دينهم فأجابهم فيها، وأسلموا وأقاموا أياماً ثم انصرفوا إلى أهلهم، فأمر لهم بجوائز كغيرهم من الوفود.

- ٤٣ - وفد سلامان

سلامان، اسم يطلق على ست قبائل قحطانية، وقبيلة عدنانية واحدة، وجاء في معجم قبائل العرب للسيد عمر رضا كحالة: أن سلامان الوافدين هم بنو سلامان بن سعد، بطن من قضاة من القحطانية.

وفد منهم سبعة على رسول الله ﷺ سنة عشر هجرية، فأسلموا. قال محدثهم: صادفنا رسول الله ﷺ خارجاً من المسجد إلى جنازة دعى إليها، فقلنا: السلام عليك يا رسول الله، فقال: وعليكم، من أنتم؟ قلنا: نحن من سلامان قدمنا لنباعك على الإسلام، ونحن على من ورائنا من قومنا، فالتفت إلى ثوبان غلامه فقال: أنزل هؤلاء الوفد حيث ينزل الوفد، فلما صلى الظهر جلس بين المنبر وبينه فتقدمنا إليه فسألناه عن أمر الصلاة وشرائع الإسلام، وعن الرقي، وأسلمنا، وأعطى كل رجل منا خمس أواق، ورجعنا إلى بلادنا. وذلك في شوال سنة عشر.

- ٤٤ - وفد جهينة

جهينة - أوله بضم أوله وفتح ثانيه - حي عظيم من قضاة من القحطانية، وهم بنو جهينة بن زيد بن ليث بن سود بن أسلم بن الحافي بن قضاة، ويتفرع من جهينة بطون كثيرة.. كانت منازلهم بالحجاز على شاطئ البحر الأحمر (بجر القلزم) وما حاذاه من برية الحجاز، وتعتبر ينبع إحدى بلدانهم، وقد عبروا البحر الأحمر إلى ساحله الغربي، فانتشروا هناك، وغلبوا على شعوب غربي البحر الأحمر، فصار لهم شأن في السودان، وغلبوا على ملك الحبشة، وانتشروا ما بين صعيد مصر والحبشة وكان سكان صعيد مصر أكثرهم من جهينة^(١).

كان الإسلام قديماً في جهينة، وكان فيهم رجال صالحون سابقون في الإسلام، وكان لهم شأن كبير في حروب التحرير التي خاضها الرسول ﷺ ضد الوثنية، وكان النبي ﷺ يعتبر جهينة في مقام الأنصار، فقد روى أن النبي ﷺ قال: (الأنصار ومزينة وجهينة وغفار وأشجع ومن كان من بني عبد الله، موالي دون الناس، والله ورسوله مولاهم^(٢)).

(١) البيان والإعراب للمقرئ ص ٣٨.

(٢) معجم قبائل العرب لعمر رضا كحالة ج ١ ص ٢١٦ - ٢١٧.

وجهينة قبيلة وفتت بعد وفاة الرسول ﷺ موقفاً مشرفاً، فقد ثبتت على إسلامها مثل قبيلة مزينة، رغم أن أكثر العرب ارتدوا عن الإسلام. كان رافع بن مكيث الجهني من المهاجرين الأوائل، كانت جهينة قوة كبيرة في الجيش النبوي يوم فتح مكة وكانت رايتها يحملها رافع بن مكيث، وعبد الله ابن بدر^(١). وقال أحد سابقهم إلى الإسلام - وهو عمرو بن مرة الجهني - : كان لنا صنم وكنا نعظمه وكنت سادته، فلما سمعت بالني ﷺ، كسرتة وخرجت حتى أقدم المدينة على النبي ﷺ، فأسلمت وشهدت شهادة الحق، وآمنت بما جاء به من حلال وحرام.

- ٤٥ - وفد بني كلب

كلب، اسم يطلق على عدة قبائل قحطانية وعدنانية، وكلب الوافدون هؤلاء هم أصحاب دومة الجندل وهم بنو كلب بن وبرة من قضاة من حمير، كانت منازلهم دومة الجندل وتبوك وأطراف الشام، ولاختلاطهم بالبيزنطيين، اعتنقوا النصرانية، وصاروا (أحياناً) حلفاء للرومان، وكانوا هم الذين أخذوا الصنم (ودًا) إلى دومة الجندل عندما فشت الوثنية في جزيرة العرب.

وقد كتب الرسول ﷺ لبني كلب هؤلاء المسلمين كتاباً، كتبه لوافدهم، جارية بن قطن وقد جاء فيه: (هذا كتاب من محمد رسول الله لأهل دومة الجندل وما يليها من طوائف كلب مع حارثة بن قطن، لنا الضاحية من البعل ولكم الضامنة من النخل على الجارية العشر وعلى الغائرة نصف العشر، لا تجمع سارحتكم ولا تعدل فاردتكم، تقيمون الصلاة لوقتها، وتؤتون الزكاة بحقها، لا يحظر عليكم النبات، ولا يؤخذ منكم عشر البتات، لكم بذلك العهد والميثاق، ولنا عليكم النصح والوفاء وذمة الله ورسوله، شهد الله ومن حضر من المسلمين^(٢)).

- ٤٦ - وفد جرم

جرم، اسم يطلق على عدة قبائل قحطانية، وهؤلاء الوافدون، هم بنو جرم بن زياد ابن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاة من القحطانية.

(١) انظر كتابنا الثامن «فتح مكة» مكان بيان تعبئة الجيش وأسماء القبائل فيه.

(٢) طبقات ابن سعد ج ١ ص ٣٣٤ - ٣٣٥.

كان وفداهم جاء إلى النبي ﷺ فأسلموا، وتعلموا القرآن وقضوا حوائجهم، فسألوا الرسول ﷺ: من يصلي بنا أو لنا؟ قال: ليصل بكم أكثركم جمعاً أو أخذاً للقرآن، فجاءوا إلى قومهم، فوجدوا أن قارئهم الوحيد هو غلام ابن ست سنوات، فقدّموه يصلي بهم، وكان فقيراً عليه بردة قصيرة إذا سجد تكشف عورته، فقالت امرأة من الحي: ألا تغطون عنا إست قارئكم؟ فكسوه قميصاً من معقد البحرين، فكان الغلام يقول: فما فرحت بشيء أشد من فرحي بذلك القميص. وفي هذا دليل على جواز إمامة الصبي عند الضرورة.

- ٤٧ - وفد غسان

غسان قبيلة أزدية يمانية قحطانية عظيمة غنية عن التعريف، كانوا عند ظهور الإسلام يسكنون الشام والملك فيهم، فجاء رسول الله ﷺ ثلاثة نفر منهم في رمضان سنة عشر هجرية، فأسلموا، وكانوا متخوفين من قومهم في الشام، لأنهم لا يدرون أيتبعونهم على الإسلام أم لا، فلما قدموا الشام على قومهم، لم يستجيبوا لهم، فكتموا إسلامهم، وقد مات منهم رجلان مسلمان قبل الفتح وبقى واحد منهم فلما حررت جيوش الإسلام الشام لقي احدهم أبا عبيدة عام اليرموك وخبره بإسلامه^(١).

- ٤٨ - وفد همدان

همدان - بفتح أوله وسكون ثانيه - : قبيلة يمانية قحطانية عظيمة وهي بطن من كهلان بن سبأ. وهم بنو همدان بن مالك بن زيد بن أوسلة بن ربيعة بن الخيار بن مالك بن زيد بن كهلان، تنفرع من همدان أفخاذ كثيرة منهم أرحب، وموهبة (لعلها اليوم التي تسمى : مرهبة) ويام وبنو الزريع، تقع ديارهم في الماضي شرقي اليمن، ولما جاء الإسلام تفرقوا بسبب مشاركتهم في حروب الجهاد في الشام والعراق وأفريقيا والأندلس. تعتبر همدان ذات شأن عظيم في التاريخ الإسلامي، وكانوا أثناء الخلاف المؤسف الذي نشب بين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب والأمير معاوية بن أبي سفيان - إلى جانب أمير المؤمنين في معارك صفين - وفي همدان يقول أمير المؤمنين معبراً عن امتنانه لهذه القبيلة الباسلة:

(١) طبقات ابن سعد ج ١ ص ٣٣٨ - ٣٣٩.

ولو كنت بوأباً على باب جنة لقلت لهمدان ادخلوا بسلام
وفد همدان على رسول الله ﷺ مرجعه من تبوك سنة تسع هجرية فأسلموا
وحسن إسلامهم، وفيما وصل إلى علمي - لم تكن همدان من العناصر التي ارتدت
عندما ارتد بعض الفئات في اليمن بزعامة الأسود العنسي وعمرو بن معد يكرب
الزبيدي المذحجي.

والواقع أن الإسلام قد فشى في همدان قبل الهجرة والنبى ﷺ لما نزل بمكة، فقد ذكر
ابن سعد في طبقاته، أن رجلاً منهم يقال له: قيس بن مالك بن سعد بن لأي الأرجبي
قدم على الرسول ﷺ وهو بمكة، فأخبره أنه جاء للإيمان به، فقال الرسول ﷺ : مرحباً
بك أتأخذونني بما في يا معشر همدان؟ قال: نعم بأبي أنت وأمي، فأمره الرسول ﷺ أن
يذهب إلى قومه، فأثنى عليه قائلاً: نعم وافد القوم قيس وفيت وفي الله بك ومسح
بناصيته، ولكن الرسول ﷺ لم يذهب إلى اليمن، بل كتب لهم رسول الله ﷺ وثيقة هذا
نصها: (بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من رسول الله محمد، لمخلاف، خارف وأهل
جناب الهضب وحقاف^(١) الرمل، مع وافدها ذي المشعار مالك بن النمط، ومن أسلم
من قومه، على أن لهم فراعها ووهاطها، ما أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، يأكلون علافها،
ويرعون عافيتها^(٢))، لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله وشهد المهاجرون والأنصار^(٣).

٤٩ - وفد سعد العشيرة

سعد العشيرة بطن من مذحج من القحطانية، وهم بنو سعد العشيرة بن مذحج، كان
بنو سعد العشيرة يسكنون اليمن، إلا أن فخاخذ منهم هاجرت واستوطنت بعض مناطق
الخليج على الساحل الغربي ناحية البحرين، كان لسعد العشيرة صنم في اليمن يقال له:
فراض، فلما علموا بظهور النبي ﷺ حطّموا الصنم، حطّمه رجل منهم يقال له: ذباب.
ثم وفد ذباب إلى النبي ﷺ فأسلم^(٤).

(١) الحقاف: الرمل المستدير.

(٢) عافيتها: نباتها الكثير.

(٣) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٢٤٥.

(٤) طبقات ابن سعد ج ١ ص ٣٤٢.

- ٥٠ - وفد عنس

عنس - أوله بفتح أوله وسكون ثانيه - بطن من مذحج من القحطانية، وقد تحرف اسمهم فصار ينطق به (أنس)، وعنس هو ابن مالك (وهو مذحج) وكان وافد عنس على رسول الله ﷺ رجل يقال له ربيعة، فجاء النبي ﷺ فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، فقال: أراغباً جئت أم راهباً؟ فقال: أما الرغبة فو الله ما في يدك مال، وأما الرهبة فو الله إنني لبلد ما تبلغه جيوشك، ولكني خوت فخفت، وقيل لي: آمن بالله فآمنت، فأقبل رسول الله ﷺ على القوم فقال: ربّ خطيب من عنس، فمكث يختلف إلى رسول الله ﷺ ثم جاءه يودعه، ثم خرج فمات في الطريق رحمه الله^(١).

- ٥١ - وفد الدارين

الداريون بطن من لخم من القحطانية، وهم بنو الدار بن هانئ بن حبيب بن نمارة بن لخم، وكان الداريون مجاورين للرومان.

كان وفداهم الذي وفد لإسلامهم على رسول الله ﷺ عشرة نفر، فيهم تميم الداري^(٢) وفدوا عقب انصراف النبي ﷺ من تبوك، فأسلموا، وبدل رسول الله ﷺ اسم رجلين منهم، الطيب سماه: عبد الله، وعزيز سماه: عبد الرحمن، وروى أن تميم الداري قال لرسول الله ﷺ: لنا جيرة من الروم، لهم قريتان يقال لإحدهما حبرى، والأخرى بيت عينون، فإن فتح الله عليك الشام فهبهما لي. قال: فهما لك، فلما فتحت قوات الخليفة الأول الشام، أعطى الخليفة تميماً ذلك وكتب له بهما وثيقة^(٣)، ويظهر أن وفد الدارين جاء في أوائل السنة الحادية عشرة، لأن هذا الوفد أقام بالمدينة حتى توفى رسول الله ﷺ.

(١) طبقات ابن سعد ج ١ ص ٣٤٣.

(٢) هو تميم بن أوس بن خارجة الداري اللخمي، كان نصرانياً فأسلم سنة تسع هجرية، كان كثير العبادة والتهجد، كان أول من أسرج السراج في المساجد في عهد الخليفة الفاروق، أقام بفلسطين في قريته التي أقطعها إياها الرسول ﷺ قريباً من القدس، روى عنه الحديث خلق كثير.

(٣) أسد الغابة ج ١ ص ٢١٥ ومعجم قبائل العرب ج ١ ص ٣٧٠ وطبقات ابن سعد ج ١ ص ٣٤٣.

- ٥٢ - وفد الرهاويين

الرّهاء، بطن من القحطانية من مذحج، وهم بنو رهاء بن منبه بن حرب بن علة بن جلد ابن مذحج، قدم وفدهم على رسول الله ﷺ سنة عشر هجرية وكانوا خمسة عشر رجلاً، وقد زارهم الرسول ﷺ في دار الضيافة (وهي دار رملة بنت الحارث) فتحدث عندهم طويلاً، وأهدوا لرسول الله ﷺ هدايا منها فرس، يقال له المرواح، وأمر به فشور بين يديه، فأعجبه، وقد أسلموا وتعلموا القرآن والفرائض، وقد أجازهم كما يجيز الوفود، ثم رجعوا إلى بلادهم، وقدم منهم نفر فحجوا مع رسول الله ﷺ من المدينة، وأقاموا حتى توفى رسول الله ﷺ، فأوصى لهم بجاد مائة وسق بخير في الكتيبة جارية عليهم وكتب لهم كتاباً، فباعوا ذلك في خلافة معاوية، وكان من بين الوفد الرهاوي رجل اسمه عمرو بن سبيع أسلم فعقد له الرسول ﷺ لواءً، فقاتل بذلك اللواء إلى جانب الأمير معاوية ضد أمير المؤمنين علي في الحرب الأهلية المحزنة.

- ٥٣ - وفد غامد

غامد في الأصل قبيلة يمانية قحطانية من الأزد وهم بنو غامد واسمه عمرو بن عبد الله، وفد منهم على رسول الله ﷺ وفد مكون من عشرة نفر، وذلك في شهر رمضان عام عشر هجرية، لما جاؤوا المدينة لبسوا من صالح ثيابهم ثم دخلوا على رسول الله ﷺ، فسلموا عليه وأقروا بالإسلام، وكتب لهم رسول الله ﷺ كتاباً فيه شرائع الإسلام، وعلمهم أبي بن كعب قرآناً، وأجازهم الرسول ﷺ كما يجيز الوفود. فانصرفوا.

أما اليوم فهذه القبيلة القحطانية اليمانية الأصل، تعد من أهم قبائل الحجاز بالمملكة العربية السعودية، وهم كجيرانهم ذوو شهامة وكرم، وتحتل ديارهم مناطق شاسعة في سلاسل الجبال، وتحيط ببلادهم، من الجنوب، بالقرن وبالعربان، ومن الشمال، التلاوة، ومن الغرب زبيد، وزهران، وتمر طريق الطائف بها - وسط ديار غامد.. وتنقسم غامد اليوم إلى قسمين، البدو، والحضر، وقاعدة غامد هي (الباحة).

فالقسم البدوي يسمى: آل صيّاح، وهم منتشرون في أماكن مختلفة، بين إخوانهم المتحضرين، ويتوغلون إلى أودية رينة، وتربة، والدواسر.. وأما القسم المتحضر، فيقيم في قرى مختلفة. وعلى أثر ذكر قبيلة غامد، يجرنا الحديث إلى ذكر جيرانهم قبيلة زهران، فهذه القبيلة أيضاً من قبائل الأزد القحطانية، وكانت يمانية في الأصل، وهي اليوم من أعظم

قبائل عسير بالحجاز، وهم ذوو كرم ومروءة، وجدهم هو زهران بن كعب بن الحارث بن كعب بن عبد الله بن مالك بن نصر (وهو شنوءة) بن الأزدد. تقع منازلهم اليوم في عسير، بين بني مالك من الشمال، وغامد من الشرق، وذوي بركات، وذوي حسن من الغرب، وزبيد من الجنوب والجنوب الغربي، وتمتد بلادهم في الغرب حتى تكاد تتصل بالبحر الأحمر إذ لا يفصلها عنه سوى حوالي ١٥ ميلاً.

- ٥٤ - وفد بجيلة

بجيلة - أوله بفتح أوله - بطن عظيم من كهلان من القحطانية، وبجيلة اسم أهمهم التي صاروا ينتسبون إليها، وهم بنو أثمار بن أراش بن كهلان، يتفرعون إلى بطون كثيرة، كانت منازلهم في الجاهلية تمتد في سلسلة جبال السروات في اليمن والحجاز حتى تبالة قرب الطائف.

كانت بجيلة في الجاهلية قوة حربية هائلة، حتى أنهم حاربوا كثيراً من قبائل جبال السراة، من بينهم قبيلة خثعم، فأجلوهم عن ديارهم وسكنوها، فصاروا سادة جبال السراة دون منازع وكانوا يداً واحدة، حتى حدثت بينهم حرب أهلية رهيبة، كادت أن تبيدهم، وبعد هذه الحرب وهنت بل تحطمت قوة بجيلة المنهزم منها والمنتصر، فترفقا لذلك وتقطعوا، فصار كل بطن منهم يجاور أو يندمج في قبيلة من قبائل العرب، وما زالوا ممزقين موزعين حتى جمعهم الخليفة عمر بن الخطاب، وذلك بطلب من جرير بن عبد الله البجلي عندما كان قائداً في حروب الجهاد بالعراق، وبهذا استعادت بجيلة وحدتها القبلية، وقد شهد منها معركة القادسية ألفاً مقاتل.

كان وفداهم الذي قدم على رسول الله ﷺ مكوناً من مائة وخمسين رجلاً، يرأسهم جرير بن عبد الله البجلي^(١) وقد وفدوا على النبي ﷺ عام عشرة هجرية. فقد روى أن جرير بن عبد الله البجلي قدم المدينة سنة عشر، ومعه مائة وخمسون من قومه، فقال

(١) هو جرير ابن عبد الله بن جابر البجلي، وبجيلة ينتهي نسبها إلى أثمار بن أراش بن كهلان بن سبأ بن يعرب بن قحطان، أسلم جرير قبل وفاة الرسول ﷺ بأربعين يوماً (أسد الغابة ج ١ ص ٢٧٩) كان جرير حسن الصورة، حتى أن الفاروق عمر قال: جرير يوسف هذه الأمة وهو سيد قومه، كان لجرير ولقومه دور مشرف في معركة القادسية. كان جرير رسول أمير المؤمنين على إلى معاوية أثناء التفاوض قبل معركة صفين المؤسسة، كان جرير صالحاً زاهداً، كان يسكن الكوفة ثم تركها وسكن قرقيسياً بفلسطين ومات بها، روى عنه الحديث كثيرون منهم بنوه عبيد الله والمنذر وإبراهيم، والشعبي وابن أبي حازم، كانت وفاة جرير سنة إحدى وخمسين وقيل سنة أربع وخمسين.

رسول الله ﷺ : يطلع عليكم رجل من هذا الفج من خير ذي يمن على وجهه مسحة ملك. فطلع جرير على راحلته، ومعه قومه فاسلموا وبايعوا. قال جرير: فبسط رسول الله ﷺ، فبايعني وقال: على أن تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتنصح للمسلم وتطيع الوالي وإن كان عبدًا حبشيًا، فقال جرير: نعم، فبايعه.

وكان رسول الله ﷺ يسائل جريرًا عما وراءه، فقال: يا رسول الله قد أظهر الله الإسلام وأظهروا الأذان في مساجدهم وساحاتهم، وهدمت الأصنام التي كانت تعبد، قال: فما فعل ذو الخلصة؟ (صنم) قال: هو على حاله قد بقي، والله مريح منه إن شاء الله، فبعثه رسول الله ﷺ إلى هدم ذي الخلصة وعقد له لواءً، فقال: إني لا أثبت على الخيل، فمسح رسول الله ﷺ بصدرة وقال: اللهم اجعله هاديًا مهديًا، فخرج في قومه - وهم زهاء مائتين - فما أطال الغيبة حتى رجع، فقال رسول الله ﷺ: هدمته؟ قال: نعم والذي بعثك بالحق، وأخذت ما عليه وأحرقته بالنار، فتركته كما يسوء من يهوى هواه، وما صدنا عنه أحد^(١).

- ٥٥ - وفد حضرموت

حضرموت بلد مشهور منذ فجر التاريخ وقد قامت به عدة ممالك أكثرها في كندة، وكان الملك والسلطان قائمين بحضرموت منذ آلاف السنين، وفي بعض الأحيان اتسع ملك الحضارم حتى حكموا اليمن وخاصة مناطق الشرق، وامتد ملكهم إلى نجران والشام. وحضرموت هو اسم قبيلة. ثم بمرور آلاف السنين صار اسم للبلد المعروف بجنوب جزيرة العرب، والذي يحده من الغرب بلاد الفضلى والحوالق ومن الجنوب بحر العرب ومن الشرق المهرة ومن الشمال المملكة العربية السعودية واليمن.

وقد جاء اسم حضرموت في التوراة. السفر ١٠ - ٢٦ - ٢٩ ، وفي التوراة أن حضرموت هو ابن يقطان أخو قحطان، ولكن ابن حزم يقول في كتابه (جمهرة أنساب العرب)^(٢) إن حضرموت هو ابن قحطان بن عابر بن ارفخشذ بن سام بن نوح. وما كانت حضرموت بهذا الاسم، إلا بعد أن وجد حضرموت بن قحطان، الذي إذا هاجم بجيش قوماً أكثر القتل فيهم، فصار إذا جاء قالوا: حضر الموت، لذلك أطلق عليه ثم على بلاد حضرموت هذا الاسم.

(١) طبقات ابن سعد ج ١ ص ٣٤٧ - ٣٤٨.

(٢) الجمهرة ص ٤٦٣.

ويؤكد المؤرخون أنه حتى ظهور الإسلام كان من أبناء حضرموت بن قحطان ملوك إلى جانب وجود ملوك كندة الذين ليسوا من أبناء حضرموت بن قحطان وإنما من أبناء أخيه. قال ابن سعد في طبقاته الكبرى يصف قدوم وفد حضرموت على النبي ﷺ: وقدم وفد حضرموت مع وفد كندة على رسول الله ﷺ، وهم بنو وليعة ملوك حضرموت (حمدة ومخوس ومشرح وأبضعة) فأسلموا، وقال مخوس: يا رسول الله ادع الله أن يذهب عني الرثة من لساني، فدعا له وأطعمه طعمة من صدقة حضرموت.

وضمن وفد حضرموت قدم وائل بن حجر ملك كندة (تقدم حديثنا عن وفد كندة) فقال للرسول ﷺ: جئت راغباً في الإسلام، ففرح النبي ﷺ بقدومه فدعا له ومسح رأسه، وأمر الرسول ﷺ بأن يجتمع الناس، فأمر أن ينادي: الصلاة جامعة سروراً بقدوم وائل بن حجر، وأمر الرسول ﷺ معاوية بن أبي سفيان أن يكون مرافقاً له وينزله بدار الضيافة، فمشى معاوية في وقت شديد القيظ حافياً ووائل بن حجر راكباً فطلب معاوية من وائل أن يعيره نعله ليتقي بها حر الرمضاء، فأبى وائل وقال: لا، لأنني لم أكن لألبسها ثانية وقد لبستها، وذلك ترفعا من وائل لأنه ملك، والملك لا يلبس شيئا لبسه غيره، فقال له معاوية: فأردفني إذن، قال: لست من أرداف الملوك، فقال: إن الرمضاء قد أحرقت قدمي، قال وائل: أمش في ظل ناقتي كفاك به شرفاً، فصبر معاوية، ثم أخبر النبي ﷺ بقول وائل، فقال: إن فيه لعبية من عبية الجاهلية.

وما نسيها معاوية لوائل، فعندما آلت الخلافة إلى معاوية وفد عليه وائل في دمشق، فذكره بتلك الحادثة، ولكن معاوية بالغ في إكرامه، فأجلسه معه على السرير، فقال وائل: فوددت أنني حملته بين يدي، أي يوم رفض أن يعطيه نعله أو يردفه خلفه يوم وفد على الرسول ﷺ.

وقد كتب الرسول ﷺ لوائل بن حجر كتاباً جعله بموجبه والياً على ما تحت يده بحضرموت^(١)، ولم يخطب النبي ﷺ معلناً قدوم وافد عليه إلا عندما وفد عليه ملك كندة وائل حيث جمع أهل المدينة في المسجد ثم خطبهم فقال: أيها الناس هذا وائل بن حجر أتاكم من حضرموت - ومدّ بها صوته - راغباً في الإسلام^(٢).

(١) انظر نص هذا الكتاب في طبقات ابن سعد، والوثائق السياسية لحميد الله.

(٢) طبقات ابن سعد ج ١ ص ٣٥١.

قالوا: وكانت امرأة من حضرموت يقال: لها تهناة بنت كليب، لما علمت بظهور النبي ﷺ صنعت له كسوة، ثم دعت ابنها كليب بن أسد ابن كليب، فقالت له: انطلق بهذه الكسوة إلى النبي ﷺ فساfer بها إلى المدينة مسافة شهرين، ثم أتى النبي ﷺ فأعطاه الكسوة ثم أسلم، وقد قال كليب يصف رحلته الميمونة:

من وشز^(١) برهوت^(٢) تهوى بي
تجوب بي صفصفاً غرا مناهله
شهرين أعملها^(٤) نصاعلى وجل
أنت النبي الذي كنا نُخبره
إليك يا خير من يخفى ويتعل
تزداد عفواً إذا ما كلت الإبل
أرجو بذلك ثواب الله يا رجل
وبشّرنا بك التوراة والرسل

- ٥٦ - وفد خثعم

خثعم - بفتح أوله وسكون ثانيه وفتح ثالثه - قبيلة قحطانية عظيمة، وقيل: إنها قبيلة عدنانية من معد^(٥) ثم صاروا باليمن، وانتسبوا إليهم، وهم أبناء خثعم بن أعمار بن أراش بن عمرو بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان، كانت منازلهم بجبال السراة (بالحجاز)، وعندما هاجرت الأزدي خثعم فهزمتها وأنزلتها من جبالها واستولت عليها، فنزلت خثعم وسكنت البسايط ما بين بيشة وتربة فتيامنت خثعم وقالوا: نحن أولاد قحطان ولسنا إلى معدّ بن عدنان^(٦).

وأما قدوم وفد خثعم على رسول الله ﷺ كان في السنة العاشرة هجرية، وذلك بعدما هدم جرير بن عبد الله البجلي ذا الخلصة صنم خثعم وبجيلة، فقد وفد وفداهم فأسلموا وقالوا: آمنا بالله ورسوله وما جاء من عند الله، فاكتب لنا كتاباً نتبع ما فيه، فكتب لهم كتاباً شهد فيه جرير بن عبد الله ومن حضر^(٧).

(١) الوشز: بفتح أوله وسكون ثانيه - المكان المرتفع.

(٢) وبرهوت بئر بحضرموت مشهورة منذ آلاف السنين.

(٣) العذافر - بضم العين وكسر الفاء الشديدة الصلبة من الإبل.

(٤) هذا دليل على المسافة بين حضرموت والمدينة شهران.

(٥) الصحاح للجوهري ج ٢ ص ٢٨٠.

(٦) معجم قبائل العرب ج ١ ص ٣٣١ ومعجم ما استعجم ج ١ ص ٦٣.

(٧) طبقات ابن سعد الكبرى ج ١ ص ٣٤٨.

- ٥٧ - وفد الأشعريين

الأشعريون قبيلة قحطانية كهلانية، وهم بنو الأشعر بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ، تقع بلادهم غرب تهامة اليمن، ومنها القحمة والحصيب، وتمتد حتى زبيد، قدم وفدهم على رسول الله ﷺ عند انتهائه من معركة خيبر، وكان فيهم أبو موسى الأشعري^(١)، فأسلموا، وأثنى عليهم النبي ﷺ فقال: الأشعريون في الناس كصرّة فيها مسك^(٢)، وقال: الأشعريون لا يفرّون ولا يفلون، هم مني وأنا منهم^(٣).

ويقال إن الرسول ﷺ أعطى الأشعريين من مغنم خيبر، وكانوا قد قدموا إلى الحجاز من اليمن في سفن عن طريق البحر.

- ٥٨ - وفد أزد عمان

تقدم شرح مستفيض عن قبيلة الأزد وفروعها، ومنها أزد عمان. قال ابن سعد: أسلم أهل عمان فبعث إليهم، رسول الله ﷺ العلاء بن الحضرمي ليعلمهم شرائع الإسلام ويصدق أموالهم، فخرج وفدهم إلى رسول الله ﷺ، فيهم أسد بن بريح الطاحي، فلقوا رسول الله ﷺ فسألوه أن يبعث معهم رجلاً يقيم أمرهم، فقال مخربة العبدي واسمه مدرك بن حوط: ابعثني إليهم، فإن لهم على منة، أسروني يوم جنوب فمّنوا علي، فوجهه معهم إلى عمان، وقدم بعدهم سلمة بن عياذ الأزد في ناس من قومه، فسأل رسول الله ﷺ، عما يعبد وما يدعو إليه، فأخبره رسول الله ﷺ، فقال: ادع الله أن يجمع كلمتنا وألفتنا، فدعا لهم، وأسلم سلمة ومن معه^(٤).

- ٥٩ - وفد غافق

غافق - بكسر الفاء - بطن من عك من القحطانية، وهم بنو غافق بن الشاهد بن عك بن عدنان بن عبد الله بن الأزد، كان لغافق شأن كبير في الإسلام، ومنهم الكثير من قادة الجيوش والأمراء أيام امتداد الفتوحات الإسلامية، وأعظمهم شأنًا وأبعدهم صيتًا بطل حروب الجهاد في فرنسا، عبد الرحمن الغافقي الذي اكتسح بنصف مليون جندي جنوب فرنسا ووصل على بعد حوالي ٣٥٠ كيلو مترًا من باريس، وكاد يجتاح فرنسا

(١) انظر ترجمته في كتابنا (غزوة حنين).

(٢) مشكلة المصباح.

(٣) تقدمت ترجمة العلاء فيما مضى من هذه السلسلة.

(٤) طبقات ابن سعد ج ١ ص ٣٥١.

بأكملها، لولا أن الملك شارل مارتل، نجح في توحيد كلمة ملوك إيطاليا والنمسا والمجر وألمانيا لمواجهة الغزو الإسلامي، والتقى بالأمير الغافقي في مدينة تور (بواتيه) فالتحم الفريقان المسلمون والصليبيون في معركة فاصلة كانت بوادر النصر فيها - بعد سبعة أيام من القتال - تشير إلى أن جيش الغافقي هو المنتصر لا محالة، لولا مفاجأة مفاجئة قلبت الوضع لصالح الصليبيين، وذلك أن القائد العام عبد الرحمن الغافقي أصيب بسهم في جبينه وهو يقود المعركة فنال شرف الاستشهاد، وكانت الهزيمة في جيشه الذي انهارت معنوياته بعد مصرع قائده الغافقي البطل^(١).

تقع منازل غافق في تهامة غربي اليمن، وقد قدموا على رسول الله ﷺ برئاسة جليحة بن شجار بن صحار الغافقي، وكان يصحبه رجال من قومه، فقالوا: يا رسول الله نحن الكواهل من قومنا، وقد أسلمنا، وصدقاتنا محبوسة (أي زكواتنا) بأفئتنا، فقال: لكم ما للمسلمين وعليكم ما عليهم، فقال عوز بن سرير الغافقي: آمنا بالله واتبعنا الرسول ﷺ^(٢).

٦٠ - وفد بارق

بارق - بكسر الراء - بطن من خزاعة، وهم من نسل ملك مأرب عمرو مزيقيا الملقب (بماء السماء)، وهم بنو بارق بن عدي بن حارثة بن مزيقيا بن عامر ماء السماء، كانوا حلفاء لبني نعيم وقد سكنوا الكوفة، منهم القائد الشهير هرثمة البارقي أحد الأبطال الذين ساهموا في القضاء على فتن المرتدين في عمان والمهرة.

قدم وفد بارق على رسول الله ﷺ المدينة فدعاهم إلى الإسلام فأسلموا وبايعوا، وقد كتب لهم رسول الله ﷺ كتاباً نصه: (هذا كتاب من محمد رسول الله لبارق: لا تجز ثمارهم ولا ترعى بلادهم في مريع ولا مصيف إلا بمسألة من بارق، ومن مر بهم من المسلمين في عراقك أو جذب فله ضيافة ثلاثة أيام، وإذا أينعت ثمارهم فلا بن السبيل اللقاط يوسع بطنه من غير أن يقتشم^(٣). شهد أبو عبيدة بن الجراح وحذيفة بن اليمان، وكتب أبي بن كعب^(٤).

(١) انظر غزوات العرب في أوروبا وجزائر البحر الأبيض المتوسط للأمير شكيب أرسلان رحمه الله.

(٢) طبقات ابن سعد ج ١ ص ٣٥٢.

(٣) اقتشم الشيء أكله من هنا وهناك.

(٤) طبقات ابن سعد ج ١ ص ٣٥٢.

- ٦١ - وفد دوس

دوس - بفتح الدال وسكون الواو - اسم يطلق على عدة قبائل من قحطان وعدنان، ودوس الذين نحن بصددهم، قبيلة قحطانية من الأزد، أزد شنوءة، وهم فرع من قبيلة زهران بن كعب بن الحارث بن عبد الله بن مالك بن نصر - وهو شنوءة - بن الأزد، مساكنهم في جبال السروات المطلّة على تهامة اليمن.

كان الإسلام قديماً في دوس فقد أسلموا على يد سيدهم الطفيل بن عمرو قبل الهجرة، إلا أن وفداً منهم مكوناً من ثمانين رجلاً فيهم أبو هريرة، قدموا المدينة والرسول ﷺ يحارب اليهود في خيبر، فالتحقوا به هناك، فقسم لهم رسول الله ﷺ من غنيمة خيبر. وقال رجل منهم اسمه عبد الله بن زيهر^(١): يا رسول الله إن لي في قومي سطة^(٢) ومكاناً فاجعلني عليهم، فقال رسول الله ﷺ: يا أخا دوس إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً، فمن صدق الله نجاً، ومن آل إلى غير ذلك هلك، إن أعظم قومك ثواباً أعظمهم صدقاً ويوشك الحق أن يغلب الباطل.

شاركت قبيلة (دوس) الباسلة مع الرسول في حصار الطائف وكان معها من السلاح الثقيل منجنيق وكان الذي جمعها وجاء بها إلى الطائف سيدها الطفيل بن عمرو^(٣) ومعه ٤٠٠ مقاتل.

- ٦٢ - وفد ثمالة

ثمالة - بضم أوله - بطن من شنوءة من الأزد من القحطانية، وهم من قبائل الحجاز، تقع ديارهم قريباً من الطائف، وهم بنو ثمالة بن أسلم بن أحجن بن كعب بن الحارث بن كعب بن عبد الله بن مالك بن نصر (وهو شنوءة) بن الأزد. قدم وفدهم على رسول الله ﷺ بعد فتح مكة، فأسلموا وبايعوا، وكتب لهم رسول الله ﷺ كتاباً فيه ما فرض الله عليهم من الصدقة في أموالهم، وكتب الكتاب ثابت بن قيس بن شماس، وشهد فيه سعد بن عبادة ومحمد بن مسلمة.

(١) لم أجد له ترجمة فيما بين يدي من كتب التراجم.

(٢) السطة بكسر السين المكانة والمنزلة.

(٣) انظر كتابنا غزوة حنين (فصل حصار الطائف) وانظر فيه ترجمة الطفيل بن عمرو.

- ٦٣ - وفد الحدّان

حدّان - بضم الحاء وتشديد الدال - اسم يطلق على عدة قبائل من العرب، غير أن المرجح أن هؤلاء المشار إليهم، هم بطن من الأزد القحطانية، بدليل أنهم جاءوا إلى رسول الله ﷺ في وفد مشترك مع بني ثماله الأزديين، وهم بنو حدان بن شمس بن عمرو بن غنم بن غالب بن عثمان بن نصر بن زهران بن كعب بن الحارث بن كعب بن عبد الله بن مالك بن نصر بن الأزد، تقع منازلهم بجبال السراة بالحجاز، ويظهر أنهم - عند انتشار الإسلام - سكنوا البصرة، وقد أسلموا وكتب لهم ولبني ثماله كتاباً مشتركاً فيه ما فرضه الله عليهم من الزكاة، وكان رئيس وفدهم مسلية بن هزان الحدّاني^(١).

- ٦٤ - وفد أسلم

أسلم - بفتح الهمزة - اسم يطلق على عدة قبائل من العرب، غير أن سياق المؤرخين وأصحاب التراجم يدل على أن المشار إليهم هنا، هم بنو أسلم بن أفضى بن حارثة بن عمرو بن عامر مزيقيا ملك مأرب، وهم بطن من خزاعة^(٢)، تقع منازلهم قريباً من المدينة المنورة، ومن قراهم (وبرة) وهي ذات نخيل.

جاء وفد أسلم إلى رسول الله ﷺ برئاسة عميرة بن أفضى، فقالوا: آمنا بالله ورسوله واتبعنا منهاجك فاجعل لنا عندك منزلة تعرف العرب فضيلتها، فنحن إخوة الأنصار ولك علينا الوفاء والنصر في الشدة والرخاء، فقال رسول الله ﷺ: أسلم سالمها الله وغفار غفر الله لها^(٣).

- ٦٥ - وفد جذام

جذام - بضم الجيم - بطن كبير من القحطانية، وهم بنو جذام بن عدي بن الحارث بن مرة بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد كهلان.. تتفرع من جذام بطون كثيرة، كانت تسكن جبال حسمى وتمتد منازلها من مدين فتبوك فأذرح بالشام. كانت جذام حليفة للرومان عند ظهور الإسلام، وقد غزاهم زيد بن حارثة، وفي معركة مؤتة الشهيرة كانت جذام تقاتل مع الرومان ضد المسلمين عام ثمان هجرية، كما أنها كذلك كانت عام أربعة عشر هجرية ضمن جيش هرقل بإنطاكية.

(١) طبقات ابن سعد ج ١ ص ٣٥٣ والاشتقاق لابن دريد ص ٢٩٩ ومعجم البلدان ج ٢ ص ٢١٨.

(٢) معجم قبائل العرب ج ١ ص ٢٦.

(٣) طبقات ابن سعد ج ١ ص ٣٥٤.

وجذام أول من سكن مصر من العرب، جاءوا ضمن جيش عمرو بن العاص الذي فتح مصر، فأقطعوا فيها بلادًا، وكانوا حتى سنة ثمانمائة وثلاث هجرية يسكنون الحوف شرقي دلتا النيل^(١).

لم يكن الإسلام قد عم جذام في العهد النبوي بدليل أن طوائف كبيرة منهم حاربت جيوش الخلافة في الشام عام أربعة عشر هجرية، ولكن عناصر من جذام وفدت على النبي ﷺ فأسلمت، وعنصر آخر بعث إلى الرسول ﷺ بإسلامه وكان واليًا للرومان، فدفع حياته ثمناً لإسلامه رحمه الله حيث أعدمه الرومان لما علموا بإسلامه.

فقد ذكر المؤرخون أن رفاعة بن زيد الجذامي قدم على رسول الله ﷺ في فترة الهدنة بين النبي ﷺ وبين قريش، قبل فتح خيبر، فأسلم، فكتب له الرسول ﷺ كتاباً، نصه: (هذا كتاب من محمد رسول الله لرفاعة بن زيد إلى قومه ومن دخل معهم يدعوهم إلى الله، فمن أقبل ففي حزب الله ومن أبى فله أمان شهرين) قالوا: فأجابه قومه وأسلموا. كما أن رجلاً من جذام يقال له فروة بن عمرو بن النافرة - وكان أميراً للرومان على من يليه من العرب في الشام - بعث إلى رسول الله ﷺ، وكان مقر فروة مدينة معان، فلما بلغ الرومان دخوله في الإسلام اعتقلوه ثم أعدموه وصلبوه. فقال قبل أن يقتلوه.

أبلغ سراة المؤمنين بأبني سلم لرَبِّي أعظمي ومقامي^(٢).

- ٦٦ - وفد مهرة

مهرة قبيلة حميرية من قضاة، وهم بنو مهرة بن حيدان بن عمرو بن الحافي بن قضاة، تقع ديارهم ما بين حضرموت وعمان، ومن مدنهم سيحوت وقشن والغیظة، ويحتلون مساحة كبيرة على سواحل بحر العرب، وكانت المهرة شعباً شرساً محارباً، وفي بلادهم توجد أجود الإبل العربية على الإطلاق، وهي المسماة بالإبل المهرية التي لا يوجد أسرع منها في الجري.. ارتدت المهرة عن الإسلام بعد وفاة النبي ﷺ، وتولى عكرمة ابن أبي جهل تأديبها، ولم تخضع وتعد إلى الإسلام إلا بعد معارك طاحنة لا تقل ضراوة عن معارك اليمامة، فقد قتل منهم في حرب الردة قرابة عشرة آلاف مقاتل.

(١) معجم قبائل العرب ج ١ ص ١٧٤ .

(٢) طبقات ابن سعد ج ١ ص ٣٥٤ - ٣٥٥.

وقد قدم وفد المهرة المدينة برئاسة مهريّ بن الأبيض^(١) فعرض عليهم رسول الله ﷺ الإسلام فأسلموا، وأكرمهم رسول الله ﷺ وكان يعنى بهم لبعده المسافة التي قطعوها إليه فقد كان ما بين المهرة والمدينة مسافة حوالي سبعين يوماً، وقد كتب النبي ﷺ للمهرة كتاباً هذا نصه : (هذا كتاب من محمد رسول الله لمهري بن الأبيض على من آمن به من مهرة. ألا يؤكلوا^(٢))، ولا يعركوا وعليهم إقامة شرائع الإسلام فمن بدل فقد حارب ومن آمن به فله ذمة الله وذمة رسوله، اللقطة مؤداة والسارحة مندأة والتفت السيئة والرفث الفسوق) وكتب محمد بن مسلمة^(٣). ويذكر ابن سعد في طبقاته أن رجلاً من المهرة أيضاً وفد على رسول الله ﷺ، اسمه زهير بن قرضم^(٤)، فكان رسول الله ﷺ يدينه ويكرمه لبعده مسافته، فلما أراد الانصراف ثبتته وحمله وكتب له كتاباً^(٥).

- ٦٧ - وفد حمير

حمير - بكسر الحاء وسكون الميم - بطن عظيم من القحطانية، وهو أحد جرمنين رئيسين تنتسب إليهما جميع قبائل اليمن، وهما كهلان بن سبأ وحمير بن سبأ، واسم حمير هو (العرنج) قال الهمداني: حمير في قحطان ثلاثة: الأكبر، والأصغر، والأدنى. وديانة حمير قبل الإسلام، بعضه دان باليهودية، وبعضهم يعبد الشمس، وكان لحمير في الجاهلية بيت بصنعاء يقال له رثام، يعظمونه، ويتقربون عنده بالذبايح^(٦) وفي حمير كان الملك عظيماً وكان منهم ملوك عظام، وقد امتدت رقعة مملكة حمير إلى أرض فارس وأفريقيا والهند فحكموا كل هذه الأقطار مدة طويلة قبل الإسلام، وقد كان لحضارمة حمير ملك بالشام قبل الغساسنة، فقد كان جيل من قضاة ملوكا لجنوب الشام حتى حاربهم بنو عمهم الغساسنة وأزالوا ملكهم^(٧).

(١) لم أجد له ترجمة فيما بين يدي من مصادر.

(٢) لا يؤكلون: أي لا يغار عليهم.

(٣) طبقات ابن سعد ج ١ ص ٣٥٥.

(٤) لم يزد في أسد الغابة أثناء الترجمة لزهير هذا على أن ذكر قصة قدومه على النبي ﷺ وعنايته به.

(٥) طبقات ابن سعد ج ١ ص ٣٥٦.

(٦) الأصنام للكلي ص ١١ ومعجم قبائل العرب ج ١ ص ٣٠٦.

(٧) انظر كتابنا العرب في الشام قبل الإسلام.

ولما جاء الله بالإسلام، وانتصر الرسول ﷺ في كل معاركه الحربية الرئيسية، قرر ملوك حمير الدخول في الإسلام؛ ولذلك - وفي شهر رمضان سنة تسع هجرية - بعثوا إلى النبي ﷺ من اليمن رسولاً بإسلامهم، وهم أربعة ملوك، نعيم بن عبد كلال^(١)، والحارث بن عبد كلال^(٢)، والنعمان^(٣) قيل ذي رعين، وزرعة ذو يزن^(٤)، وكان رسول هؤلاء الملوك إلى النبي ﷺ مالك بن مرارة الرهاوي^(٥)، فقد كتب هؤلاء الملوك إلى الرسول ﷺ أنهم فارقوا الشرك وأهله، فأكرم الرسول ﷺ رسولهم فأنزله في دار الضيافة، ثم كتب النبي ﷺ إلى الملوك الأربعة كتاباً هذا نصه: (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى الحارث بن عبد كلال وإلى نعيم بن عبد كلال وإلى النعمان قيل^(٦) ذي رعين ومعافر وإلى زرعة بن ذي يزن، أما بعد فإنني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد فقد وقع بنا رسولكم مقفلنا من أرض الروم، فلقينا بالمدينة فبلغ ما أرسلتم به وأنبأنا بإسلامكم وقتلكم المشركين فإن الله تبارك وتعالى قد هداكم بهداه إن أصلحتم وأطعتم الله ورسوله وأقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وأعطيتم من المغنم خمس الله وخمس نبيه وصفيه، وما كتب على المؤمنين من الصدقة في العقار^(٧) عشر ما سقت العين وسقت السماء، وعلى ما سقى الغرب^(٨) نصف العشر)، وهو كتاب طويل فيه فرائض ووصايا كثيرة^(٩).

- (١) لم يزد في أسد الغابة وغيره من كتب التراجم على أن ذكر قصة إسلام نعيم هذا.
(٢) لم أجد في كتب التراجم أكثر من قصة إسلام الحارث هذا.
(٣) كذلك ليس في كتب التراجم زيادة على ذكر قصة إسلام النعمان هذا وزملائه الملوك الثلاثة.
(٤) لم يزد المترجمون على أن ذكروا فقط قصة إسلام زرعة هذا ونص الكتاب الذي كتبه لهم النبي ﷺ كما أوردناه، ولم أر أحداً من أصحاب الحديث والسير ذكر أن أحداً من هؤلاء الملوك الأربعة اجتمع بالنبي ﷺ فهُم مسلمون ولكنهم ليسوا من الصحابة.
(٥) جاء في أسد الغابة أن ابن مسعود قال: أتيت رسول الله ﷺ وعنده مالك بن مرارة الرهاوي وروى عطاء بن ميسرة عن مالك ابن مرارة الرهاوي أن رسول الله ﷺ قال: لا يدخل الجنة أحد في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر ولا يدخل النار أحد في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان.
(٦) القليل بفتح القاف: الملك الذي هو دون الملك الذي هو أكبر منه.
(٧) العقار - بفتح العين - : الأرض.
(٨) الغرب : الدلو.
(٩) انظر سير ابن هشام ج ٤ ص ٢٣٥ - ٢٣٦ - ٢٣٧.

- ٦٨ - وفد نصارى نجران

كانت نجران قبل الإسلام بها جماعة من العرب على النصرانية، وكان منهم - قبل تحريف الإنجيل - قوم على دين التوحيد دين عيسى بن مريم عليه السلام، ومنهم المؤمنون أصحاب الأخدود الذين جاء ذكرهم في القرآن الكريم، وكان اليهود هم الذين نكلوا بهؤلاء المؤمنين فحرقوهم في الأخدود.

وعندما جاء الله بالإسلام كان بنجران قوم من النصارى العرب، كتب إليهم النبي ﷺ، فجاءوا إلى المدينة في وفد مكون من أربعة عشر رجلاً من أشرفهم وكان رئيسهم رجل اسمه عبد المسيح ولقبه (العاقب)، وهو من كندة، وكان أميرهم ومرجعهم في السياسة والحكم، أما أسقفهم وحرهم وإمامهم ورئيس مدارسهم فهو أبو الحارث بن علقمة، وهو من بني ربيعة.

ولما وصلوا المدينة دخلوا على رسول الله ﷺ وهو في المسجد، وعليهم ثياب الخبرة وأردية مكففة بالحرير، وأثناء وجودهم داخل المسجد قاموا يُصلُّون صلاتهم نحو المشرق، فأراد الصحابة اعتراضهم فقال رسول الله ﷺ: دعوهم، فأكملوا صلاتهم في المسجد، وقد أعرض عنهم الرسول ﷺ ولم يكلمهم (أول الأمر) فاستغربوا، فقال لهم عثمان بن عفان: ذلك من أجل زيكم هذا (أي ارتدائهم الحرير) فانصرفوا يومهم ذلك، ثم غدوا على الرسول ﷺ بزبي الرهبان فسلموا فردّ عليهم، ثم دعاهم إلى الإسلام فأبوا وكثر الكلام والحجاج بينهم، وتلا عليهم النبي ﷺ القرآن، ولكنهم أصرّوا على رفضهم الدخول في الإسلام فقال لهم ﷺ: إن أنكرتم ما أقول لكم فهلمّ أباهلكم، والمباهلة هي التي عنها القرآن الكريم، فقال تعالى: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكٰذِبِينَ﴾^(١).

فوافقوا على المباهلة (أول الأمر)، ولكنهم تراجعوا فيما بعد فجاء منهم عبد المسيح ورجلان من ذوي الرأي فيهم. فقالوا: قد بدا لنا أن لا نباهلكم فاحكم علينا بما أحببت نعطك ونصالحك، فصالحهم الرسول ﷺ على أن يدفعوا الجزية، وأعطاهم ضمناً كتاباً على أنهم أحرار في دينهم وآمنون على أموالهم وأراضيهم، فرجعوا إلى بلادهم، غير أن اثنين من زعمائهم وهما العاقب أميرهم وصاحب أمرهم، والسيد أحد كبارهم، رجعا إلى النبي ﷺ وأسلما على يديه^(٢).

(١) آل عمران ٦١ .

(٢) طبقات ابن سعد ج ١ ص ٣٥٧ - ٣٥٨ .

- ٦٩ - وفد جيشان

جيشان، لم أجد لهذه القبيلة ترجمة في شيء من المعاجم، ويظهر أنها فخيذة من اليمن، قال ابن سعد: بلغني عن عمرو بن شعيب قال: قدم أبو هب الجيشاني على رسول الله ﷺ في نفر من قومه فسألوه عن أشربة تكون باليمن، قال فسموا له البتع من العسل والمزر من الشعير، فقال رسول الله ﷺ: هل تسكرون منها؟ قالوا: إن أكثرنا سكرنا، قال: فحرام قليل ما أسكر كثيره. وسألوه عن الرجل يتخذ الشراب فيسقيه عماله، فقال رسول الله ﷺ: كل مسكر حرام^(١).

- ٧٠ - وفد السباع

وحتى السباع أرسلت وفدها إلى النبي ﷺ عام الوفد، فعن شعبة بن عباد عن عبد المطلب بن عبد الله بن حنظب، قال: بينا رسول الله ﷺ جالس بالمدينة في أصحابه أقبل ذئب فوقف بين يديه فعوى. فقال رسول الله ﷺ: هذا وafd السباع إليكم، فإن أحببتم أن تفرضوا له شيئاً لا يعدوه إلى غيره، وإن أحببتم تركتموه وتحذرتم منه، فما أخذ فهو رزقه، فقالوا: يا رسول الله، ما تطيب أنفسنا بشيء، فأوماً إليه النبي ﷺ بأصابعه الثلاث، أي خالسهم، فولّى وله عسلان.

وفي رواية للإمام أحمد في مسنده عن أبي سعيد الخدري قال: عدا الذئب على شاة فأخذها فطلبها الراعي فانتزعها منه فألقى الذئب على ذنبه فقال: ألا تتقي الله تنزع مني رزقاً ساقه الله إليّ، فقال يا عجباً ذئب مقع على ذنبه يكلمني كلام الإنس فقال الذئب: ألا أخبرك بأعجب من ذلك، محمد رسول الله ﷺ ييثر بئثر يخبر الناس بما قد سبق. قال: فأقبل الراعي يسوق غنمه حتى دخل المدينة فزاواها إلى زاوية من زواياها، ثم أتى رسول الله ﷺ فأخبره، فأمر رسول الله ﷺ فنودي: الصلاة جامعة ثم خرج فقال للأعرابي: أخبرهم، فأخبرهم، فقال رسول الله ﷺ: صدق والذي نفس محمد بيده لا تقوم الساعة حتى تكلم السباع الإنس، وتكلم الرجل عذبة سوطه وشراك نعله وتخبّره فخذها بما أحدث أهله بعده، ورواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح^(٢).

(١) طبقات ابن سعد ج ١ ص ٣٥٩.

(٢) البداية والنهاية ج ٤ ص ٩٥ وطبقات ابن سعد ج ١ ص ٣٥٩ وقد يستنكر البعض هذه الحادثة لأنها خارقة للعادة. إن مثلها وما أعظم منها من الخوارق قد حدثت بقدرة الله للنبي ﷺ، فحادثة الذئب معجزة من جملة المعجزات الثابتة المتواترة التي أيد الله بها نبيه الحبيب. العظيم ﷺ، ونزول جبريل بالقرآن من السماء - والقرآن أساس الإسلام - هو أكبر المعجزات الخارقة للعادة، ثبتنا الله على الإيمان والتصديق بما جاء به نبينا محمد ﷺ.

سيطرة الإسلام الكاملة على جزيرة العرب: وهكذا وتتوافد هذه الوفود العربية من أقاصي الجزيرة في شمالها وجنوبها وغربها وشرقها لإعلان الدخول في هذا الدين، ضرب الإسلام بجرانه في هذه الجزيرة ولم يعد فيها من هو على غير دين الإسلام، سوى أقليات بسيطة من أهل الكتاب أقرهم النبي ﷺ على دينهم، بعد أن دفعوا الجزية وأقروا بدفعها كل سنة اعترافاً بسلطان الإسلام.

وقد ظلت الوفود تتقاطر على المدينة لإعلان إسلام القبائل طوال السنة التاسعة الهجرية وحتى أوائل السنة العاشرة.

وفود ذي الكلاع الحميري: كان ذو الكلاع الحميري من ملوك الطوائف، قد استعلى أمره حتى ادعى الربوبية، وقد بعث إليه رسول الله ﷺ جرير بن عبد الله البجلي يدعوه إلى الإسلام فأسلم وأسلمت امرأته صريمة بنت أبرهة بن الصباح. قال في تاريخ الخميس: واسم ذي الكلاع (ذو الكلاع بن باكور بن حبيب بن مالك بن حسان بن ثُبَع).

قال الأصمعي: كاتب رسول الله ﷺ ذا الكلاع من ملوك الطوائف على يد جرير بن عبد الله البجلي، يدعوه إلى الإسلام، وكان قد استعلى أمره حتى ادعى الربوبية فأطبع، وتوفي النبي ﷺ، ثم وفد في خلافة عمر ومعه ثمانية آلاف عبد، فأسلم على يده وأعتق من عبيده أربعة آلاف، ثم قال عمر: يا ذا الكلاع بعني ما بقى عندك من عبيدك أعطك ثلث أثمانهم ههنا وثلثاً باليمن وثلثاً بالشام، فقال: أجلني يومي حتى أفكر فيما قلت ومضى إلى منزله فأعتقهم جميعاً، فلما غدا على عمر قال له: ما رأيك فيما قلت لك في عبيدك؟ قال: قد اختار الله لي ولهم خيراً مما رأيت. قال: وما هو؟ قال: هم أحرار لوجه الله تعالى، قال: أصبت يا ذا الكلاع.

قال: يا أمير المؤمنين لي ذنب ما أظن الله يغفره لي. قال: وما هو؟ قال: تواريت يوماً عن يتعبدني، ثم أشرفت عليهم من مكان عال، فسجد لي زهاء مائة ألف إنسان، فقال عمر: التوبة بإخلاص والإنابة بإقلاع يرجي بهما مع رافة الله عز وجل الغفران، وقد قتل ذو الكلاع الحميري بصفين مع فئة معاوية رحم الله الجميع.

تجميع الزكوات

وبعد نجاح غزوة تبوك وبعد أن لف الإسلام تحت جناحيه جميع أقاليم تجويف الجزيرة العربية، ولم يبق من يفكر في معارضة الإسلام ومناوأة سلطانه أحد، شرع الرسول ﷺ فيما يمكن تسميته تنظيم الواردات المالية للدولة، وذلك لمواجهة احتياجات

هذه الدولة التي ستزايد يوماً بعد يوم.

وقد كان القرآن الكريم قد نزل بفرضية الزكاة على المسلمين بصفة عامة، وجاءت السنة المحمدية فبينت للمسلمين صنوف الأموال التي تجب فيها الزكاة، وكم هو الحد الأدنى من كل صنف الذي تجب فيه الزكاة، والهدف من فرضية الزكاة مواجهة سد حاجات المحتاجين من المسلمين، الذين لا يقدرّون على الكسب من معوق أو أعمى أو يتيم أو ذي عاهة إلى غير ذلك. وكانت الزكاة أول نظام عامل محكم فعال يوضع للضمان الاجتماعي منذ فجر التاريخ.

ولا حاجة بنا على شرح شروط وأركان الزكاة وتحديد مصارفها، ففي كتب الفقه المطولة والمبسطة ما يشفي غليل الذي يريد معرفة التفاصيل.

وقد بعث رسول الله ﷺ برسلى وكتب إلى جميع نواحي جزيرة العرب يعلم الناس فيها الركن الهام هذا من الإسلام وهو الزكاة. فسمع الناس وأطاعوا. وصار جامعو الزكاة أينما ذهبوا في الجزيرة لا يلقون أية صعوبات تذكر في جمع هذه الزكاة. في عهد النبي ﷺ.

حجة الوداع: وعندما أشرفت السنة العاشرة الهجرية على الانتهاء، شرع الرسول ﷺ في التهيؤ للحج قال في تاريخ الخميس ج ٢ ص ١٤٨: وقد كان النبي ﷺ أراد أن يحج مقفله من تبوك، وذلك إثر فتح مكة بيسير، ثم ذكر أن بقايا المشركين يحجون ويطوفون عراة فأخر الحج حتى نبذ إلى كل ذي عهد عهده، وذلك في السنة التاسعة ثم حج في العاشرة (بعد إخماء رسوم الشرك)^(١).

النبي لم يحج حجة الإسلام في العمر إلا مرة: والثابت عند المحققين أن النبي ﷺ لم يحج في حياته (بعد فرضية الحج) إلا مرة واحدة وقد كان النبي ﷺ قبل هجرته وعندما كان مغلوباً على أمره، يشهد كل سنة مواسم الحج يعرض نفسه على القبائل يدعوهم إلى الإسلام، في هذه المواسم التي كانت السيطرة الكاملة فيها للمشركين الذين يؤدون الحج حسب التقاليد مخالفة التعاليم الإسلامية حتى أنهم دائماً يقفون في غير التاسع من ذي الحجة وذلك التلاعب في الأشهر الذين يباشرونه وهو النسيء الذي نعاه الله تعالى عليهم.

(١) تاريخ الخميس ج ١ ص ١٤٨.

قال السهيلي في شرح السيرة النبوية: لا ينبغي أن يضاف إليه أي النبي ﷺ في الحقيقة إلا حجة الوداع، وإن حج مع الناس، إذ كان بمكة، فلم يكن ذلك الحج على سنة الحج وكماله لأنه ﷺ كان مغلوباً على أمره، وكان الحج منقولاً عن وقته، فقد ذكر أن أهل الجاهلية كانوا ينقلون الحج على حساب الشهور الشمسية ويؤخرونه في كل سنة أحد عشر يوماً^(١).

أما العمرة فالتفق عليه بين المحققين أن النبي ﷺ اعتمر ثلاث عمر. أولها عمرة الحديبية حين منعه المشركون دخول مكة فعقد معهم الصلح المشهور في ذي القعدة عام ٦ هجرية فتحلل وحسبت له عمرة. وثانيها في ذي القعدة من العام المقبل وهي سنة سبع وهي عمرة القضاء، وثالثها في ذي القعدة سنة ثمان وهي عام الفتح، حيث اعتمر من الجعرانة بعد أن قسم غنائم حنين، وأربعها مع حجته الكبرى سنة عشر هجرية، وكان إحرامها في ذي القعدة وأعمالها في الحجة كذا رواه البخاري في صحيحة.

ولذا أعلم الرسول ﷺ الناس أنه حاج هذا العام، فاجتمع بشر كثير يريدون الاقتداء برسول الله ﷺ، قيل إنهم كانوا يزيدون على مائة ألف.

وكان خروج النبي ﷺ من المدينة للحج يوم السبت في السادس والعشرين من شهر ذي القعدة عام ١٠ هجرية، وكان خروجه بين الظهر والعصر. فصلى رسول الله ﷺ بالمدينة الظهر أربعاً والعصر ركعتين بذي الحليفة قصرًا ولم يثبت عنه أنه صلى ركعتين خاصة قبل الإحرام كما يفعل الكثير ظناً منهم أن أداءهما سنة. وقد كان دخوله مكة للحج صبيحة اليوم الرابع من ذي الحجة فتكون المسافة التي قطعها بين مكة والمدينة ثمانية أيام.

وكان النبي ﷺ قد أحرم بالمدينة في ثوبين صحاريين^(٢)، إزار ورداء، وأبدلهما بالتنعيم من جنسهما، قالوا وساق الرسول ﷺ مائة بدنة هدياً^(٣).

(١) تاريخ الخميس ج ٢ ص ١٤٨.. وروى عن الصحابي جبير بن مطعم أنه قال: رأيت رسول الله ﷺ يقف بعرفة قبل النبوة. وكانت قريش كلها تقف بجمع «يعني مزدلفة» إلا شيبه بن ربيعة. وعن أسماء بنت أبي بكر، قال كان شيبه بن ربيعة من بين قريش يقف بعرفة، عليه ثوبان أسودان، وزمام بعيره من شعر بين غرزين «الغرز الرحل من جلد أسودين، حتى يقف مع الناس بعرفة، ثم يدفع بدفعهم، فإننا لا نتكلم مع الناس - يعني العرب - كانت تقف بعرفة وقريش تقف بجمع «يعني مزدلفة» تقول: نحن أهل الله «مغازي الواقدي ج ٣ ص ١١٠٢.

(٢) نسبة إلى صحار بلدة باليمن.

(٣) مغازي الواقدي ج ٣.

وكان دخوله مكة من أعلاها، حتى انتهى إلى الباب الذي يقال له، باب بني شيبه، وعندما دخل المسجد بدأ بالطواف قبل الصلاة، ولما انتهى استلم الركن وهو مضطبع^(١) بردائه وقال: بسم الله والله أكبر، وكان يقول بين الركن اليماني والأسود «ربنا آتانا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار»^(٢). ونهى عن المزاحمة على الحجر الأسود، فقد قال لعمر بن الخطاب: إنك رجل قوي، إن وجدت الركن خاليًا فاستلمه، وإلا فلا تراحم الناس فتؤذي وتؤذى. وقال لعبد الرحمن بن عوف: كيف صنعت بالركن يا أبا محمد؟ قال: استلمت وتركت. قال: أصبت.

وبعد أن انتهى ﷺ من الطواف الذي رمل فيه ثلاثًا ومشى أربعًا. تقدم إلى المقام، فقرأ: ﴿وَآخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّينَ﴾^(٣) ثم جعل المقام بينه وبين البيت فصلى فيه ركعتين وكان يقرأ في الركعتين قل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد. وبعد أن انتهى من صلاته رجع إلى الركن واستلمه، ثم خرج من الباب إلى الصفاء من باب بني مخزوم وقال: أبدأ بما بدأ الله به. ثم أكمل الطواف بين الصفا والمروة على راحلته. وكان يقول عندما يرتقي الصفا أو المروة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله وحده أنجز وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ثم دعا بين ذلك وقال مثل هذا ثلاث مرات^(٤).

فلما أكمل سعيه أمر كل من لا هدى معه أن يحمل حتمًا قارئًا كان أو مفردًا، وأمرهم أن يحملوا الحل كله من وطء النساء ولبس المخيط، وأن يبقوا كذلك إلى يوم التروية، ولم يحمل هو ﷺ من أجل هديه، وهناك قال: لو استقبلت من أمري ما استدبرت لما سقت الهدى معي وجعلتها عمرة.

ولم يحمل أبو بكر ولا عمر ولا علي ولا طلحة من أجل الهدى. ولما قال النبي ﷺ لأصحابه الذين أحرموا بالحج اجعلوها عمرة، ترددوا وقالوا يا رسول الله فكيف نجعلها عمرة. فقال: انظروا ما أمركم به ثم بدا عليه الغضب من ترددهم حتى دخل على زوجته عائشة وهو غضبان فقالت: من أغضبك أغضبه الله؟ فقال ﷺ: ومالي لا أغضب وأنا أمر أمرًا فلا يتبع^(٥).

(١) أي جاعلاً طرفي الرداء على كتفه الأيسر.

(٢) مغازي الواقدي ج ٣ ص ١٠٩٨.

(٣) تاريخ الخميس ج ٢ ص ١٤٩.

(٤) زاد المعاد ج ٢ ص ٤٥٧.

(٥) زاد المعاد ج ١ ص ٤٧٦.

قال الإمام ابن القيم في زاد المعاد: وروى عن النبي ﷺ بفسخ الحج إلى العمرة أربعة عشر من أصحابه، وأحاديثهم في الصحاح^(١).

ثم قال ابن القيم: ونحن نشهد الله علينا أن لو أحرمتنا بحج لرأينا فرضاً علينا فسخه إلى عمرة، تفادياً من غضب رسول الله ﷺ واتباعاً لأمره، فو الله ما نسخ هذا في حياته ولا بعدها، ولا صح حرف واحد يعارضه، ولا خص به أصحابه دون من بعدهم، بل أجرى الله سبحانه وتعالى على لسان سراقه بن مالك أن يسأله: هل ذلك (أي فسخ الحج إلى العمرة) مختص بهم (أي الصحابة) فأجاب بأن ذلك كائن لأبد الآباد، فما ندري ما نقدم على هذه الأحاديث وهذا الأمر المؤكد الذي غضب رسول الله ﷺ على من خالفه؟ والله در إمام أهل السنة أحمد بن حنبل رحمه الله إذ يقول لسلمة بن شبيب: وقد قال له: يا أبا عبد الله كل أمرك عندي حسن إلا خلة واحدة، قال: وما هي؟ قال: تقول بفسخ الحج إلى العمرة. فقال: يا سلمة كنت أرى لك عقلاً، عندي في ذلك أحد عشر حديثاً صحاحاً أتركها لقولك^(٢). قلت والذي يؤيد كلام ابن القيم والإمام أحمد بأنه لا مناص من فسخ الحج إلى العمرة لمن دخل مكة محرماً وطاف وسعى. وقال عبد الله بن عباس: من طاف بالبيت وسعى فقد حلّ شاء أم أبى.

النبي يكسو الكعبة في حجته: فعن ابن سبرة عن خالد بن رباح، عن المطلب بن عبد الله بن موسى قال: سمعت العباس بن عبد المطلب يقول: كسا رسول الله ﷺ البيت في حجته الحبرات.

ويذكر الإمام الواقدي أن رسول الله ﷺ خطب الناس قبل يوم التروية بمكة بعد الظهر ويوم التروية هو اليوم الثامن من ذي الحجة^(٣). قلت: ولم نجد نص هذه الخطبة التي أشار إليها الواقدي في المصادر التي بين أيدينا.

واتفق رواة الحديث على أن النبي ﷺ نزل بظاهر مكة، وكان مدة مقامه بمكة إلى يوم التروية بمنزله الذي هو نازل فيه يصلي بالمسلمين بظاهر مكة، فأقام بظاهرها أربعة أيام يقصر الصلاة يوم الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء فلما كان يوم الخميس (ضحى) توجه بمن معه من المسلمين إلى منى، فأحرم بالحج من كان أحل منهم من رحالهم، ولم يدخلوا المسجد ليحرموا منه بل أحرموا ومكة خلف ظهورهم، فلما وصل إلى منى نزل

(١) زاد المعاد ج ١ ص ٤٢٣.

(٢) زاد المعاد ج ١ ص ٤٢٦.

(٣) مغازي الواقدي ج ٣ ص ١١٠٠.

بها وصلى الظهر والعصر والمغرب والعشاء والصبح^(١).

صلاة أهل مكة خلف النبي ﷺ: وقد صلى النبي ﷺ بمكة الرباعية قصر ولما صلى أهل مكة معه. قال: أمموا صلاتكم فإننا سفر^(٢) وكان ذلك ليلة الجمعة، فلما طلعت الشمس سار من منى إلى عرفات وأخذ على طريق ضبّ على يمين طريق الناس اليوم، وكان من أصحابه المليبي ومنهم المكبر وهو يسمع ذلك ولا ينكر على هؤلاء ولا على هؤلاء، فلما وصل نمره (وهي شرقي عرفة) وجد قبة بها قد نصبت بأمره فنزل بها حتى إذا زاغت الشمس أمر بناقته القصوى فرحلت ثم سار حتى أتى بطن الوادي من أرض عرنة، (وعرنة ليست من عرفات) وهناك في وادي عرنة خطب الناس وهو على ناقته خطبة عظيمة جامعة قرر فيها قواعد الإسلام وهدم قواعد الشرك وردم منابع الجاهلية، وقرر فيها تحريم المحرمات وهي الأعراض والدماء والأموال ووضع كل أمور الجاهلية تحت قدميه، ووضع فيها ربا الجاهلية كله وأبطله، وأوصاهم بالنساء خيراً، وذكر ما لهن من حقوق وما عليهن من واجبات، وأوصى الأمة بالاعتصام بكتاب الله، وأخبرهم أنهم لن يضلوا ما داموا معتصمين به، ثم أخبرهم أنهم مسئولون عنه واستنطقهم بماذا يقولون؟ وبماذا يشهدون؟ فقالوا: نشهد أنك قد بلغت وأدبت ونصحت، فرفع إصبعه إلى السماء واستشهد عليهم ثلاث مرات وأمرهم أن يبلغ شاهدهم غائبهم^(٣).

وفي حجته هذه ﷺ أدخل على الحج إصلاحات كبرى لأن المشركين كانوا على مدى القرون أدخلوا على مناسك الحج مفاسد كبرى بالزيادة فيه أو النقصان. ومن الإصلاحات الكبرى الوقوف بعرفة، فقد كانت قريش دون سائر الناس لا يقفون بعرفة تكبراً وإنما يقفون (فقط) بمزدلفة ويقولون: نحن أهل الحل، فأمر النبي ﷺ جميع الناس أن يقفوا بعرفة حتى إنه زيادة في تعظيم هذا المشعر قال: الحج عرفة.

كذلك من الإصلاحات التي أدخلها النبي ﷺ على الحج حتى عاد كما كان عليه في عهد أبينا إبراهيم ﷺ إقامة الخلل الخطير الذي أدخله المشركون في التلبية، فقد كانوا في حجهم يقولون: (لييك اللهم لبيك: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً تملكه وما ملك) فانتزع الرسول ﷺ هذه الجملة الشركية الدخيلة على تلبية أبينا إبراهيم وهي (إلا شريكاً تملكه وما ملك) فصارت التلبية الشرعية هكذا (لييك اللهم لبيك، لبيك لا

(١) زاد المعاد ج ١ ص ٤٦١، وانظر خطبة الوداع مفصلة في مصادرها الكبرى.

(٢) مغازي الواقدي ج ٣ ص ١٠٩٢.

(٣) زاد المعاد ج ١ ص ٤٦١.

شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة والملك لك لا شريك لك). كذلك من الإصلاحات الهامة التي أعلنها الرسول ﷺ في خطبته التاريخية، إلغاء التلاعب الزمني الذي كان يباشره المشركون حيث كانوا يستحلون بعض الأشهر الحرم ويستبدلونها بغيرها من غير الأشهر الحرم فيحرمونها بدلاً منها وذلك بسبب الحروب المستمرة بينهم، ونتيجة هذا التلاعب الذي سماه الله تعالى نسيئاً: ﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ ﴾^(١) ظل حساب أشهر السنة مضطرباً شهر يقدم ليحل محل آخر حتى إن الحج كثيراً ما يأتي في غير ذي الحجة. فمثلاً مرة حج المشركون في شهر ذي القعدة، فأبطل النبي ﷺ هذا التلاعب في خطبته التاريخية هذه فقال: ألا وإن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السماوات والأرض، وإن عدة الشهور اثنا عشر في كتاب الله، منها أربعة حرم، ثلاثة متواليه: ذو القعدة، ذو الحجة والحرم، ورجب الذي يدعي شهر مضر الذي بين جمادى الأخرى وشعبان، والشهر تسعة وعشرون يوماً وثلاثون^(٢).

ومن المخالفات التي يفعلها المشركون في الحج وصححها الرسول ﷺ هو أن المشركين كانوا يدفعون من عرفة إذا كانت الشمس على رءوس الجبال كهيئة العمائم على رؤوس الرجال، فظنت قريش أن الرسول ﷺ يدفع كذلك فأخر دفعه حتى غربت الشمس^(٣). وفي عرفة قال النبي ﷺ: (إن خير الدعاء دعاء يوم عرفة) وقال: (إن أفضل الدعاء دعائي ودعاء من كان قبلي من الأنبياء: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد بيده الخير يحيى ويميت وهو على كل شيء قدير)^(٤).

وهناك حيث وقف النبي ﷺ بعرفة نزلت آية: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [سورة المائدة آية ٤]، وقد وقف ﷺ على بعيره فأخذ في التضرع والدعاء والابتهال إلى غروب الشمس، وأمر الناس أن يرفعوا عن بطن عرنة (لأنها ليست من عرفة)، ثم أعلن أن عرفة لا تختص بموقفه الذي وقف فيه، بل قال: (وقفت هنا وعرفة كلها موقف) وأرسل إلى الناس أن يكونوا على مشاعرهم، ويقفوا بها فإنها من إرث أبيهم إبراهيم^(٥).

(١) التوبة آية ٣٧.

(٢) مغازي الواقدي ج ٣ ص ١١١٢.

(٣) مغازي الواقدي ج ٣ ص ١١٠٤.

(٤) زاد المعاد ج ١ ص ٤٦٢ ومغازي الواقدي ج ٣ ص ١١٠٤.

(٥) زاد المعاد ج ١ ص ٤٦٢.

وبعد أن دفع الرسول ﷺ (بعد غروب الشمس وذهاب الصفرة) اتجه نحو مزدلفة والناس بين يديه لا يمدهم بصر بلغوا أكثر من مائة وعشرين ألفاً. وكان مردفاً خلفه على ناقته أسامة بن زيد، وكان يدعو الناس في دفعهم إلى الهدوء وعدم التزاحم فيقول: (أيها الناس عليكم السكينة فإن البر ليس بالإيضاع^(١))، وكان في مسيره يلبي لم يقطع التلبية. حتى إذا وصل المزدلفة توضأ وضوء الصلاة ثم أمر بالأذان فأذن المؤذن ثم أقام فصلى بالناس المغرب قبل حط الرحال وتبريك الجمال، فلما حطوا رحلهم أمر فأقيمت الصلاة، ثم صلى عشاء الأخرة بإقامة بلا أذان كما فعل في عرفات، ثم نام، فلما طلع الفجر صلاها في أول الوقت بأذان وإقامة يوم النحر وهو يوم العيد ويوم الحج الأكبر وهو يوم الأذان ببراءة الله من كل مشرك^(٢)، ثم ركب حتى أتى موقفه عند المشعر الحرام فاستقبل القبلة وأخذ في الدعاء والتضرع والتكبير والتهليل والذكر حتى أسفر الصبح جداً وذلك قبل طلوع الشمس، وهناك سأله عروة بن مضرّس الطائي فقال: (يا رسول الله والله إنني جئت من جبلي طيء، أكللت راحلتي وأتعبت نفسي، والله ما تركت من جبل إلا وقفت عليه، فهل لي من حج؟ فقال رسول الله ﷺ: من شهد صلاتنا هذه ووقف معنا حتى ندفع، وقد وقف بعرفة قبل ذلك ليلاً أو نهاراً تم حجه وقضى تفته) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

كذلك من آثار الجاهلية التي هدمها النبي ﷺ في حجته هذه عادة كان يتبعها المشركون ويعتبروها من مناسك الحج وهي أنهم كانوا لا يدفعون من المزدلفة حتى تطلع الشمس على تبير، ويقولون: أشرق تبير كيما نغير، فقال رسول الله ﷺ: إن قريشاً خالفت عهد إبراهيم، ولذلك دفع النبي ﷺ قبل طلوع الشمس^(٣)، وعندما ركب ﷺ ووقف موقفه أعلن أن مزدلفة كلها موقف^(٤).

وأثناء تحركه ﷺ إلى منى أمر ابن عباس أن يلتقط له حصى الجمار (سبع حُصيات فقط) فالتقط له ابن عباس سبع حصيات من حصى الخذف فجعل يفضهن في كفه ويقول: بأمثال هؤلاء فارموا وإياكم والغلو في الدين فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين، رواه البيهقي من حديث ابن عباس. وهكذا فإن من البدع المذمومة غسل حصى الجمار كما يفعل اليوم كثير من العوام.

(١) الإيضاع: الإسراع بالسير.

(٢) زاد المعاد ص ٤٣٢.

(٣) مغازي الواقدي ج ٣ ص ١١٠٧.

(٤) زاد المعاد ج ١ ص ٤٧٣.

وهذا يعني أن النبي ﷺ إنما أمر بالتقاط الحصى من مزدلفة التي ترمى بها فقط ولمرة واحدة جمرة العقبة، أما بقية الجمار فليس من السنة التقاط الجمار لرميها من مزدلفة، بل يكفي التقاطها من منى وكذا الحصى التي ترمى بها جمرة العقبة في اليوم الثاني والثالث فلا يشترط التقاطها من مزدلفة كما يفعل بعض العوام.

هل وجه المرأة عورة؟ وكان ﷺ مردفًا خلفه الفضل بن العباس، وفي طريقه إلى منى عرضت له فتاة خثعمية جميلة، فسألت عن الحج عن أبيها، وكان شيخًا كبيرًا لا يستمسك على الراحلة، فأمرها أن تحج عنه، وجعل الفضل ينظر إلى الخثعمية وهي تنظر إليه وكان الفضل جميلًا، فلما رأى رسول الله ﷺ ذلك، وضع يده الكريمة على وجه الفضل وصرفه إلى الشق الثاني حتى لا ينظر إليها ولا تنظر إليه، ولكن لم يثبت أن النبي ﷺ أمر بستر وجهها، وفي هذا دليل على أن وجه المرأة ليس عورة إذا لم تزينه بمختلف الزينات، وقد ذهب إلى هذا المذهب كثير من الأئمة، وهو الأقرب إلى الصواب والله أعلم.

فلما وصل الرسول ﷺ وادي محسرٍ أسرع في السير، وهذه عادته في المواضع التي نزل فيها بأس الله بأعدائه، فوادي محسر هذا حسر فيل الأحباش فيه، أي أعبي وامتنع عن الذهاب إلى مكة، واستمر جيش أبرهة الغاشم المعتدي هناك في الوادي حتى أرسل الله عليهم طير الأبايل حتى أبادتهم. ولا يدري أحد على وجه التحديد ما هي المادة التي أبادت هذه الطير بها جيش أبرهة، ويقال: إنها أصابتهم بوباء الجدري حتى إن الجندي الواحد منهم يتورم ويتنفخ حتى ينفلق فلتقتين نتيجة تأثير وباء الجدري، والله على كل شيء قدير.

النبي ﷺ في منى: وكان النبي ﷺ يلي ولم يقطع التلبية حتى رمى جمرة العقبة، فعندما وصل الجمرة وقف في أسفل الوادي وجعل البيت عن يساره ومنى عن يمينه واستقبل الجمرة وهو على ناقته فرمى الجمرة ركبًا بعد طلوع الشمس، فكان رمي الجمرة أول نسك يباشره في منى، وكان رميه واحدة بعد واحدة يكبر مع كل حصاة يرمي بها، وكان أسامة وبلال معه أحدهما أخذ بخظام ناقته، والآخر يظلل بثوب من الحر^(١).

خطبته يوم العيد يوم الحج الأكبر: وعقب انصرافه من جمرة العقبة ألقى على المسلمين بمنى خطبة عظيمة، فتح الله لها أسماع الناس حتى سمعها أهل منى بعيدًا في منازلهم. فعن عكرمة وابن عباس قالا: خطب رسول الله ﷺ من الغد يوم النحر بعد الظهر على ناقته القصواء. فقال ﷺ: أيها الناس اسمعوا من قولي فاعقلوه، فإني لا أدري لعلي لا

اللقاء بعد عامي هذا في هذا الموقف.. أيها الناس أي شهر هذا؟ قال: فسكتوا. فقال ﷺ: هذا شهر حرام، فأى بلد هذا؟ فسكتوا، فقال: بلد حرام، ثم قال: أي يوم هذا؟ فسكتوا، فقال: يوم حرام، ثم قال ﷺ: إن الله قد حرّم دماءكم وأموالكم وأعراضكم كحرمة شهركم هذا، في بلدكم هذا، في يومكم هذا، إلى أن تلقوا ربكم ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم، قال: اللهم اشهد، ثم: إنكم سوف تلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم، قال: اللهم اشهد، ألا من كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها، ألا وإن كل ربا الجاهلية موضوع، وإن كل دم في الجاهلية موضوع، وأول دماءكم أضع دم إياس بن ربيعة بن الحارث - كان مسترضعاً في بني سعد بن ليث فقتلته هذيل - ، ألا هل بلغت؟ قالوا: اللهم نعم. قال: اللهم اشهد، فليبلغ الشاهد الغائب، ألا إن كل مسلم محرّم على كل مسلم، ولا يحل مال مسلم إلا ما أعطى عن طيب نفس. قال عمرو بن يثربي^(١): فقلت يا رسول الله أرأيت إن لقيت غنم ابن عمي، أجزر منها شاة؟ قال: وعرفني فقال: إن لقيتها نعجة تحمل شفرة، وزناداً^(٢) بخت الجميش^(٣) فلا تهجها، وفي هذه الخطبة قال النبي ﷺ: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ^(٤) زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا تَحِلُّونَهُ عَامًا وَتُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُؤَاطِعُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾^(٥). ألا وإنّ الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، وإنّ عدة الشهور اثنا عشر شهراً في كتاب الله، منها أربعة حرم، ثلاثة متوالية، ذو القعدة وذو الحجة، والمحرم، ورجب الذي يدعى شهر مضر الذي بين جمادى الآخرة وشعبان، والشهر تسعة وعشرون يوماً، وثلاثون، ألا هل بلغت؟ فقال الناس: نعم، فقال: اللهم اشهد. ثم تحدث عن حقوق النساء وحقوق الرجال عليهم، فقال: أيها الناس إن للنساء عليكم حقاً، وإن لكم عليهن حقاً، فعليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً، ولا يدخلن بيوتكم أحداً تكرهونه إلا بإذنكم، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع، وأن تضربوهن ضرباً غير مبرح، فإن انتهين وأطعنكم، فلهن

(١) هو عمرو بن يثربي الضمري الحجازي وبني ضمرة تقع ديارهم قريباً من بدر* كان يسكن عمرو المذكور خبت الجميش من سيف البحر، والجميش واد عرفه رسول الله ﷺ بالساحل كثير الخطب، وهو واد لبني ضمرة.

(٢) الزناد الذي تقدح منه النار.

(٣) الجميش واد بالساحل كثير الخطب.

(٤) في تعليقتنا على خطبته ﷺ «أعطينا موجزاً لمعنى النسِيء».

(٥) سورة التوبة آية ٣٧.

رزقهن وكسوتهن بالمعروف. ثم أوصى بالنساء خيرًا، فقال: وإنما النساء عندكم عوان^(١) لا يملكن لأنفسهن شيئًا، وإنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيرًا، ألا هل بلغت؟ قال الناس: نعم، قال: اللهم اشهد، ثم قال: أيها الناس: إن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم هذه، ولكنه قد رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرونه، فقد رضي به، إن كل مسلم أخو المسلم، وإنما المسلمون إخوة لا يحل لامرئ مسلم دم أخيه إلا بالحق ولا ماله إلا بطيب نفس منه، وإنما أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا دماءهم وأموالهم وحسابهم على الله، ولا تظلموا أنفسكم، ولا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض، إني قد تركت فيكم ما لا تضلون بعده، كتاب الله، ألا هل بلغت؟ قال الناس: نعم. قال: اللهم اشهد. وفي هذه الخطبة قال ﷺ: خذوا عني مناسككم لعلي لا أحج بعد عامي هذا، وأنزل المهاجرين والأنصار منازلهم، وقال لا يجني جان إلا على نفسه، وقال: اعبدوا ربكم وصلوا خمسكم وصوموا شهركم وأطيعوا إذا أمركم، تدخلوا جنة ربكم.. وقال ﷺ: واعلموا أن الصدور لا تغل^(٢) على ثلاث، إخلاص العمل لله، ومناصحة أهل الأمر، ولزوم جماعة المسلمين، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم، وفي رواية أنه قال ﷺ: قد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله، وأنتم مسئولون عني، فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، ثم قال بإصبعه السبابة يشير إلى السماء يرفعها ويكبها^(٣) ثلاثًا: اللهم اشهد، وودع حينئذ الناس، فقالوا: حجة الوداع^(٤).

وبعد أن انتهى من خطبته هذه التي هي (بحق) قواعد الدستور الإسلامي العام توجه إلى المنحر، ونحر بيده ثلاثًا وستين بدنة، وكان ينحرها قائمة معقولة يدها اليسرى. ثم أمسك وأمر عليًا أن ينحر ما بقى من المائة. ثم أمر عليًا أن يتصدق بجلاها ولحومها وجلودها على المساكين، وأمره أن لا يُعطي الجزار في جزارتها شيئًا منها، وقال: نحن نعطي من عندنا، وقال من شاء قطع. رواه البخاري.

وفي منى وضع ﷺ قاعدة للتيسير على الناس في أداء المناسك، بعيدة عن التزم

(١) عوان جمع عانية وهي الأسيرة، كذا جاء في شرح أبي ذر.

(٢) أغل يغل «من الأغلال»: خان.. وغل يغل «من الغل» إذا صار ذا ضغن وغش وحقد.

(٣) كب الشيء نكسه.

(٤) انظر مغازي الواقدي ج ٣ ص ١١١١ وما بعدها وزاد المعاد ج ١ ص ٤٧٥ وسيرة ابن هشام ج ٤ ص ٢٥٠

وإمتاع الأسماء ص ٥٢٣ وتاريخ الخميس ص ١٥٠.

والتحجر. فلا يأتيه سائل يسأله إلا يسر عليه وقال له: لا حرج.

قال ابن القيم: وهناك سئل عمن حلق قبل أن يرمي؟ وعمن ذبح قبل أن يرمي؟ فقال: لا حرج. قال عبد الله بن عمرو بن العاص: ما رأيت ﷺ سئل يومئذ عن شيء إلا قال: افعلوا ولا حرج^(١).

وعن أسامة بن شريك، قال: خرجت مع رسول الله ﷺ حاجاً، وكان الناس يأتونه فمن قائل: يا رسول الله، سعيت قبل أن أطوف، أو أخرت شيئاً وقدّمت. فكان يقول لا حرج لا حرج إلا على رجل اقترض عرض رجل مسلم وهو ظالم، فذلك الذي هو حرج وهلك. رواه أبو داود. فلما أكمل ﷺ نحره استدعى حالقه فحلق رأسه.

وبعد أن نحر هديه وحلق بمنى أفاض ﷺ إلى مكة على ناقته قبل الظهر راكباً، فطاف طواف الإفاضة وهو طواف الزيارة والرابع من أركان الحج، ولم يطف غيره ولم يسع معه؛ لأنه قد سعى قبل طلوعه إلى عرفات وبقي على إحرامه لأنه ساق معه هدياً ولكونه قارئاً، قال الإمام ابن القيم: وهذا هو الصواب. أما بقية الصحابة الذين لم يكن معهم هدي فطافوا وسعوا؛ لأنهم إنما أحرموا بالحج من رحالهم بظاهر مكة ولم يسع أحد منهم قبل الطلوع سعى الحج.

وبعد أن قضى طوافه أتى زمزم فشرب وهو قائم، وكان في طوافه هذا راكباً وماشياً، ثم رجع إلى منى وصلى بها الظهر يومئذ، ثم بات بها، وبعد أن زالت الشمس رمى الجمار الثلاث ومشى إليها جميعاً ولم يركب، وكان رميه لكل جمرة سبع حصيات واحدة بعد واحدة، وكان يقول مع كل حصاة: (الله أكبر).

النبي يخطب ثانية بمنى: وكان وخلفه المسلمون أهل مكة وغيرهم يصلي بهم قصرًا لا جمعًا. وقال ابن القيم: إنه ﷺ خطب بمنى خطبة ثانية وذلك ثاني يوم الحج الأكبر... وقد وردت هذه الخطبة بعدة روايات، ونحن لعظيم فائدة ما جاء في هذه الخطبة نورد منها بعض المقاطع. روي عنه ﷺ أنه مما قاله في هذه الخطبة: «أتدرون أي يوم هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: هذا أوسط أيام التشريق، هل تدرون أي بلد هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: هذا المشعر الحرام. ثم قال: إني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي

(١) زاد المعاد ج ٢ . ص ٤٧٥.

هذا، ألا وأن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا، في بلدكم هذا، حتى تلقوا ربكم، فيسألكم عن أعمالكم، ألا فليبلغ أدناكم أقصاكم، ألا هل بلغت؟» قالت راوية الحديث (سراء بنت نبهان)^(١) : فلما قدمنا المدينة لم نلبث إلا قليلاً حتى مات ﷺ. رواه أبو داود^(٢).

وروى أنه قال في الخطبة ذلك اليوم (ثاني أيام التشريق): ألا لا تظلموا ألا لا تظلموا ألا لا تظلموا إنه لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس، ثم أرسى قاعدة من أعظم قواعد المساواة بين البشر على اختلاف أجناسهم وألوانهم فقال: أيها الناس إن ربكم واحد وأباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي، ولا أسود على أحر، ولا أحر على أسود إلا بالتقوى، هل بلغت؟ قالوا: بلغ رسول الله ﷺ، قال ﷺ: ليلغ الشاهد الغائب».

وقال في مقطع آخر: وسأخبركم من المسلم من سلم الناس من لسانه ويده، والمؤمن من أمنه الناس على أموالهم وأنفسهم، والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب، والمؤمن حرام على المؤمن، كحرمة هذا اليوم، لحمه عليه حرام أن يأكله بالغيبة يغتابه، وعرضه عليه حرام أن يظلمه، وأذاه عليه حرام أن يدفعه دفعاً... يا معشر قريش لا تحيئوا بالدنيا، تحملونها على رقابكم ويجيء الناس بالآخرة، فإني لا أغني عنكم من الله شيئاً^(٣).

عودة الرسول ﷺ إلى المدينة: وبات ﷺ بمنى ثلاث ليال فلم يتعجل في يومين ثم غادر منى يوم الثلاثاء وهو رابع أيام التشريق واتجه إلى الحصب وهو شعب يصب في الأبطح بين مكة ومنى^(٤)، ويسمى في الجاهلية خيف كنانة، وقد ضرب للنبي ﷺ في

(١) هي سراء بنت نبهان الغنوية ولم يزد في أسد الغابة على قصة سماعها هذا المقطع من خطبة النبي ﷺ.

(٢) زاد المعاد ج ١ ص ٤٩٥.

(٣) مجمع الزوائد لعلي بن أبي بكر الهيثمي ج ٣ ص ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٦٨، ٢٧٢. وهكذا يكون ﷺ قد خطب في حجته خطباً أربعمائة. خطبة بمكة قبل طلوعه الحج، والخطبة يوم عرفة بنمرة، وخطبة يوم العيد يوم الحج الأكبر بمنى، وخطبة ثاني أيام التشريق بمنى أيضاً.

(٤) النهاية ج ٢ ص ٢٥٥.

المحصَّب أبو رافع ^(١) قبة، فحط ﷺ رحاله بالمحصَّب، وصلى به الظهر والعصر، وكان المحصب له تاريخ مشهور في الجاهلية، وذلك أن قريشاً وبني كنانة (عند بداية الدعوة) تعاهدوا وتحالفوا على بني هاشم وبني المطلب أن لا يناكحوهم، ولا يكون بينهم وبينهم شيء حتى يسلموا إليهم رسول الله ﷺ . ولذلك قصد رسول الله ﷺ أن يكون المحصَّب منزله بعد خروجه من منى.

ففي الصحيحين عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال - حين أراد أن ينفر من منى - : نحن نازلون غداً إن شاء الله بخيف بني كنانة حيث تقاسموا عليّ الكفر، يعني بذلك المحصَّب، قال الإمام ابن القيم: فقصد النبي ﷺ إظهار شعائر الإسلام في المكان الذي أظهرها فيه شعائر الكفر والعداوة لله ورسوله، وهذه كانت عادته ﷺ أن يقيم شعار التوحيد في موضع شعائر الكفر والشرك، كما أمر ﷺ أن يبني مسجد الطائف موضع اللات والعزى ^(٢).

وبعد أن صلى الرسول ﷺ الظهر والعصر ثم المغرب والعشاء رقد رقة ثم نهض إلى مكة فطاف للوداع ليلاً سحرًا، ولم يرمل في هذا الطواف. وطاف المسلمون معه، ثم نادى في أصحابه بالرحيل فارتحلوا، فلما كان بالروحاء ^(٣) لقي ركباً فسلم عليهم وقال: من القوم؟ فقالوا: المسلمون. قالوا: فمن القوم؟ فقال: رسول الله، فرفعت امرأة صبيها لها من ملحفتها، فقالت: يا رسول الله ألهذا حج؟ قال: نعم ولك أجر ^(٤). ثم لما أتى ذي الحليفة بات بها، فلما رأى المدينة كبر ثلاث مرات، وقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك والحمد وهو على كل شيء قدير، أيون تائبون، عابدون، ساجدون لربنا حامدون، صدق الله وعده ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده ^(٥). ثم دخل المدينة نهاراً من طريق المعرّس وخرج من طريق الشجرة.

(١) زاد المعاد ج ٢ ص ٤٩٦.

(٢) زاد المعاد ج ٢ ص ٤٩٩.

(٣) الروحاء تقع على بعد حوالي ٦٠ كيلو متر من المدينة.

(٤) رواه مسلم والنسائي وأبو داود.

(٥) رواه البخاري ومسلم.

الأمر بتجهيز جيش أسامة بن زيد: ولما وصل الرسول ﷺ المدينة أقام بها بقية ذي الحجة والمحرم وصفر، وفي اليوم الخامس والعشرين من صفر سنة إحدى عشر هجرية أمر الرسول ﷺ بتجهيز جيش كبير لغزو الروم وجعل أميراً على الجيش (الذي استوعب المهاجرين والأنصار)^(١) مولاه أسامة بن زيد وعمره يومئذ عشرين سنة، وكان من ضمن جنود الجيش أبو بكر وعمر. وقد استكمل الجيش تجهيزه وقفل من المدينة حتى عسكر بالجرف على بعد حوالي ثلاثة أميال من المدينة، وكان على وشك التحرك إلى الشام لولا أن نبأ عاجلاً بعثت به إلى القائد أسامة أمه أم أيمن تخبره فيه أن الرسول ﷺ قد غلبه المرض وأنه يحتضر. والواقع أن أسامة فصل من المدينة بالجيش والمرض قد ألم برسول الله ﷺ، فقد كانت الأوامر بتجهيز الجيش يوم الاثنين لأربع بقين من صفر، وكانت بداية مرض النبي ﷺ بالحمى يوم الأربعاء لاثنتين بقين من صفر، ولكنه ﷺ ورغم المرض الذي ألم به عقد اللواء بيده للقائد أسامة وذلك يوم الخميس التاسع والعشرين من صفر سنة إحدى عشرة هجرية، بعد ذلك خرج أسامة بالجيش إلى الجرف. وكان أسامة يأتي من قيادته في الجرف على المدينة يومياً تقريباً، ليطمئن على صحة الرسول ﷺ، وعندما أبلغته أمه أن الرسول ﷺ يحتضر ترك معسكره وعاد سريعاً إلى المدينة ومعه عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح، وما هي إلا لحظات بعد عودتهم إلى منزل الرسول ﷺ حتى توفي عليه الصلاة والسلام، وكانت وفاته يوم الاثنين الثالث من شهر ربيع الأول سنة إحدى عشر هجرية^(٢).

أما جيش أسامة فقد ظل مرابطاً في الجرف خارج المدينة، وكان الناس يتوقعون أن يعود هذا الجيش وتُلغى عملية غزو الروم التي أمر الرسول ﷺ بها. ولكن بعد أن تم دفن الرسول الأعظم بأبي وأمي هو ﷺ، وبويع أبو بكر الصديق بالخلافة أمر الجيش بالتحرك لغزو الشام كما هي أوامر الرسول ﷺ، وقد عاد الجيش إلى المدينة من الشام منتصراً. وسنعرض إن شاء الله بالتفصيل لغزوة أسامة وما حدث لها من معارضة من كبار الصحابة في كتابنا الجديد (حروب الردة).

(١) تاريخ الخميس ج ٢ ص ١٥٥.

(٢) تاريخ الخميس ج ٢ ص ١٥٥.

ظهور الردة في حياة النبي ﷺ: وفي عهد النبي ﷺ كان الشيطان يراود اثنين من شياطين العرب لكي يدعيا النبوة، وكانا يعدان الأمر لذلك وهما مسيلمة الكذاب الحنفي في اليمامة بنجد، والأسود العنسي في صنعاء في اليمن، وكانا يستغويان الناس إلى دعوتهما الشيطانية، ولكنهما لم يجرؤا على إظهار أمرهما إلا عندما علما بمرض النبي ﷺ، فظهر الأسود العنسي في صنعاء وظهر مسيلمة في اليمامة. أما الأسود العنسي فقد قتله المسلمون بقيادة فيروز الديلمي قبيل وفاة النبي ﷺ، وأما مسيلمة فقد بقي يفتن الناس حتى قتله خالد بن الوليد في معارك اليمامة الشهيرة كما سيأتي تفصيله في كتابنا الجديد (حروب الردة) إن شاء الله.

* * *

- ١٦٩٧ ثقيف تقتل سيدها بعد إسلامه
- ١٧٠٢ ثقيف كلها تدخل الإسلام
- ١٧٠٨ شروط مرفوضة يشترطها وفد ثقيف لإسلامهم
- ١٧١٣ أمير ثقيف منهم
- ١٧١٤ هدم الطاغية اللات وما صاحبه من متاعب
- ١٧٢٣ لفصل السادس نظرة وتحليل
- ١٧٢٣ قتلى الفريقين في معركة حنين
- ١٧٢٩ دروس من حنين
- ١٧٢٩ أسباب هزيمة المسلمين في البداية
- أهم أسباب انتصار المسلمين بعد انهزامهم
- ١٧٣٢ أسباب هزيمة انهيار هوازن الساحقة بعد انتصارها
- ١٧٣٦ أسباب فشل المسلمين حصار الطائف
- ١٧٤١ انهيار الوثنية في جزيرة العرب
- ١٧٤٢ غزوة تبوك
- ١٧٤٧ كلمة المؤلف
- الفصل الأول: مجمل الأحداث العسكرية بين غزوة حنين وغزوة تبوك
- ١٧٤٩ الحملات العسكرية بعد حنين والطائف ١٧٥١
- ١٧٥١ حملة تأديب بني تميم
- ١٧٥٣ خزاعة تطرد بني تميم من بلادها
- ١٧٥٤ حملة لتأديب خثعم
- ١٧٥٥ سرية بني كلاب
- ١٧٥٦ حملة علقمة المدلجي البحرية
- ١٧٥٨ سرية علي إلى طيبء
- ١٧٦٢ كيف هرب عدي بن حاتم إلى الشام
- ١٧٦٥ إسلام كعب بن زهير الشاعر
- ١٧٧١ الفصل الثاني : ما هي تبوك؟
- ١٧٧١ تاريخ قبائل الشمال
- ١٧٧٦ كيف حشد الرسول جيشه
- ١٧٧٨ الاستنفار العام بين المسلمين
- ١٧٨٠ أغنياء الصحابة يتبرعون للجيش
- ١٧٨٣ اشتراك النساء في التبرع
- ١٧٨٣ عناصر التخريب تتحرك في المدينة.
- ١٧٨٥ نماذج من تصرفات المنافقين
- ١٧٩٣ تدمير وكر تأمر المنافقين
- ١٧٩٥ تكامل حشد الجيش والترتيبات الإدارية
- ١٧٩٦ أمير المدينة بالنيابة
- ١٧٩٧ شأن البكائين المؤمنين
- الفصل الثالث : الجيش يتحرك نحو الشمال:
- ١٨٠١ سلاح الفرسان في الجيش
- ١٨٠٤ الأربعة المؤمنون المتخلفون
- ١٨٠٦ الطريق الذي سلكه الرسول
- ١٨٠٩ المنافقون في الجيش
- ١٨١٢ المرور بديار ثمود
- ١٨١٥ العناصر المشبوهة داخل الجيش
- ١٨٢٠ أول من حدا من العرب بالإبل
- ١٨٢٠ نصرة أهل اليمن للإسلام
- ١٨٢١ النبي يصلي مأمومًا

- ١٨٦٩ تاريخ القدوم من تبوك
- ١٨٧٠ وفاة زعيم المنافقين ابن أبي
- ١٨٧٣ القرآن والمنافقون
- ١٨٧٥ سيطرة الإسلام على جزيرة العرب
- ١٨٧٧ الفصل الخامس
- ١٨٧٧ نزول القرآن بفريضة الحج
- ١٨٧٩ الإنذار الذي تلقاه المشركون
- ١٨٨١ حملة خالد بن الوليد إلى نجران
- ١٨٨٥ سرية علي بن أبي طالب إلى اليمن
- ١٨٨٧ إسلام كعب الأحمار
- ١٨٨٨ عام الوفود وتكامل الإسلام.
- ١٨٩٠ الوفود
- ١٨٩٠ سيطرة الإسلام الكاملة على جزيرة العرب
- ١٩٣٤ وفود ذي الكلاع الحميري
- ١٩٣٤ تجميع الزكاة
- ١٩٣٥ حجة الوداع
- ١٩٣٥ النبي لم يحج حجة الإسلام في العمر إلا مرة
- ١٩٣٨ النبي يكسو الكعبة في حجته
- ١٩٣٩ صلاة أهل مكة خلف النبي
- ١٩٤٢ هل وجه المرأة عورة؟
- ١٩٤٢ النبي ﷺ في منى
- ١٩٤٢ خطبته يوم العيد يوم الحج الأكبر
- ١٩٤٥ النبي يخطب ثانية بمنى
- ١٩٤٦ عودة الرسول إلى المدينة
- ١٩٤٨ الأمر بتجهيز جيش أسامة
- ١٩٤٩ ظهور الردة في حياة النبي
- ١٨٢١ وقفة تشريعية
- ١٨٢٢ الوصول إلى تبوك
- ١٨٢٢ الحرس النبوي في تبوك
- ١٨٢٤ من هو الشهيد في سبيل الله
- ١٨٢٥ قصة الجنبي الذي تمثل في شكل حية
- ١٨٢٦ النبي يصلي بعد طلوع الشمس
- ١٨٢٦ خطبة أشبه بخطبة الوداع
- ١٨٢٨ الإيمان يمان
- ١٨٢٨ الرسول يتحدث عن فضل الخيل
- ١٨٢٩ من التريبة النبوية
- ١٨٣٠ لا أثر للرومان على الحدود
- الفصل الرابع : سيطرة المسلمين جنوب الشام:
- ١٨٣٣ فتح دومة الجندل
- ١٨٣٦ خالد يتحرك من تبوك
- ١٨٣٨ كيف استسلمت القلعة
- ١٨٣٩ هل أسلم أكيدر
- ١٨٤١ استشارة الرسول
- ١٨٤٣ المنافقون يحاولون اغتيال النبي ﷺ
- ١٨٤٣ كيف فشلت خطة المنافقين؟
- ١٨٤٩ المطالبة بإعدام المتأمرين
- ١٨٥١ قصة مسجد الضرار وهدمه
- ١٨٥٥ كاد الرسول أن يصلي في مسجد الضرار
- ١٨٥٨ قصة الثلاثة الذين تخلفوا
- ١٨٦٣ كعب بن مالك يتحدث عن مأساته
- ١٨٦٥ ملك غسان يتصل بكعب بن مالك يغريه بالكفر
- ١٨٦٦ انتهاء المحنة بالتوبة